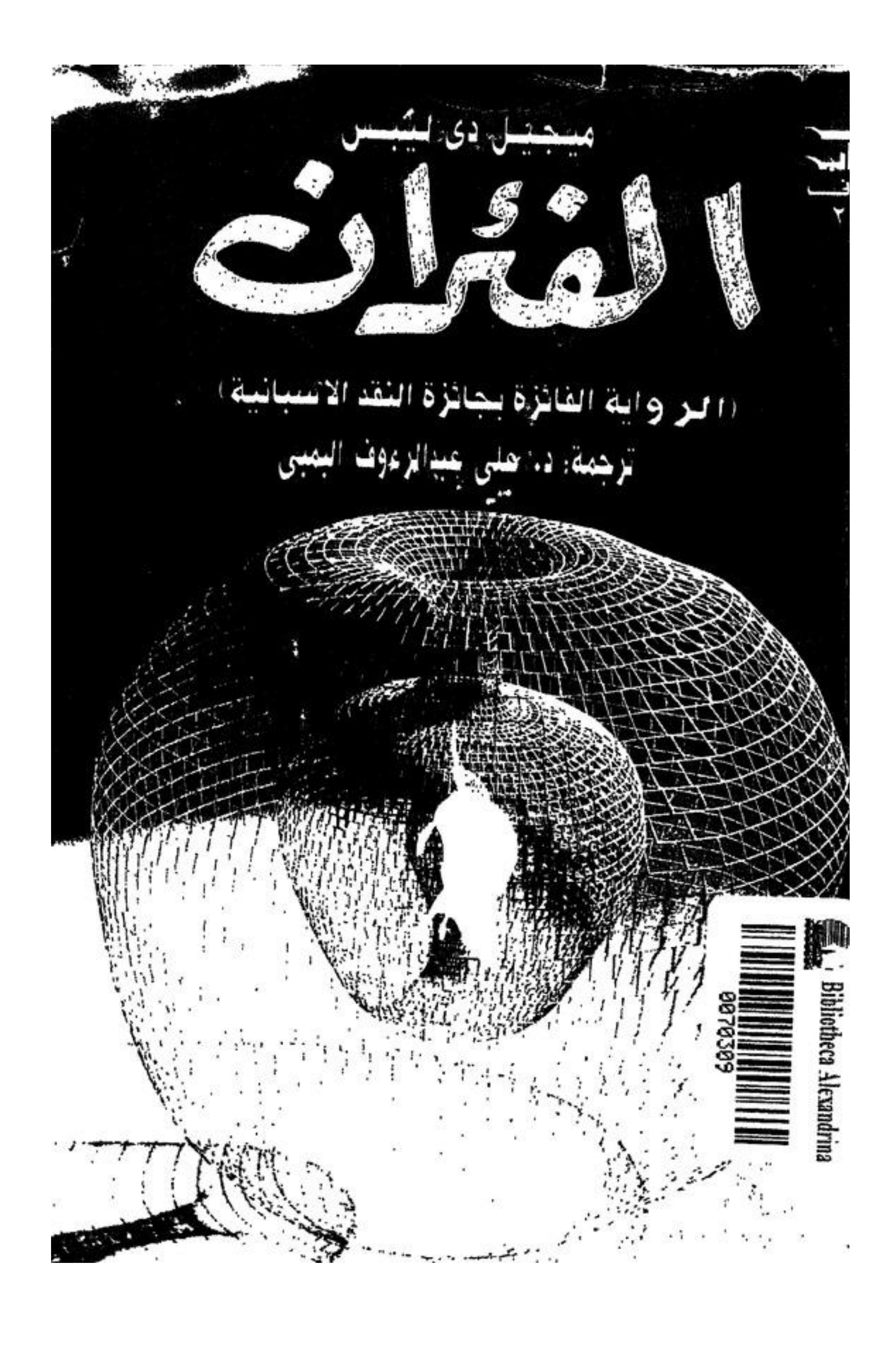


Bibliotheca Alexandrina
00700309

الفئران

(الرواية الفائزة بجائزة النقد الأسبانية)

الألف كتاب الثانى

الإشراف العام

د. سمير سرحان

رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير

أحمد صليحة

سكرتير التحرير

عزت عبدالعزيز

الإخراج الفنى

لمياء محرم

الفئران

(الرواية الفائزة بجائزة النقد الأسبانية)

تأليف
ميجيل دى ليبس

ترجمة
د. على عبد الرءوف البمبى



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٦

هذه هى الترجمة العربية الكاملة لرواية :

LAS RATES,

تأليف الكاتب الأسبانى

Miguel Delibes

فهـــــرس

دراســة تمهيـدية

البعد الانسانى فى رواية « الفئران »

قبل الحديث عن البعد الانسانى فى رواية « الفئران » ، التى بين أيدينا ، ينبغى أولا التعريف بالكاتب الذى تلتصق شخصيته وتتناغم مع شخصيات عالمه الروائى ·

صحيح أن الحديث عن كاتب كبير مثل «ميجيل دى ليبس» أو مجرد القاء الضوء على رد فعله تجاه العالم المحيط به أو الاشارة الى ضميره الاجتماعى يحتاج الى مؤلفات عديدة ، وقد تم هـذا بالفعـل من خـلال مجهـودات كثير من البـاحثين والمتخصصين داخل أسبانيا وخارجها ·

لكن ما تقدم ذكره لا يعفى من ضرورة ابراز الحقائق المهمة فى حياة هذا الكاتب ، لـكى يتعرف عليـه القارىء العربى بشكل مناسب ·

يعتبر «ميجل دى ليبس» من أهم الروائيين الأسبان بعد الحرب الأهلية (١٩٣٦ ـ ١٩٣٩) ، بل ان معظم النقاد يفضله على « كاميلو خوسيه ثيلا » الحائز على جائزة نوبل فى الأدب لعام ١٩٨٩، والذى ينتمى لنفس جيله · وبالطبع فان لكل كاتب منهما رؤيته الفنية الخاصة، وأدواته المتميزة فى طريقة القص ، الا أن أسلوب حياة « دى ليبس » المستقيم ومشاعره الانسانية العميقة وتعففه عن كل ما هـو زائف ومصطنع واحساسـه المرهف بأوجاع وأنات المظلـومين ـ فى أقسى فترات التاريخ الأسبانى المعاصر ـ قد جعلت منـه أنموذجا

يحتذى لكل من يبغى توظيف ملكاته الفنية فى تحرير جوهر الانسان من طغيان المظاهر المادية ٠

ولد كاتبنا عام ١٩٢٠ فى مدينة بلد الوليد (Valladolid) (شمال أسبانيا) ، وتلقى تعليمه الأساسى والثانوى فى مدارس كاثوليكية ، واختتم سلمه التعليمى بالحصول على درجتى دكتوراه فى كل من التجارة والقانون ٠

ومن المعروف أن مقاطعة كاستيا (قشتالة) (أو ما كان يسمى بمملكة كاستيا فيما قبل العصور الوسطى)،والتى تقع داخل حدودها الجغرافية مدينة بلد الوليد ، كان لها تاريخ عريق وعريض ٠ فقد حملت هذه المملكة قديما لواء مقاومة الفتح الاسلامى لشبه جزيرة أيبريا ، وقادت حرب الاسترداد التى استمرت أكثر من ثمانية قرون (أى طوال المدة التى مكثها العرب فى أسبانيا والبرتغال) ٠ وبعد سقوط غرناطة العربية خرج كثيرون من رجال مملكة قشتالة لاحتلال العالم الجديد ٠

ولقد كان من نتيجة هذا العبء الحربى الطويل اصابة اقتصاد المملكة بالشلل وتدهور معيشة سكانها على خلاف المقاطعات الأسبانية (ويمكن أن نلاحظ صورا عديدة لهذا التخلف الاقتصادى والحياتى من أحداث الرواية التى بين أيدينا) ٠ وبالرغم من هذا فان قيمة المقاطعة (قشتالة) الحربية لا تضارع قيمتها الثقافية ٠ فلغة هذا الاقليم : القشتالية (أى الأسبانية) هى التى أصبحت اللغة الرسمية لكل أسبانيا ، وهى التى انتقلت الى العالم الجديد لتصبح اللغة الرسمية لسكانه (باستثناء ثلاث دول فقط هى كندا والولايات المتحدة والبرازيل) ٠ كما أن هذا الاقليم قد دافع عن الدين المسيحى وحفظه وعمل على نشره فى جميع أرجاء المعمورة ٠

وبعد أن أوضحنا فى قليل من الكلمات الأهمية التاريخية

والثقافية للاقليم الذى ينتسب اليه كاتبنا نعـود لاستكمال حديثنا عنه ٠

فى عام ١٩٤٤ عمـل « دى ليبس » محـررا بصـحيفة « شمال كاستيا » ودافع من خـلالها عن حقـوق الفـلاحين والفقراء ٠ ولقد كشفت مقالاته المبكرة فى تلك الصحيفة عن اتجاهاته وميوله التى لم تكن أبدا سياسية أو حزبية بل انسانية فى مجملها ، كما كانت تلك المقالات ــ حتى الزراعى منها ــ بمثابة البذرة لمواهبه المتعددة كروائى ٠

وفى عام ١٩٤٥ شغل منصب أستاذ القانون التجارى فى جامعة بلد الوليد ، ثم تزوج فى العام التالى ، وله الآن سبعة من الأولاد ٠

فى نفس تلك الفترة أقام معرضا لرسوماته ولوحاته فى مدينته ، كما رأس تحـرير مجلة شـعرية واشـتغل بالنقـد السينمائى ٠

و « دى ليبس » يرتبط (روحيا وعاطفيـا وحياتيـا) بمدينتـه واقليمه ارتبـاطا وثيقـا ، لدرجـة أنه قاوم كل الاغراءات للانتقـال الى العاصـمة مدريد ٠ وفى كل مـرة يسافر فيها مضطرا للعاصمة للوفاء بما عليـه من التزامات ثقافية ، فانه يحرص عـلى قضاء معظم وقتـه الشـاغر فى أحيائها الفقيرة وبين أناسها البسطاء ٠

تتسم شخصية «دى ليبس» ــ سواء على الصعيد الانسانى أو الأدبى ــ بالتـوازن ٠ وقد أسهمت عدة عوامل تعـود الى نشأته الأولى فى هذا التوازن ، نذكر منها : شـعوره الدينى العميق ، الاسـتقرار العـاطفى والـروحى نتيجة للمحيط الأسرى الهادىء الذى ترعرع فيه ، وحبه وافتتانه بالطبيعة ومعرفته لأسرارها وأدق خباياها ، نتيجة لاتصاله المباشر بها (فمن المعروف أن « دى ليبس » كان حريصـا منـذ نعومة أظفاره على اصطحاب والده فى رحلاته الأسبوعية من أجـل

الصيد أو للاستمتاع بسحر الطبيعة الأخاذ بعيدا عن ضوضاء المدينة) ٠

ولقد ادت هذه السمات المبكرة الى تحديد نوعية اهتمامه فيما بعد (مثل الوقوف بجانب المظلومين والبسطاء ، والدفاع عن كل ما هو عفوى وانسانى) والى تفضيله للموضوعات الخالدة فى رواياته (مثل الحب ، الموت ، العدل الاجتماعى ، الطبيعة ، النقائص البشرية ٠٠٠ الخ) ٠ وهذا ما سنبحثه بشىء من التفصيل عند الحديث عن البعد الانسانى فى رواية « الفئران » ٠

أما أول رواية لكاتبنا فقد ظهرت عام ١٩٤٧ تحت عنوان « ظل شجرة السرو الممتد » ، وفازت وقتها بجائزة « نادال » الشهيرة ٠

وبعد هذه الرواية توالى عطاء الكاتب حتى يومنا هذا فكتب عشرات الروايات ، بعض كتب الرحلات ، العديد من المؤلفات فى مجال الصيد والقنص ، مجموعات من القصص القصيرة ، والكثير من المقالات والدراسات النقدية ٠

كما نال العديد من الجوائز الادبية : فبالاضافة لجائزة « نادال » التى فازت بها روايته الأولى ، حصلت رواية « الورقة الحمراء » على جائزة مؤسسة « خوان مارش » ، وفازت « يوميات صياد » بجائزة الدولة فى الأدب ، و « القيلولة وريح الجنوب » بجائزة الأكاديمية اللغوية الملكية ، و « الفئران » بجائزة النقد ، ٠٠٠ الخ ٠

وكان بامكانه الفوز بجوائز أكثر من التى حصل عليها لولا احجامه عن الاشتراك فى المسابقات الأدبية المختلفة حفاظا على كرامته ، ولاحساسه العميق بمدى قيمته ككاتب ، ولافساح المجال أيضا للكتاب الشبان ٠ ولقد أشار الى هذا صراحة فى حديث له مع الناقد « ألونسو دى لوس ريوس » :

« أتعتقد أنني في هذه الظروف وفي مثل هذه السن أحسن صنعا بمنافستي لشاب في أول طريقه الروائي ؟ » .

ولأهمية « دى ليبس » ولمكانته الكبيرة فى عالم الرواية الأسبانية فقد منحته الدولة جائزة « أمير أستورياس » في الأدب ، وجائزة الدولة التقديرية ، كما تم اختياره منذ بداية السبعينيات عضوا بمجمع الخالدين (الأكاديمية اللغوية الملكية) . أما أعماله فقد ترجم معظمها لكل لغات العالم الحية .

أما بالنسبة للانتاج الروائي لكاتبنا ، فقد اعتاد النقاد الفصل بين مرحلتين مختلفتين فيه : فالمرحلة الأولى ، التى تضم الأعمال التى كتبت قبل ١٩٥٠ ، تتميز بالميل الى التحليل الداخلى والفحص الباطنى ، وادراج شخصيات أنانية لا تعنى الا بشئونها الخاصة حتى لو تعارضت مع المصلحة العامة للمجتمع ، وعدم خروج فن القص فيها عن المألوف فى التراث الروائي الأسباني .

أما المرحلة الثانية ، التى تشتمل على ماكتب بعد ١٩٥٠ (الطريق ، يوميات صياد ، القيلولة وريح الجنوب ، خمس ساعات مع «ماريو» ، البندقية على الكتف ، الفئران ، يوميات مهاجر ، الورقة الحمراء ، الأمير المخلوع ، عام من حياتى ، القضبان ، الرحيل ، حروب الأجداد ، الصوت المشكوك فيه للسيد « كايو » ... الخ) ، فتتميز بالتحديث والموضوعية وبساطة السرد وطغيان الشعور الانسانى . كما تكتسب فيها الشخصيات والمواقف والأجواء أهمية تفوق الأفكار والموضوعات . صحيح أن هذا التغيير من جانب المؤلف لم يحدث فجأة ، بل تدريجيا لأن كل عمل يضيف بعض الملامح والسمات الجديدة .

ويرى « رامون بوكلاى » أن الفن الروائي لكاتبنا يمثل اتجاها وسطا بين الاتجاهين المتقابلين اللذين تتأرجح بينهما

الرواية الأسبانية بعد الحرب الأهلية : « الموضوعية » ، « الذاتية » · وقد أطلق على هذا الاتجاه الوسط مصطلح : « الانتقائية » ·

وتعنى « الانتقائية » تمتع المؤلف بضرب من الاستقلال عند ملاحظة وتفسير الواقع ، أو خلق نوع جديد من الواقع من خلال منهج انتقائى للمواد الخارجية ، يسمح للمؤلف بالاحاطة بكل صغيرة وكبيرة لكنه يظل محتجبا ، ويؤدى احتجابه هذا الى سهولة قبول القارىء لوجهة نظر الراوى (المؤلف) ·

وهذا النوع (المنهج الانتقائى) يختلف عن المنهج الموضوعى (أو الموضوعية) والذى يتحول فيه المؤلف (مثل « ألدوكيا » ، « سانتشس فيرلوسيو » ، « كاميلو خوسيه ثيلا » ··) الى عدسة لآلة التصوير السينمائى ·

كما يختلف أيضا عن المنهج الذاتى (أو الذاتية) التى سار على نهجها جيل الستينيات (أمثال : «خوان جويتيسولو»، و « آنا ماريا ماتوتى » ، و « مارتين سانتوس »···الخ) ، حيث يخلق المؤلف عالمه الخاص ، وهو عالم لا يقره ولا يتقبله القارىء الا اذا استبدل بموقعه موقع المؤلف · وخلق عالم خاص يعنى صياغة المؤلف لعالم غير واقعى ، لكنه تفسير للواقع من خلال منظور جديد ·

١ ــ أهم موضوعات الرواية :

لا يهتم « دى ليبس » بصياغة نظريات حول المجتمع ، بل يهتم ــ فى المقام الأول ــ بالانسان بعامة من خلال اهتمامه بالفرد وعلاقته بالمحيط الذى يعيش فيه · وجل شخصياته عبارة عن أناس متواضعين ، فقراء أنهكتهم المحن ، ويعيشون ــ غالبا ــ فى صراعات مختلفة مع مجتمعهم · ومن الموضوعات

المطروقة فى كثير من رواياته وتحتل مكانا بارزا فى رواية « الفئران » ، نذكر ما يلى :

(أ) الطفـولة :

يولى « دى ليبس » اهتماما كبيرا بموضـوع الطفولة . فهو يعتقد أن الأطفال والأشخاص البدائيين يقدمان للفاحص المهتم وجها بلا قناع ، على طرف نقيض من زيف أهل الحضر الذين يعيشون أسرى للميكنة والمخترعات الحديثة ·

كما يعتقد المؤلف أيضا أن طرح المشاكل البشرية من هذا المنظور يضفى عليها بعـدا انسانيا بارزا · ومن تم فقـد اختار لبطولة هذه الرواية صبيا (النينى) لا يتجاوز عمره الحادية عشرة · انه صبى فقير يعيش مع والده (الراتيرو) فى مغارة (أو كهف على قمة ربوة عالية) ، ويتمتع بذكاء خارق وبمعرفة لا حدود لها بالنسبة لكل ما يتعلق بالطبيعـة وما يوجد عليها (من حيوانات وأشجار ونبـاتات وطيـور ·· الخ) · صحيح أن الصبى تعلم الكثير من العم « روفو » العجوز (احدى شخصيات الرواية) لكن القسط الأكبر من معرفته يرجع لدقة ملاحظته ومراقبته الواعية لكل مظاهر الطبيعة وتحولاتها المختلفة · ولهـذا كان يلجأ اليه سـكان القرية جميعا لطلب المشورة وحل المشـاكل التى تعترضهم سواء أكانت متعلقـة بحقولهم وما عليها من مزروعات أم بحيواناتهم وطيورهم الداجنة ·· الخ ، فيقدم لهم «النينى» طائعـا الحلـول والنصـائح والمقترحات الايجابيـة قانعـا بالقليل الذى يجودون به عليه ·

والأهم مما تقدم أن المؤلف يدافع من خـلال « النينى » عن أفكاره حول التقدم والمدنية الحديثة وتحسين سبل الحياة فى الريف الأسبانى · ففى أكثر من مناسبة ــ فى الرواية ــ حاولت « دونيا ريسو » (احدى الشخصيات) الحاق «النينى» بمدرسة كى يتعلم ويحصـل عـلى شهادة من أجـل مستقبل

افضل ، لكن الصبى ـ ومن بعده والده ـ رفضا العرض رفضا قاطعا ، ولم يتزحزحا عن موقفهما هذا قيد انملة (انظر الفصل التاسع من الرواية) ٠

ويأتى رفض الصبى نتيجة لاقتناعه وسعادته بما يعرف عن الطبيعة من أسرار ، ولأنه لا يحب « التقدم » الذى يتطلب اقتلاع جذور الانسان الفطرية والهجرة الى عالم لا يريده ، الى عالم يكتظ بالمخترعات (الآلة) التى تقضى على استقلالية الأفراد وتصهرهم فى قالب واحد يسهل التحكم فيه سياسيا واقتصاديا واجتماعيا واداريا : ففي احدى المرات طلب « الروسالينو » (شخصية أخرى) من « النينى » أن يضرب بيده على (الكاربورتور) لأن محرك السيارة يقطع ، وعندئذ أجابه الصبى محركا كتفيه من الارتباك : « عن هذا لا أعرف شيئا ، يا سيد « روسالينو » ، انه من المخترعات » ٠

ولا يعنى ما تقدم أن « دى ليبس » ضد التقدم فى حد ذاته ، بل انه يرفض أن تسحب الآلة البساط من تحت قدمى الانسان ٠ فقد تحكمت الآلة فى الفرد بشكل أدى الى فقدانه لحريته وذاتيته ، وحولته الى حيوان تتحكم فيه غرائزه وشهواته ٠

ويطلب « دى ليبس » من خلال رفض « النينى » للفرصة التى أتاحتها له « دونيا ريسو » (الذهاب الى المدينة للالتحاق بمدرسة) ضرورة تحسين مستوى الحياة فى القرية ٠ فبدلا من الهجرة الجماعية الى المدن للاستمتاع بالتطور الحضارى والرفاهية المادية يجب نقل هذه الوسائل الى الريف، ومحاربة الفقر المدقع والجهل والحياة غير الكريمة لسكانه ٠ ولقد ذكر المؤلف هذا صراحة عند حديثه عن بطل الرواية :

« ٠٠٠ « النينى » نوع من الضمير الاجتماعى ٠ وصفنى البعض بالرجعية لرفض الصبى ترك القرية والذهاب الى مدرسة فى المدينة ٠ لقد أردت الاشارة الى وجود أشخاص يحبون الحياة الريفية ويميلون اليها ، فعلينا ألا نقاوم هذا

لان الوضع الحالى لا يحبذ مثل هذا التصدى • فقد يضطر البعض للهجرة الى المدينة في الوقت الذى تعجبه فيه حياة الريف ، فهل لهذا من مقابل ؟ ما يجب عمله ، والكفاح من أجله هو تحسين ظروف الحياة البائسة فى الريف حتى يمكن الاستمتاع بالتطور الحضارى والرفاهية المادية دون الحاجة لترك القرية » •

وبالاضافة لمطالبة المؤلف الفورية بتطوير الريف ، فانه ينتقد سلوكيات الكبار من خلال « النينى » الذى يتمتع باحساس مرهف ويكره الموت فى كل صوره وخاصة القتل الغادر المستهتر للحيوانات • فالصبى ــ الذى يمتهن الصيد مع والده ــ لم يكن يقبل قتل الحيوانات الا لضرورة استمرار بقاء النوع البشرى • وعلى خلاف هذا كان «ماتياس ثليمين» (المختلس) ــ وهو رجل ناضج وفى كامل قواه العقلية ــ لا يحترم مواسم الحظر فى الصيد ولا يتورع عن قتل الحيوانات الصغيرة غيلة وفى استهتار خالع العذار • ومن الأمثلة الكثيرة التى تبين غلظة هذا الرجل وقسوته نشير الى قتله لثعلبة حديثة العهد بالولادة وافتخاره بهذا الصنيع أمام « النينى » • وذات مرة ، اكتشف « النينى » فى احدى جولاته بالجبل ، ثعلبا صغيرا لا يتعدى الأسبوعين من العمر ماتت عنه أمه فحمله الى المغارة وتعهده بالرعاية حتى أصبح كفرد من العائلة ، لكن « ماتياس ثليمين » تسلل الى المغارة فى غياب الصبى وأرداه قتيلا وجرى بالثعلب المقتول وهو يصيح ويضحك كالمجنون •

فالمؤلف ــ كما نرى ــ ينتقد سلوكيات الكبار من خلال مقارنتها بتصرفات صبى صغير ، وهذا بهدف تضخيم سلبيات الكبار واثارة الاشمئزاز منها •

(ب) العـدل الاجتمـاعى :

يولى كاتبنا هذا الموضوع عناية خاصة فى كل أعماله ٠ وهذا شيء طبيعى اذا عرفنا أن «دى ليبس» يهتم على الصعيدين الشخصى والأدبى بحـاضر ومسـتقبل البسـطاء والفقـراء والمعدمين فى الارض ٠ وينبع هذا الاهتمام من حبه العميق للآخرين ومن اتصاله المباشر بالفقراء ، وخاصـة بفـلاحى المناطق الأشد قحولة وقسوة فى اقليم قشتالة (موطنه) ٠ ونذكر فى هذا المقام أن « دى ليبس » أخذ على عاتقه ، عندما كان يتولى رئاسة تحرير مجلة « شمال كاستيلا » ، مسئولية الدفاع عن حقوق الفلاحين والفقراء فى الريف الاسبانى مما ادى الى اصطدامه ، فى النهـاية ، بالادارة الحـكومية والى اقالتـه من منصبه ٠ وحبـه للمستضعفين والفقراء قد ملك عليه فؤاده ، وقد أشرنا فيما سبق الى انه عندما يذهب الى العاصمة مدريد لامر ثقافى مهم ، يفضل شغل وقت فراغه بالتجول فى الأحياء الفقيرة والتحدث مع ساكنيها ٠

انه بلا شك كاتب « ملتزم » ــ اذا أخذنا فى الاعتبار رد فعله تجاه العالم المحيط به ــ ، لكن التزامه لم يوقعه فى التشـهير أو الاتهامات الصـاخبة التى تتميز بهـا الرواية « الاجتماعية » ٠

انه التزام من نوع خاص حيث يهتم فيـه بابراز القيم التى تعتمد على الكرامة ، الاخاء ، المساواة ، وحق الانسان فى العيش الكريم على سطح الأرض ٠ ويؤكد رفض المـؤلف للظلم الاجتماعى فى رواية « الفئران » عـلى أهميـة القيم المشار اليها والتى تأخذ طابعا مختلفا فى هذه الرواية ٠

يعتقـد « دى ليبس » ــ بداية ــ أن هيـكل المجتمع الأسبانى به خلل واضح فيما يخص توزيع الأراضى الزراعية : فبجانب القلة التى تمتلك الكثير ، يوجـد الـكثيرون الذين يملكون القليل أو لا يملكون شيئا على الاطلاق ، ومن ثم فانه

ضد هذا التوزيع غير العادل • ففى قرية « النينى » ـ التى تدور فيها أحداث الرواية ـ نجد أن « دون أنتيرو » يملك وحده ثلاثة أرباع أرض القرية الزراعيـة ، بينما تمتلك « دونيا ريسو » والسيدة « كلو » ثلاثة أرباع الربع الباقى ، وما بقى من الأرض موزع مناصفة بين « البرودن » والثلاثين فلاحا الموجودين بالقرية •

ولم يمنع هذا الظلم الواضح والفادح « دون أنتيرو » من التشدق فى مسامراته بالمدينة بأن ما يفعله لقريته من خير يوازى التوزيع العادل للأرض • ولا شك أن المؤلف يسخر من قول « دون أنتيرو » الأخير لأننا لا نرى ولا نحس طوال الرواية بأى صنيع طيب من جانب هذا الرجل الذى خلع عليه الكاتب لقب El poderoso : أى المقتـدر الجبـار ، صاحب النفوذ والثروة •

ويرى « دى ليبس » ـ كضرورة لحـل مشـكلة التوزيع غير العادل للأرض ، أو للتخفيف منها على الأقل ـ اقتطاع أجـزاء من الأراضى المخصصـة للصـيد والقنص أو لتربية الحيوانات وتوزيعها على الفقراء الذين يعيشون على هامش المجتمع الريفى •

كما يرفض « دى ليبس » أيضا الظلم الاجتمـاعى من خلال ابرازه ووصفه الدقيق للواقع البائس لقرى «كاستيا» (قشتالة) التى تعانى من **الفقر والجهل واهمال السـلطات** المركزية •

ومن صور **الفقر** الشديد فى الرواية نجد أن « النينى » وأباه (الراتيرو) يعيشان معا فى مغارة أو كهف على قمـة ربوة عالية ، ولا يملكان من الموارد ما يستطيعان به الانتقال الى بيت جديد نظير ايجار زهيـد لا يتعدى مائة بيزيتة فى الشهر • وهما يعتمدان فى حياتهما عـلى صـيد الجرذان • ولقد وصل الفقر بالراتيرو مداه لدرجة أنه قتل أربعة كلاب

من خمسة أنجبتهم كلبته لانه لا يستطيع اطعامهم ، وقد اضطر للابقاء على الخامس لكي يحل محل الأم التى شاخت ولا تستطيع الوفاء بما عليها من مهام فى الصيد • وبالاضافة لكل تلك الظروف المعاكسة فان مستقبل الاثنين لم يكن مضمونا : فقد ظهر منافس لهما يصيد الجرذان لم يتردد « الراتيرو » ــ فى نهاية الرواية ــ فى قتله دفاعا عن مورد رزقه الوحيد •

اما **الجهل** فقد كان يضرب بأطنابه فى القرية التى يعتقد سكانها فى الخرافات والخزعبلات ولا يعرف معظمهم القراءة ولا الكتابة •

فلم تكن بالقرية مدرسة وفرصة التعليم الوحيدة التى لاحت فى الأفق كانت لـ « النينى » ، عندما عرضت عليه « دونيا ريسو » الذهاب الى المدينة للالتحاق بالمدرسة ، لكن الصبى رفض العرض دون تفكير أو تردد •

ويتجلى الجهل أيضا فى عدم احترام أهل القرية للقسيس الشاب المتواضع (دون ثيرو) الذى كان يحدثهم عن قضايا اجتماعية فى غاية الأهمية وعلى رأسها قضية العدالة الاجتماعية • لم يكونوا يفهمونه ، ومع ذلك كانوا يقبلون سماعه فقط ــ وعلى مضض ــ لأن الأغنياء كانوا يغضبون منه للخوض فى مثل هذه الأمور •

وعلى خلاف ما تقدم ، كان أهل القرية يشتاقون لسماع القسيس القديم ، الكبير الضخم ، (دون ثوسيمو) ويحترمونه لأنه كان يزعق فيهم بصوته الجهورى ويحدثهم فى الموضوعات التى يفهمون فيها مثل المعاصى والآثام التى تقترفها الأعضاء •

ومن صور الجهل والتخلف الأخرى ما حدث لـ « الأجابيتو » عندما صدم بدراجته طفلا ، ولكى يحدد القضاة مدى مسئوليته عن الحادث حولوه الى الأطباء ــ فى عاصمة الاقليم ــ بغرض قياس مستوى ادراكه • وبعد أن قام الأطباء باجراء

اختبار له قرروا ان ادراكه لا يتعدى ادراك صبى فى الثامنة من العمر ٠

ومن جهة أخرى ، فان القرية ـ شأنها فى ذلك شان بقية القرى ـ كانت تعانى من اهمال السلطات المركزية ٠ فلم يقم مسئول بزيارة القرية الا عندما تناهى الى سمع السلطات ان بالقرية بترولا٠ وساعتها قام المحافظ بنفسه، ومعه خبيران، بزيارة القرية للتأكد من صدق الخبر وزف البشرى فيما بعد لأولى الأمر فى العاصمة مدريد ، ولكن الله خيب رجاء المحافظ وعاد بخفى حنين بعد اكتشاف الخبيرين لزيف النبوءة (انظر الفصل الثانى عشر) ٠

وبالاضافة الى هذا الظهور العارض والبراجماتى للسلطات المركزية ، فان « خوستيتو »، العمدة ، (والذى يقيم بنفس القرية) قد حاول مرارا ، بأمر من المحافظ ذاته ، اجلاء « الراتيرو » وابنه عن المغارة وهدمها من أجل الحفاظ على مظهر الاقليم وسمعته أمام السياح الأجانب (انظر الفصول السابع ، الثانى عشر ، السادس عشر) ٠

وكما نرى ، فان تدخل السلطات فى الحالة الأخيرة لم يكن لصالح القروى الفقير ، بل للاضرار به لمجرد تحسين الصورة الخارجية أمام أجنبى جاء ليتسلى بالتقاط بعض الصور ٠

ودون الخوض فى أمثلة أخرى ـ وهى كثيرة ويمكن أن يتعرف عليها القارىء بنفسه ـ نود الاشارة الى أن «دى ليبس» قد رفض كل أشكال وصور الظلم الاجتماعى من خلال ابراز مشاكل الريف والفلاحين المقهورين ، والتعبير عن آلامهم وهمومهم وآمالهم بلغة واضحة ومباشرة مثل التى يتحدث بها أى فلاح منهم ٠

(جـ) الطبيعة :

يؤمن كاتبنا بأن الطبيعة تجمع بين كل ما هو أصيل وعفوى ، ويعتبرها ثقلا ضروريا لمجابهة التقدم البارد غير

الانسانى ، لأنها خرجت من نفس الرحم الذى خرج منه الانسان ٠

ولقد تعلم هذا الحب للطبيعة منذ صغره عندما كان يخرج بصحبة والده فى رحلات الصيد الأسبوعية : « أحببت ــ يقول « دى ليبس » ــ الحقل شيئا فشيئا ، بخضوع واذعان فى البداية ، مدفوعا بعد ذلك بالرغبة فى المعرفة ، ثم تحول الحب الى شغف وأخيرا الى رغبة عارمة ٠ لقد ملكت الطبيعة على كل حواسى » ٠

ولقد دفع اهتمام الكاتب العميق بالطبيعة ناقدا مثل « تورينتى بايستير » الى التأكيد بأن « دى ليبس » يعتقد أن الفضائل مكانها الريف بينما تعشش الرذيلة داخل المدينة ، لكن الكاتب أشار فى احدى المناسبات الى أن اهتمامه بالريف يرجع الى شعوره بالاخاء والشفقة تجاه سكان الريف الأسبانى عامة ــ وتجاه فلاحى اقليم قشتالة على وجه الخصوص ــ قبل أن يكون مجرد اعتراف بفضائل الريف ٠

أما بالنسبة للطبيعة التى وصفها الكاتب فى رواية « الفئران » فهى طبيعة قاسية ، مشئومة وبلا قلب ٠ وتتجلى مظاهر قسوة الطبيعة فى المفردات القاتمة المستخدمة فى وصف الأجواء الريفية ٠ انها مفردات تبعث على الاحساس بالتشاؤم ، بخيبة الأمل والموت بدلا من الحياة ٠ ففى الفصل الأول يقول المؤلف (الراوى) عند تعريفه لحدود القرية الأربعة :

« ٠٠٠ تسد الأفق من هذه الناحية سلسلة من القمم العارية ، وكأنها جماجم ، متوجة بنصف دستة من أشجاراللوز الضامرة ٠ تحت وهج الشمس يرسل الجص الكريستالى للمنحدرات بلمعان متقطع وغمزات لونية ٠٠٠ تقدم الخريف يخنق كل مظاهر الحياة النباتية ، فقط المرج ونبات الأسل ومجرى النهر يضفون آثرا لحياة على المشهد المحتضر» ٠

وكما نلاحظ فان وصف الطبيعة ليس مبهجا أو مصافا من وجهة النظر المثالية لفرد من سكان المدينة يعيش بعيدا عن هموم الريف ولا يحل به الا للاستمتاع بأجازته القصيرة ٠ لكن الفلاحين الذين يعيشون فى الريف ــ وخاصة الفقراء الذين لا يعرفون نظم الرى الحديثة أو الميكنة الزراعية وتعتمد محاصيلهم على ما تجود به السماء (مطر ، صقيع ، شمس ، طفيليات ٠٠٠ الخ) ــ لا ينظرون الى الطبيعة كما ينظر اليها مصطاف أو سائح ٠ انهم ينظرون اليها بمزيج من الخوف وفقدان الأمل وخاصة عندما تكشر لهم عن أنيابها ، وهى تفعل هذا بصفة تكاد تكون مستمرة ٠ ولهذا السبب كان العجوز (احدى الشخصيات التى تعرف الكثير من أسرار الطبيعة) لا يمل من ترديد المثل التالى : « فى قشتالة ، كما هو معروف ، الشتاء تسعة أشهر والجحيم ثلاثة » ٠

وتضم الرواية العديد من المشاهد التى توضح مدى قسوة الطبيعة ، وقد صورها الكاتب أدق تصوير وكأنه أحد الفلاحين البلغاء الذين يعايشون صراعها الدائم والمرير ٠

ففى احدى المرات أتى الجليد «الأسود» على ما بالبساتين من خضروات ، ولم ييأس الفلاحون بل ذهبوا الى بساتينهم وزرعوها من جديد ٠

وفى مرة أخرى قضت الآفات على الغلال وأضاعت فى ساعات قليلة مجهود تسعة أشهر طويلة ٠ ولقد التقط « دى ليبس » صدى هذا الحدث المروع على السكان وكأنه كان فردا ممن ضاع محصولهم : « منذ أسبوعين لا يسمع بالقرية سوى نعيب اللقلاق أعلى البرج ، والثغاء الحزين للخراف الوليدة خلف أسوار الحظائر ٠ كان الرجال والنساء يمشون فى شوارع القرية وهم يجرجرون أقدامهم فى التراب ، النظرات غائمة وكأنهم ينتظرون مصيبة ٠٠٠ » (انظر الفصل الحادى عشر) ٠

واذا كانت الآفات والجليد قد اهلكا المحصول فى المرتين السابقتين فقد تكفل بهذا ـ فى مرة ثالثة ـ المطر والثلج فى عنفوان الصيف :

« ومع غروب الشمس انفلت عيار ريح ساخنة أحدثت تموجات فى الحقول التى لم تحصد واثارت غيمة من الغبـار على الطريق ··· أطبق الظلام فجأة وازداد تعكر الجو ··· شقت السماء عن ضوء شديد جعل سلسلة القمم العالية تلمع وكأنها من فضة ··· أغرق البرق من جديد المنطقة فى ضوء شاحب وتبع دوى الرعد أنين الاعصار وهو يكتسح الروابى والحقول ، رافعا دوامات حلزونيـة كثيفة من التراب نحـو السماء · عندما هدأت الريح أخذت تتساقط حبات المطـر الأولى ، كانت حبات رمادية منتفخة ، مثل حبات العنب ·· » (انظر الفصل رقم ١٧) ·

واذا كان المطر هو سبب البـلاء هـذه المرة ففى مرات أخرى كثيرة ينتظره الفلاحون بفارغ الصبر ، لكنه يأبى على السقوط فيلجأون الى صلاة الاستسقاء ·

ولا نريد أن نسترسل فى سوق أمثلة أخـرى للطبيعـة القاسية التى وصفها المؤلف فى هذه الرواية ، لكن نريد أن نؤكد فقط على أصالة «دى ليبس» وشعوره الانسانى العميق عندما صور احساس الفلاح المرتبط بأرضه تجاه الطبيعة التى يعيش فى كنفها وعليهـا يعتمد حاضره ومسـتقبله · ولا ينصب اهتمام « دى ليبس » عـلى أركان الطبيعة فقط (الأرض والسماء وما بينهما) ، بل يهتم أيضا بكل مهجـة حية تعيش فى أحضان الطبيعة سواء أكانت طيرا أم حيوانا· ولذلك نجد أن كل رواياته تغص بالكثير من أنواع الطيور والحيـوانات ، حتى الغـريب منهـا ، حيث يصـف لنا أدق خصوصياتها وصفا يجمع بين دقة العالم وحس الأديب · ولذا فمن الشائع استعانة القـارىء الحضرى ((الذى يعيش فى

المدينة) لروايات « دى ليبس » بالقواميس والمعاجم المتخصصة فى هذا المجال ٠

٢ ـ التهكم والسخرية :

من المعروف أن غالبية البسطاء أو من ينتمون الى الطبقات الشعبية ، يتحلون بقدر كبير من السخرية والتهكم وخفة الدم وحب الدعابة ، ويستعينون بها على تخفيف مرارة الحياة ومعاناتهم اليومية ٠

ولأن « دى ليبس » يهتم بهذا الصنف من الناس فانه يتحدث دائما بلسانهم ويرى بعيونهم ويرتدى لباسهم ٠ ولقد حدا هذا بأحد النقاد أن يقول عن « دى ليبس » : « انه ليس كاتبا يحب الصيد بل صياد يعشق الكتابة » ٠

ومن هذا المنطلق ، لا نستغرب أن يستخدم المؤلف فى الرواية التى بين أيدينا التهكم والسخرية لكى ينتقد سوء الادارة المركزية ، ويبين فداحة تحكم الآلة فى الانسان وتراجع القيم الايجابية فى انسان العصر ، أو لابزاز مثالب الظلم الاجتماعى ٠

ويستخدم كاتبنا تكنيكات أسلوبية وبلاغية عديدة للوصول الى غايته هذه :

فنجده يخلط أحيانا بين الجد والهزل أو بين ما يسر وما يحزن ، وأحيانا أخرى نجده يقصد معنى آخر بعيدا غير المعنى المباشر والقريب للكلمات والجمل مستعينا فى هذا بالقرائن المختلفة سواء آكانت داخل النص أم خارجه ٠ هذا بالاضافة الى الصفات والألقاب الساخرة والمعبرة التى يخلعها على شخصياته ، ناهيك عن دعاباته اللاذعة عند وصفه لبعض الأحداث والأنشطة ٠٠ وقد أدى ما سبق الى تدخل الراوى (المؤلف) فى كثير من الأحداث والمواقف لكن دون أن يحولها الى مواقف تقريرية تعرض وجهة نظر صاحبها ٠ ان المواقف

والأحداث تتحدث بنفسها عن نفسها ، وتدخلات الراوى تعنى فقط بوضع بعض الرتوش عندالحاجة اليها حتى تكتمل معرفة القارىء بما يجرى ٠

ومن بين الأمثلة الكثيرة التى تحفل بها الرواية بالنسبه لموضوع التهكم والسخرية ما جاء عن « دون أنتيرو » ٠ فهذا الرجل على الرغم من امتلاكه لثلاثة أرباع أرض القرية لم يكن يوما يتقاعس عن الدفاع بكل الوسائل عن ممتلكاته وما يمسها من قريب أو بعيد ٠ ولكى يبرر وكيل أعماله (الروسالينو) صنيعه هذا فقد كان يقول ان سيده لا يفعل ما يفعلهلسوء طوية ، بللأن مواسمالشتاء تكون طويلة ومملة فى المدينة ولابد من أن يتسلى سيده بشىء ٠ ولكى يكمل الكاتب هذه اللوحة الساخرة فانه يقص علينا ما اعتاده « دون أنتيرو » كل عام بمناسبة حلول العيد السنوى للقرية ٠ اعتاد الرجل « تأجير بقرة معيبة لكى يجرى وراءها الفتيان ويضربوها على هواهم ، وبهذه الطريقة ينفسون عن الأحقاد والضغائن المتجمعة فى الصدور طوال الاثنى عشر شهرا السابقة » (انظر الفصل رقم ٥) ٠

ومن الأحداث الساخرة فى الرواية اضطرار « التينى » لسكب صفيحة بنزين فى بئر العمدة (خوستو) ، لكى يرد على اهانة امرأة العمدة وضربها له دون سبب ٠ وفى اليوم التالى عندما همت امرأة العمدة بشرب كوب من الماء صباحا أحست بتغير طعمه ، وعندئذ أخبرت زوجها الذى أجرى التجربة باشعال عود ثقاب ثم قربه من الماء فاشتعل فى الحال ٠ وعندها تصور أن البئر تحتوى على بترول، فأخذ دراجته على عجل وذهب الى عاصمة الاقليم ليخبر المحافظ بعد أن طلب من زوجته كتمان السر ٠

وقبل أن تغيب الشمس حضر المحافظ وبعد أن شاهد اشتعال الماء ، طلب من العمدة الانتظار حتى صبيحة اليوم التالى لكى يحضر خبيرين للمعاينة ، كما شدد عليه بضرورة

التكتم على الخبر لحين التيقن منه · لكن الخبر ما لبث أن طار مع المساء الى كل أنحاء القرية ، فتجمع السكان عند بيت العمدة وألحوا في كشف المستور · وبعد أخذ ورد أخبرهم العمدة أن المنطقة تعوم على بحر من البترول ، فلم يتمالكوا أنفسهم من الفرحة واحتفلوا بالحدث الخطير حتى الصباح· الى آن جاء المحافظ بصحبة الخبيرين اللذين اكتشفا بعد المعاينة زيف الخبر · وساعتها تهاوت أحلام القوم ووقفوا كالتماثيل وكأن على رؤوسهم الطير ، فما كان من المحافظ الا آن تسلق حافة البئر ووقف يخطب فيهم محاولا التسرية عنهم :

« أيها الفلاحون ـ قال ـ : لقد كنتم هدفا لدعاية سخيفة · لا يوجد بترول هنا · لكن لا يجب ان يفل هذا من عزيمتكم ، فالبترول عندكم فى أرضكم المحروثة وفى أسنة محاريثكم · استمروا فى العمل ، وبمجهودكم وحدكم سترقى حياتكم وستساهمون فى عظمة وطنكم · فلينهض الريف ويتقدم ! » (انظر الفصل رقم ١٢) ·

وبالرغم من هالة السخرية التى تغلف الحدث كله ، فان الخطبة الختامية للمحافظ تتناقض مع واقع القرية المرير · فالفلاحون يعرفون تماما أن أرضهم ومحاريثهم ليست مصدرا للثروة ولا يمكن أن ترقى بمستوى حياتهم ولن يستطيعوا ، بالتالى ، المساهمة فى مجد أسبانيا وعظمتها · انها خطبة جوفاء ، مناورة سياسية عديمة القيمة لأنها تلقى على أصحاب الشأن ، المكتوين بنار العمل الشاق والعائد القليل ، وهم وان كانوا فقراء وبسطاء ، الا أنهم يتمتعون بقدر لا بأس به من المكر والدهاء ولذلك ، لم يصفق له أحد منهم عندما أنهى كلماته ، بل انه هو ـ السياسى البارع ، صاحب الحول والطول ـ من توارى خجلا بسيارته الكبيرة خلف سحابة من التراب · ومن الصور الخفيفة الظل صورة قسيس القرية القديم الذى كان السكان يهابونه ويتأثرون بمواعظه : « يرتفع « دون ثوسيمو » ، القس القديم ، مترين ونصف

المتر عن الأرض ويزن ١٢٥ كيلو جراما • كان رجلا بشوشا لا يتوقف أبدا عن النماء » •

ومن المفارقات الساخرة خلع المؤلف للقب « الوصية الحادية عشرة » على « دونيا ريسو » (احدى شخصيات الرواية) • (ونحن وان كنا سنتناول هذا الموضوع بشيء من التفصيل فى العنوان التالى ، الا أنه من الواجب ايضاح ما فى هذا الأمر من دعابة وتهكم) •

فهذه السيدة بها كل الصفات المنفرة : عجفاء ، متكبرة ، فظة ، خصوم ، تهوى النميمة ، لا تحب التعامل مع أهل القرية ، وتقبض ريع أرضها نقدا وفى موعده سواء أنجا المحصول أم هلك • وبرغم كل هذه الصفات ، فهى تنصب نفسها زعيمة دينية على الجميع ، حيث تترأس الاحتفالات الدينية وتواظب على حضور القداس وتستشهد دائما فى أحاديثها بنصوص من الانجيل (وخاصة بنصوص الوصية الحادية عشرة) •

ان المؤلف يسخر من سلوكيات هذه المرأة بخلع هذا اللقب المهيب عليها ، كما يسخر من كل من يعتقد أن التدين شيء والتعامل والأخلاق والسلوكيات شيء آخر • فالمؤلف قد استنفر كل امكانات اللغة (بنحوها وصرفها وبلاغتها وبيانها وبديعها) فى تهكمه اللاذع وسخريته المريرة وذلك بقصد ابراز السجايا والمثالب التى تتمتع بها كل شخصية من شخصيات روايته • والقارىء الحصيف يمكنه الاهتداء الى مواطن السخرية والتهكم دون جهد أو عناء •

٣ ـ اللغة الدارجة :

بالرغم من تمتع كل لغة بخواص ومميزات وملامح قد لا يوجد لها نظير فى لغات أخرى ، الا أننا سنحاول تبسيط أهم سمات اللغة المستخدمة فى رواية « الفئران » ، والتى لا يستطيع القارىء الاهتداء اليها من مجرد قراءة الترجمة •

تحدثنا فيما سبق عن اهتمام الكاتب بالمشاكل الجوهرية لفلاحي اقليم قشتالة ، وعن اهتمامه بالنماذج البشرية البسيطة التى تعانى الفقر والجهل والتخلف ·· ولأن كاتبنا يحترم الأنماط البشرية المختلفة فانه يحترم كذلك وسيلة تعبير هذه الأنماط واللغة التى تتحدث بها ، ولهذا نجده يترك شخصياته لتتحدث بلسانها وعلى سجيتها ولا يسمح لنفسه التحدث نيابة عنها · ومن ثم فاننا نجد أن اللغة الدارجة أو العامية تحظى بأهمية كبيرة فى الرواية ، لأنها تتناسب وطبيعة الشخصيات وذات دلالة قوية داخل محيطها الاجتماعى ·

وبالاضافة الى هذا التبرير المنطقى للتواجد المكثف للغة العامية فى الرواية ، فان كاتبنا يفضلها كثيرا على لغة وسائل الاعلام التى يعتبرها سطحية متحذلقة وفارغة · فاللغة الدارجة – على حد قوله ، وبالرغم من الأخطاء القواعدية التى يمكن أن تشتمل عليها – أكثر دقة وخصوبة وثراء ·

ومن سمات اللغة الدارجة الأسبانية ، والتى استخدمها الكاتب نذكر :

استخدام أدوات التعريف مع الأسماء الأعلام ، الاكثار من التشبيهات والمقارنات ، شيوع استخدام الألقاب والصفات مع الأسماء ، لجوء المتكلم للايماءات والحركات لتوضيح ما يقول ، ضرب الأمثلة والأقوال المأثورة ، عدم التحرز فى استخدام بعض الألفاظ النابية ·· الخ ·

– وبالنسبة للسمة الأولى من سمات اللغة الدارجة ، نجد الكاتب قلما يذكر اسما علما بدون صفة الا وسبقته أداة التعريف (« el » « ال » أمام المفرد المذكر ، La «لا» أمام المفردة المؤنثة) ·

فبدلا من أن يقول : « برودن ، نينى ، مالبينو ، روساليتو ، خوسيه لويس ، أنتوليانو ، سيميونا ،

كولومبا ··· الخ » ، فانه يقول عادة : « البرودن ، النينى ، المالبينو ، الروسالينو ، الخوسيه لويس ، الأنتوليانو ، لاسيميونا ، لاكولومبا ·· الخ » ·

ــ كما يلجأ كاتبنا الى الاكثار من التشبيهات والى عقد المقارنات كما يفعل البسطاء ومن ينتمون الى الطبقات الشعبية فى أحاديثهم عادة · فانهم لكى يوضحوا فكرة أو معنى من المعانى يلجأون الى تشبيهه أو مقارنته بشىء ينتمى لنفس بيئتهم ويمكن أن تدركه حواسهم · ومن أمثلة هذا فى الرواية نذكر :

« سلسلة من القمم العارية وكأنها جماجم » ،

«عينا المختلس رماديتان ومشاكستان مثل عينى صقر» ،

« كل صباح كانت القرية تنهض متثاقلة فى جو من الزجاج ، حيث تقرقع أدنى ضوضاء مثل ضربة سوط » ،

« ··· هو أشقر وعيناه زرقاوان كحيلتان صغيرتان »·

« بدأ رجال » اكستريمادورا » العمل فى رابية « دونالثيو » وخلال أشهر قليلة رشقوها بأشجار صغيرة ، فأصبحت مثل وجه آدمى هاجمه الجدرى » ·· الخ ·

ــ كما يدقق « دى ليبس » فى اختيار أسماء شخصياته · فلكل طبقة اجتماعية أسماؤها الخاصة والتى تشتمل ــ فى كثير من الأحيان ــ على دلالات ذات مغزى ومعنى · فنجده ــ مثلا ــ يسمى العمدة : « خوستو » (بمعنى عادل) ·· والمؤلف قصده السخرية من اطلاق هذا الاسم بالذات على العمدة ، لأن أفعاله فى الرواية ــ وخاصة مع بطلها وأبيه ــ تتناقض مع مدلول الاسم المطلق عليه ·

كما يسمى المؤلف صائد الفئران « راتيرو » (والكلمة لها نفس المدلول فى الأسبانية) ، ويسمى الفلاح الحريص

الفطن الذى لا يكل ولا يمل من رعاية ارضـــه « البرودن » (والاسم يحمل نفس المدلول فى الأسبانية) ••• الخ •

ولا يكتفى المؤلف بهـــذا ، بل انه يتبع الاسم العلم ـ عادة ـ بصفة أو لقب يحددان طبيعة الشخصية أو عملهـا أو سلوكياتها ، ويذكر الاسم مشفوعا بالصفة أو اللقب أو يستغنى بالصفة أو اللقب عن ذكر الاسـم • وعـلى سـبيل المثال نذكر : « نينى ، الصبى » ، « دون أنتيرو ، الغنى » ، « خوستيتو ، العمدة » ، « الرابينو جراندى ، راعى الأغنام » « الرابينو تشيكو ، راعى الأبقار » ، «العم روفو ، العجوز» ، « ماتياس ثليمين ، المختلس » ، « السيدة كلو ، صاحبة دكان الخردوات » ، «دونيا ريسو ، الوصية الحادية عشر»•• الخ ويندرج هذا أيضا تحت خصائص ومميزات اللغة الدارجة فى الأسبانية •

ـ كثيرا ما تصدر عن المتكلم ايماءات أو حركات تعكس احساسه الداخلى مثل الخوف ، الحرص ، الحيرة ، الخجل ، الضـيق ، السرور ، الألم ••• الخ • والبسـطاء هم أكثر الناس استخداما لهذه الايماءات لعدم قدرتهم على التظاهر أو التكلف •

ولقد وفق الكاتب فى ابراز هذه السمة عند عرضــه للمواقف المختلفة لشخصيات عالمه الروائى • ومنهـا نذكر ما يلى :

« ويهيج خوستيتو ، العمدة ، وفى تلك الأحوال ، كانت تضيق ناصيته البنفسجية وتخفق وكأنها قلب صغير ينبض» ،

« تضاءلت انسانية القسيس الطاغية أمام المشـكلة • أمسك قبعته بحركة آلية قبل أن يتكلم » ،

« اكفهرت نظرته عندما اضاف : حقا لا يحتاج الفرد منا لأكثر من هذا » ،

« نظر الخوستيتو الى الخوسريه لويس الذى هز رأسه وقال مهمهما ٠٠٠ » ،

« أومأ الخوستيتو برأسه ٠ كان يبدو مثل تلميذ فى مدرسة يعانى من توبيخ أستاذه » ٠٠٠ الخ ٠

ـ كما تغص الرواية بالأمثال الشعبية والأقوال المأثورة والتى يتعلق معظمها بالحقل وبالظواهر الطبيعية المختلفة :

« عندما يكون العم أحمق ، فلابد أن يكون ابن العم كذلك » ،

« بعد انتهاء عيد آخر قديس ، ازرع القمح واجمع الدريس » ،

« يوم الثلاثاء لا تزوج ابنا ولا تذبح خنزيرا » ،

« عندما يكثر النبيذ تقل المؤن » ،

« فى قشتالة ، كما هو معروف ، الشتاء تسعة أشهر والجحيم ثلاثة » ،

« فى يونيو المطر ، يجلب الخطر » ٠٠ الخ ٠

هذه هى بعض خصائص اللغة التى تتحدث بها شخصيات الرواية والتى تتناسب وتتفق مع مستواها الفكرى والاجتماعى ، وهى وان دلت على شىء فانما تدل على معرفة الكاتب لأدق خصوصيات هذه اللغة وللكثير من أسرار الطبيعة التى تخفى على أهل الحضر ٠

وقد أشرنا فيما سبق الى أن اللغة الدارجة أو العامية التى تتحدث بها الشخصيات الريفية البسيطة ، تحظى بحضور مكثف فى الرواية ٠ وهذا يعنى وجود مستوى لغوى آخر ٠ وهذا المستوى الثانى يخص الراوى (المؤلف) عند تدخله

لوصف مظاهر الطبيعة المختلفة او لاضافة بعض الايضاحات التى لا يستغنى عنها الاطار العام للأحداث والشخصيات . ويستخدم الكاتب لذلك لغة راقية ، عذبة ، رقيقة وشاعرية تذكرنا بلغة الملاحم اليونانية القديمة . وها هى بعض الأمثلة :

● « أطل قمر أخضر فاتح وعليل خلف ربوة «كلورادو» ثم ارتفع بفتور فوق سماء معدنية عالية » .

● « بدأت قطع الثلج تتهاوى وتحولت المنطقة ، بعد ساعات قليلة ، الى كفن لا نهائى . أدمى البياض عيون القرية وطوبها اللبن ... تبدو الحياة وكأنها هربت من العالم مخلفة وراءها صمتا مخيفا وكثيفا كصمت المقابر » .

● « فى صبيحة اليوم الرابع أيقظ الصمت التينى . أطل الصبى من فوهة المغارة فوجد السحابة قد انقشعت ، وشعاع الشمس الخجول ينشر خصلاته الطويلة البيضاء ليرسم قوس قزح مضيئا بين قمتى «دونالثيو» و «كلورادو» . وصلت الى الصبى الرائحة الرخوة للأرض السكرى وسرعان ما أحس بغناء العندليب ، هناك تحت ، بين أشجار الصفصاف ، وعندئذ أدرك أن الربيع قد أتى » .

● « أمسك فجأة عن الضحك وراقب حوله انتظارا لتأييد أحد ، طافت عيناه بكل الوجوه ، واحدا بعد آخر ، لكنه لم ير الا سحابة من الشك ، استسلاما مخيفا قابعا هناك داخل الحدقات » .

يتضح مما سبق عرضه لبعض الملامح المهمة لرواية « الفئران » ـ التى نشرت عام ١٩٦٢ وفازت بجائزة «النقد» حال صدورها ـ مدى عمق الشعور الانسانى لمؤلفها «ميجيل دى ليبس » الذى انصب اهتمامه فيها على حياة البسطاء المقهورين (فلاحى اقليم قشتالة الأسبانى) ، وعلى الحيوانات والطيور والمزروعات التى تشاركهم هذه الحياة ، وعلى تصوير نبض الطبيعة التى شكلت مسرح الأحداث .

ولا نستغرب هـذا البعـد الانسـانى عـلى رجل مثل « دى ليبس » عاش وفيـا لمبـادئه ولمشروع حيـاة ، صارم وشريف .

اننا لا نبالغ اذا قلنا انه لا يوجد بين الروائيين الأسبان فيما بعد الحرب الأهلية (١٩٣٦ ـ ١٩٣٩) من يتوافر فيه الانسجام التام والتناغم الكامل بين الشخصية والأيديولوجية والفن مثلما يتوافر فى « دى ليبس » .

هذا الكاتب الذى يبغض آثام المدينـة التى يلغ فيهـا رجالها المزيفون عن عمد ووعى كاملين ، ويكره « التقدم » المادى الخالى من دفء العواطف البشرية والذى يستعبد الفرد ويحوله الى دمية وبهلوان وأداة للقمع والقهر .

هذا الكاتب الذى يجد فى كل ما هو أصيل وعفوى ملاذه وقرة عينه : الريف والطبيعة ـ التى تدنسـها يد الانسـان بالتغيير والتشويه ـ حيث تتجلى قدرة الخالق وعظمة ابداعه وتصـويره .

وقد أدى وفاء الكاتب لموقفه هذا الى رفضه لوجهة النظر المتحذلقـة السـفسطائية عنـد معالجتـه لمشـاكل الفقراء والمطحونين ، بل عرضها فى الاطار المناسب ، أى على مستوى بسيط وواضح كما كان يمكن أن يفعله فلاح بسيط من بنى جلدته .

ولهذا نجد أن سهام الكاتب كلها ـ فى الرواية ـ موجهة الى هدف واحد : ضرورة تحسين مسـتوى حيـاة الفـلاحين الفقراء ، والعمل على تقوية الروابط والحض على التضامن بين قطاعات المجتمع المختلفة ، ونصح من بيدهم مقاليد الأمور والأغنياء للاهتمام بالفقراء والمطحونين ومساعدتهم على حل مشاكلهم المزمنة لأن العائد سيكون خيرا على الجميع ، واعادة الانسان الى مرفأ الانسانية الذى أوشك أن يدمره التقـــدم المادى ، وتزكية الخـير أينما كان ومقـاومة الشر أيا كان مرتكبه أو المحرض عليه .

وقد عبر الكاتب عن كل ما تقدم ذكره بلغـة انسـانية متدفقة ، أصيلة ، عفوية ، رقيقة وشاعرية ، بعيدة كل البعد عن البهرجة والتقاليع المستحدثة ٠

ولقد تمخض احترامنا لهذا الكاتب الفذ عن ترجمة عمله هذا ترجمة دقيقة حتى لا نفوت على القارىء فرصة التعرف على أسلوب المؤلف العذب وطريقته الشيقة فى السرد والحوار ، وللوفاء بهذا لم تفقد ــ ولله الحمد ــ الجملة العربية تماسكها ووضوحها ، بل وعذوبتها أيضا ٠٠ فالنصيحة التى يمـكن أن نسديها تتلخص فى القراءة المتأنية الواعية ، لأننا أمام عمل يعد من روائع الفن الروائى فى مختلف العصور ٠

ولا نجد لختام ما بدأناه من حديث أفضل من هذه الصرخة الانسانية الحميمة للمؤلف : « اذا كانت مغامرة التقدم ، كما عهدنا حتى اليوم ، لا تعنى سوى زيادة العنف والكراهية ، الاستبداد وعدم الثقـة ، الظلم والاعتـداء عـلى الطبيعة ، المنافسة غير الشريفة والتفنن فى التعذيب ، تسخير الانسان لأخيه الانسان وعبادة المال ، فانى أصرخ بأعـلى صـوتى : أوقفوا الأرض ، أريد أن أسير على قدمى وحدى ! » ٠

د ٠ على عبد الرءوف على اليمبى

الفُرْقَانْ

ـ ١ ـ

بعد الفجر بقليـل ، أطل « النينى » من فوهة المغـارة وتأمل سحابة الغربان المتجمعة • على ضفة النهر بدت أشجار الصنوبر الثلاث ، المجذوذة الرؤوس ، وهى منطاة بالطيور وكأنها مظلات مقفلة تشير بأطرافها المدببة نحو السـماء • وعلى البعد كانت أراضى « دون أنتيرو » (١) الوطيئة تلمع بالسواد وكأنها مكان شاسع لحرق الحطب •

دلفت الكلبـة بين ساقى الصـبى الذى داعب ظهـرها بقدمه المتسخة العارية دون أن ينظر اليها ، ثم تثاءب ، مد ذراعيه ورفع عينيه نحو السماء البعيدة الصافية وقال :

ــ الجو مهيأ لنزول الثلج ، يا « فا » (٢) ، سنذهب يوم الأحد لصيد الجرذان •

هزت الكلبة بعصبية ذيلها المقصوص ورمقت الصـبى بحدقتيها النشطتين الصفراوين •

جفنا الكلبة متورمان وبدون أهداب ، قليـلا ما يصـل الكلاب أمثالها الى سن الشباب محتفظين بعيونهم ، فمن المعتاد أن يتركوها بين أحراج النهر ، بفعـل النبـاتات الشـائكة والسروال وشجر اللبلاب •

تحرك العم « راتيرو » بالداخل ، بين القش ، وعنـدما أحست به الكلبـة نبحت مرتين ، فارتفـع ، عنـدئذ ، سرب الغربان بكسل عن الأرض فى طيران متمهل وعميق ، منظوم

---

(١) « دون » (Don) لقب معناه : السيد ــ (المترجم) •

(٢) « فا » (FA) الاسم الذى يطلقه الصبى على كلبته ــ (المترجم) •

بضوضاء نعيقه المشئوم · ظل طائر منها على الأرض الداكنة بلا حراك ، وعندما رآه الصبى جرى تجاهه فى خطوط متعرجة تحدها الأخاديد الرطبة ، ومتفاديا مزاحمة الكلبة التى كانت تنبح الى جواره · عندما رفع الفخ لتحرير جثة الطائر ، رأى سنبلة من الشوفان لم تخدش فأمسكها بين أصابعه الصغيرة بعصبية فتبعثرت حباتها على الأرض ·

نادى ، رافعا صوته فوق نعيق الغربان التى كانت ترفرف بأجنحة ثقيلة ، ومتوجها نحو السماء :

ــ لم يتذوقها ، يا « فا » · لم يأكل حبة واحدة ·

تبدو المغارة ، وهى فى منتصف القمة وحولها أخاديد المنحدر ، وكأنها فم كبير يتثاءب · مازالت توجد على جوانب القمة أطلال ثلاث المغارات التى هدمها بالديناميت « خوستيتو » ، العمدة ، منذ عامين مضيا · كان « خوستيتو فادريكو » ، العمدة ، يطمح فى أن يعيش جميع من بالبلدة فى مساكن كالسادة ·

كثيرا ما كان يضيق الخناق على العم « راتيرو » قائلا :

ــ أعطيك بيتا نظير مائة بيزيتة وأنت ولا كلمة · ماذا تريد ، اذن ؟

ويكشف « الراتيرو » عن أسنانه الصفراء فى ابتسامة مبهمة ، ما بين بلهاء وماكرة ، ويرد عليه قائلا :

ــ لا شىء ·

ويهيج « خوستيتو » ، العمدة ، وفى تلك الأحوال ، كانت تضيق ناصيته البنفسجية وكأنها شىء يتحرك :

ــ ألا يروقك أن تفهمنى ؟ أريد هدم جميع المغارات · لقد وعدت المحافظ بذلك ·

ويهز « الراتيرو » كتفيه القويتين مرة بعد أخرى، ليقول له « مالبينو » بعد ذلك فى الحانة :

ــ خذ حذرك من « الخوستيتو » ٠ انه من النوع الذى يخيف ٠ أسوأ من الفئران ٠

فيرمقه « الراتيرو » المكوم على المائدة بعينين خشنتين جاحظتين ، ليقول له :

ــ الفئران لا تؤذى أحدا ٠

« مالبينو » كان يسمى من قبل « يالبينو » ، ولكن معارفه أطلقوا عليه الاسم الأول ، لأنه كان لا يحتمل بعد كأسين فقط من الشراب ٠

كانت حانة « المالبينو » ضيقة وقذرة ، أرضها من الأسمنت وبها نصف دستة من الموائد المصنوعة من الألواح الخشبية ، ومقاعدها ذات ظهور منخفضة ٠

اعتاد « الراتيرو » عند عودته من النهر الجلوس هناك ليأكل زوجا من الفئران المقلية والمتبلة بالخل ، مع نصف رغيف ، ويشرب كأسين من النبيذ الفاتح ٠ أما بالنسبة لبقية محتوى المخلاة فقد كان يشتريه « المالبينو » الفأرة ببيزتين ٠ تعود صاحب الحانة الجلوس الى جوار «الراتيرو» أثناء تناوله للطعام :

ــ عندما لا يقنع الرجال بما لديهم يثيرون المشاكل ، أليس كذلك يا « راتيرو » ؟

ــ فعلا ٠

ــ وعندما يقنعون لا يخلو الأمر من داهية يشغل نفسه بتقديم المزيد لهم ويثير المشاكل نيابة عنهم ٠ والنتيجة ، استمرار الشغب ، ألست معى فى هذا ؟

ــ معك ٠

ــ وعلى سبيل المثال انت ، فأنت راض بالعيش فى مغارتك ولا تدخل فى شجار مع أحد • ومع ذلك تتملك « الخوستيتو » فكرة ذهابك الى هذا البيت ، فى الوقت الذى يتقاتل عليه الكثيرون •

ــ نعم •

كانت السيدة « كلو » ، صاحبة دكان الخردوات ، تؤكد ان « المالبينو » هو ملاك الشر للعم «راتيرو» ، لكن «المالبينو» كان يرد على هذا قائلا : انه لا يمثل سوى ضميره •

من على عتبة المغارة ، راى العم » راتيرو » « النينى » وهو يهبط من على سفح القمة ، حاملا الغراب فى يد والفخ فى اليد الأخرى • تقدمت الكلبة عندما اكتشفت الرجل ووثبت مرة بعد أخرى عليه ، محاولة لعق يده الخشنة ذات الأصابع المتساوية ، وكأنها سويت بمقصلة • لكن الرجل كان يطبق ، فى كل مرة ، خرطومها وهو شارد الذهن والحيوان يهمهم بين غضب وسرور •

قال له « النينى » وهو يشير الى الغراب :

ــ قتله « البرودن » ، لن تترك له الغربان شيا فى الأرض المبذورة •

كان « البرودن » يبكر دائما بالزراعة ، وقد سبق أسبوع المطر الأخير وبذر الأرض بالحبوب • اسم «البرودن» الحقيقى « أثيسكلو » وقد أطلق عليه لقب « البرودن » لما يتسم به من عقل وحيطة • كان يحرث الأراضى البور فى مايو ، وهكذا تكون أرضه جاهزة عندما يصل شهر نوفمبر • وعندما ينقضى الصيف ، وقبل أن تصفر الأوراق بقليل ، كان يجمع أوراق أشجار الصنوبر الثلاث ويخزنها فى طرود، لكى يغذى بها الماعز خلال فصل الشتاء • كثيرا ما كان يستشير « النينى » : « نينى ، أيها الغلام ، سيسقط المطر

أم لا ؟ » . « نينى ، أيها الغلام ، الليلة ساكنة والسماء صافية ، ألا ينذر هذا بكارثة الثلوج السوداء ؟ » .

من يومين اقترب « البرودن » من « النينى » وكأنها مصادفة :

ــ « نينى » ، يابنى ــ ناداه فى نغمة باكية ــ ، الغربان لا تترك الــزرع فى حاله ، تنبش الأرض وتلتقط الحب . ماذا أفعل لتخويفهم ؟

تذكر « النينى » الجد « رومان » ، الذى كان يعلق غرابا ميتا ويجعل رأسه متدليا الى أسفل كى يبعد العصافير عن الأرض المبذورة . كانت الطيور تهرب من المشهد الدامى ، من حداد الأرض السوداوى الصامت كى تزدهر .

ــ دع الأمر لى ــ رد عليه الصبى .

بينما كان «النينى» يلتهم حساء الخبز على باب المغارة ، تأمل الغراب بريشه المتصلب وهو ملقى على نبات السعتر . كانت الكلبة تقعى الى جواره تتأمله فى ثبات واذا شردالصبى، كان الحيوان يضرب ساعده بحافره الأمامى . خلف الكلبة ، أسفل القمة كان ينفتح عالم ، عالم تحسبه « لاكولومبا » ، امرأة « الخوستيتو » ، قاحلا ربما لأنها تجهله . عالم من الأخاديد الداكنة ، المشكلة تشكيلا هندسيا رائعا .

كانت أخاديد الخريف تتحول ، بعد جفاف مائها ، الى بحر من الطين يخترقه شريان النهر المقتضب ، والذى تقع القرية على جانبه الآخر . كانت القرية داكنة أيضا ، كشىء زائد من نفس الأرض ، ولولا فجوات الضوء والظلال التى تعكسهما أشعة الشمس الوليدة ــ الحقيقة الايجابية الوحيدة فى هذا المنظر المقبض ــ لما تعرف عليها أحد .

عــلى بعد كيلو متر واحد ، وبمحاذاة النهر الصغير ، يلمع بالبياض الطريق المؤدى الى المدينة ، والذى تدوسه فقط

سنابك جياد المركبات ، والعربه « الفوردش » (٣) لـ « دون أنتيرو » ، الغنى ، وحافلة المدينة التى تربط عاصمة الاقليم بسائر قرى المنطقة • تسد الأفق من هذه الناحية سلسلة من القمم العارية ، وكأنها جماجم ، متـوجة بنصف دسـتة من أشجار اللوز الضامرة • تحت وهج الشمس ، يرسل الجص الكريستالى للمنحدرات بلمعان متقطع وغمزات لونية وكأنه يحاول ارسال اشارة مبهمة لسكان القرية الوطيئة •

تقدم الخريف كان يخنق كل مظهر من مظاهـر الحيـاة النباتية ، فقط المـرج ونبات الأسـل ومجرى النهر كانوا يضفون أثرا من حياة على المشهد المحتضر • تمتزج سلسلة من التحولات اللونية تجمع بين الرمادى والأزرق الرصاصى والداكن • فقط أعلى المغارة ، فى الصخراء الباردة ، كان يمثل جبل البلوط العمومى المأوى الأمين للطيور والوحوش الكواسر •

جرى الصبى ، وبيـده الغراب ، هابطا المنحـدر تتبعه الكلبة • فى الجزء الأخير من المنحدر رفع « النينى » ذراعيه كما لو كان سيطير فوق الطريق • لم تكن الشمس قد ارتفعت الا قليلا ومازال يتصاعد من مداخن البيوت لسان أبيض من الدخان، ومازالت تتجمع فوق القرية الرائحة الخشنة للقش المحترق وكأنهـا يخور لزج • عبر الصبى والكلبـة قنطرة الألواح البدائية ودخلا البيدر • كان برج حمام «الخوستيتو» يقع الى جوار مخزن التبن العمـومى ، وعنـدما مر الصبى أمامه صفق بشدة مرتين فارتفع سرب الحمـائم هائجـا فى صخب محموم وكأن ثـوبا يتمزق • نبحت الكلبـة مسرورة ولكن ظهور « المورو » ، كلب « الرابينو جـراندى » (٤) ، الراعى ، أسكتها فى الحال •

---

(٣) « الفوردش » ماركة قديمة لنوع معين من السيارات ــ (المترجم) •

(٤) جراندى (Grande) لقب هذا الراعى ، ومعناها . كبير او طاعن فى السن ــ (المترجم) •

رسم سرب الحمائم نصف دائرة متسعة خلف برج الكنيسة ثم عاد الى حيث أتى ٠

أطل « البرودن » من الباب الخلفى وهو يغلق فتحة سرواله ٠

ـ خذ ـ قال « الثينى » وهو يسلمه الطائر ٠

ابتسم « البرودن » ابتسامة مراوغة ، وقال :

ـ أمسكته وأوقعت به أخيرا ؟ ٠ أمسك الطائر من طرف جناحه ، متوجسا ثم أضاف :

ـ هيا ، ادخل ٠

كان يستند على جدار الحظيرة محراث يعلوه الصدأ وأدوات الفلاحة وعربة كارو قديمة ، وفى أعلى الحظيرة توجد فتحة مخزن التبن ٠ دخل « البرودن » الحظيرة فضربت البغلة السوداء الأرض بقدمها ، فى جزع ٠ وضع الطائر على الأرض ، وبينما كان ينظف المذاوم من القش قال الصبى دون أن يلتفت اليه :

ـ ياله من طائر ! عندما تهبط هذه الدواهى على المحصول تفتك به أكثر من السيول ٠

يا له من طائر !

بعد أن نظف المذاود ، صعد بسرعة الى مخزن التبن ، أمسك بالمذراة وألقى على الأرض بعضا من حزم القش ٠ هبط بعد ذلك ، أخذ الغربال ونخل التبن بحركات سريعة متذبذبة ٠ وزع التبن بعد ذلك على المذودين ، ثم غطاهما بقفة صغيرة من الشعير ٠ كان الصبى ينظر اليه متأملا وعندما انتهى من توزيع الشعير قال له :

ـ علقه من رجليه ، والا ، فانك بدلا من تخويفهم ستدعوهم الى الهبوط ٠

نفض « البرودن » يدا بأخرى وأمسك بطرف جناح الطائر من جديد ثم دلف الى البيت من باب المطبخ ۰ دخل الصبى والكلبة وراءه ۰ ثارت ثائرة « لاسابينا » عندما رأت الغراب وسألته :

ـ الى أين أنت ذاهب بهذه القمامة ؟

لم يغير « البرودن » من نغمة صوته المتزن وهو يقول :

ـ أغلقى فمك ۰

وضع الطائر فوق المائدة ۰ قلب قشر البطاطس الذى كان يغلى فوق نار هادئة ورفع القدر من على النار ثم جلس ووضعه بين رجليه وبدأ فى عمل أصابع من قشر البطاطس۰ أمسك الصبى بالباب فى طريقه الى الخروج ، عندئذ نهض « البرودن » ونادى عليه :

ـ انتظر ۰

تبعه فى المدخل ذى البلاطات الحمراء وهو يفتش فى جيوب السروال وبعد أن خرجا الى الشارع مد له يده بقطعة معدنية فئة البيزيتة ۰ كان « النينى » ينظر اليه فى ثبات مما جعل « البرودن » يرتبك ، عندئذ رفع عينيه الى السماء ، سماء بيضاء ، مشوبة بزرقة خجولة ، ثم قال :

ـ لن تمطر أكثر من هذا ، أليس كذلك يا فتى ؟

ـ ان السماء صافية ۰ الجو مهيأ لنزول الثلج ـ أجاب الصبى ۰

عندما رجع الى المطبخ ، فحص « البرودن » الطائر بعناية ثم استمر فى تصنيع علف الدجاج وهو صامت ۰ رفع رأسه بعد مضى بعض الوقت ثم قال :

ـ « النينى » هذا يعرف كل شيء ۰ كأنه اله ۰

لم تجب « لاسابينا » ۰ فى الأوقات التى تكون فيها

معتدلة المزاج تعتاد القول بأنها عند رؤية « النينى » وهــو يتحدث مع رجال القرية تتذكر المسيح بين حوارييه ، لكنها عندما تكون عكرة المزاج ، تســكت ، والصمت ، عنــدها ، علامة احتجاج ٠

تابع « النينى » سيره فى الشـارع المقفر ، مقتربا من حـوائط البيوت لـكى يتفادى الوحل · كان يحك القطعـة المعدنية التى كانت معه فى حوائط الطوب اللبن وعنـدما وصل لأول ناصية ، لاحظ بلذة صبيانية البريق المتولد فى طرفها · كان الوحل هناك أشد كثافة ولكن الصبى عبره دون تردد ، غامرا قدميه العاريتين فى الوحـل المخلـوط بروث البهائم والأغنام ، وفى المياه الراكدة النتنة · اخترق القرية وقبل أن يصل الى اصطبلات « دون أنتيرو » سـمع الصـوت الدافىء لـ « الرابينو تشيكو » (١) وهو يتحدث الى الأبقار · كان « الرابينوتشـيكو » يعمل فى خـدمة « دون أنتيرو » واشتهر عنه معرفته للغة الحيوانات ·

« الرابينو تشـيكو » ، راعى الأبقـار ، « والرابينو جراندى » ، راعى الأغنام هما ابنا « البييخو رابينو » ، الذى كان ـ على حد قول الأستاذ « دون أوستاسيو دى لابيدار » ـ مثالا حيا على صدق نظرية انحدار الانسان عن القرد ·

وفعلا ، كانت بالعمـود الفقرى لـ « البييخو رابينو » فقرتان زائدتان ، على شـكل ذيل مقطـوع ، وكان جسـده مغطى بشعر أسود كثيف ، وعندما كان يتعب من المشى عـلى رجليه كان بامكانه المشى على يديه بسهولة · ومن أجل هـذا دعاه « دون أوستاسيو » عام ١٩٣٣ لحضور مؤتمر عالمى ، لا لشىء الا لكى يبرهن لزملائه أن الانسان ينحدر عن القرد

---

(١) تشيكو (Chico) بمعنى صغير(Viejo) بييخو بمعنى عجوز · وقد أطلق المؤلف على الابن الاكبر للرابينو لقب (جراندى) ، اما أخوه الأصغر فقد اطلق عليه لقب (تشيكو) بينما اطلق على الأب لقب العجوز (بييخو) ـ (المترجم) ·

وآنه مازال من الممكن حتى الآن العثور على نماذج فى منتصف طريق التطور • وبعد هذا المؤتمر ، كان « دون أوستاسيو » يدعوه الى العاصمة كل مرة يزوره فيها زملاء العمل ويجعله يتعرى ويدور على يديه ، ببطء ، فوق مائدة • فى البداية ، كان « البيبخو رابينو » يشعر بالخجل ، لكنه سرعان ما اعتاد هذا لدرجة انه كان يسمح للأستاذ ، الذى كان عالما فى هذا المجال ، بتحسس الفقرتين الزائدتين دون آن يهتز •

ومنذ ذلك الحين ، ما من غريب أظهر اهتمامه بخصوصية ما لدى « البيبخو رابينو » من مزايا ، الا وخلع الأخير لباسه وأطلعه على الفقرتين الزائدتين •

وبهذه العلاقات ، تحول « البيبخو رابينو » ـ على حد قول الوصية الحادية عشرة (٢) عن الطريق القويم وترك الذهاب الى الكنيسة • كان يقول له « دون ثوسيمو » ، القس الذى كان يتولى مهمة الوعظ فى القرية حينذاك : « رابينو ، لماذا لا تأتى الى القداس ؟ » ، فيجيبه « البيبخو رابينو » مختالا : « لا يوجد اله كان جدى قردا • هذا ما يقوله الأستاذ أوستاسيو » •

وعندما اندلعت الحرب الأهلية ، ذهب خمسة فتيان من قرية «توريثيو ريجو» ، يتزعمهم «بلتسار» ، من «الكيركو»، وهم يحملون البنادق الى باب بيته • كان اليوم أحدا وظهر « البيبخو رابينو » وهو يرتدى حلة الاجازة المتواضعة ويضع فى قدميه الحذاء الضيق ، فدفعه « بلتسار » بفوهة البندقية قائلا :

« الآن أعلمك أين ترعى الخنازير » • طرفت عينا

---

(٢) الوصية الحادية عشرة لقب آخر يطلقه المؤلف على احدى الشخصيات النسائية لاكثارها الاستشهاد فى احاديثها بنصوص تنتسب الى الوصية الحادية عشرة من الكتاب المقدس ـ (المترجم) •

« البيبخو رابينو » ولم يقل سـوى : « ماذا تريد ؟ » · رد « بلتسار » : « أريد أن تأتى معنا » ·

كان « البلتسار » يزين صدره بالصليب ، فنظرت اليه امرأة « البيبخو رابينو » وكأنها تتوسل ، ثم نظرت الى زوجها الذى كان ينظر بدوره الى حذائه ثم قال فى مسكنة : «انتظر لحظة » · وعندما عاد من داخـل البيت كان يرتدى ثيـاب الرعى ويلبس الحذاء الجلدى الطـويل ، ثم قال متوجهـا لزوجته : « الى اللقاء » وبعد ذلك قال « لبلتسار » : « عندما تريد » ·

فى اليوم التالى ، وجد « الأنتوليانو » جثته عند المنعطف وعندما حملها الى البيت تسمر فم « الرابينو تشيكو » ، الذى كان صبيا وقتها ، بالرغم من تمتعه أيضا بفقرتين زائدتين ، ولم تفلح أية وسـيلة لادخال الطعـام فمـه · أفتى « دون أورسينوس » ، طبيب « توريثيو ريجو » ، بأن المرض عصبى وسـيزول بمرور الـوقت · عنـدما زال المـرض ذهب « الرابينو تشيكو » الى « دون ثوسيمو » ، قسيس القرية ، وسأله :

« أليس الصليب علامة على المسيحى ، سيدى القس ؟ » · «هكذا يكون» ــ أجاب القسيس · أضاف «الرابينو تشيكو» : « ألم يقل المسيح : أحبوا بعضكم بعضا ؟ » · « هكذا قال » ــ أجاب القسيس · هز « الرابينو تشيكو » رأسه هزة خفيفة ثم سأل : « حينئذ ، لماذا قتل هذا الرجل الذى يحمل الصليب أبى ؟ » · تضاءلت انسانية القسيس الطاغية أمام المشكلة · أمسك قبعته بحركة آليـة قبل أن يتـكلم : « اسمع ــ قال أخيرا ــ ، ابن عمى «باكو ميرينو» كان قسيسا فى «رولدانا»، الواقعة على الجانب الآخر ، حتى أمس الأول · هل تعرف لماذا حتى أمس الأول ؟ » · « لا » ــ أجاب « الرابينو تشيكو » · « اسمع اذن » ــ أضاف القسيس ــ : « لقد قيدوه الى عمود ،

تم قطعوا ذكره بموسى ورموه الى القطط أمامه • ما رأيك؟»•
كان « الرابينو تشيكو » يهز رأسه لكنه استطاع أن يقول : « هؤلاء ليسوا مسيحيين ، سيدى القس » •

عقف القسيس أصابعه ثم قال فى تؤدة : « انظر ، يا بنى ، عندما تنزل الغشاوة على الأعين ، فان الأخوين ، مسيحيين ام لا ، يتقاتلان بضراوة كالأعداء » • ثم يعلق « الرابينو تشيكو » على هذا الا بقوله : « آه ! » •

بعد تلك اللحظة بدأ « الرابينو تشيكو » فى الابتعاد عن الناس والخروج الى الربى بصحبة القطيع الى ان تعاقد معه « دون أنتيرو » ، الغنى ، كى يرعى أبقاره • وعلى عكس ذلك ، كان يحلو لـ « الرابينو تشيكو » محادثة الأبقار ، وطبقا لما يروى ، فقد كانت لديه موهبة تفسير خوارها •

وسواء أصحت هذه الرواية أم لا ، فانه قد برهن أمام من هم أكثر تشككا أن البقرة التى يتحدث اليها بحنان أثناء حلابتها ، تدر كمية من اللبن أكثر بكثير مما اذا حلبت فى صمت • كما اكتشف فى مناسبة أخرى أن البقرة التى تنام على حشية تعطى لبنا أكثر من التى تنام على القش، وهو يقوم الآن بطلاء جدران الاصطبل باللون الأخضر حتى تزداد كمية اللبن حسبما يدعى •

اح « النينى » « الرابينو تشيكو » من ظهره فصاح :

ـ صباح الخير •

كان « الرابينو تشيكو » يتحرك ببطء وتؤدة كرجل سمين ناضج ، ولم يكن أبدا ينظر أمامه • سأله « النينى » ذات مرة عن سر حديثه مع الأبقار ونفوره من الرجال فأجاب : « الرجال لا يرددون سوى الأكاذيب » •

الآن ، يتجه « الرابينو تشيكو » نحو « النينى » ليسأله :

ـ « نيني » ، هل صحيح ان « الخوستيتو » يريد طردكم من المغارة ؟

ـ هذا ما يقولون ٠

ـ من هذا الذى يقول ؟

هز الصبى كتفيه ، ثم سأله :

ـ هل انتهيت من طلاء الاصطبل ؟

ـ مساء أمس ٠

ـ وماذا ؟

ـ انتظر حتى تقول الأيام كلمتها ٠

اجتاز الصبى منعطف الكنيسة ٠ كانت الحفر هناك أشد عمقا والمياه راكدة ، وبالرغم من البرودة فقد كانت تنبعث منها روائح كريهة تصيب الرأس بالدوار ٠ على سور منزل السيدة « كلو » ، أمام الكنيسة ، ترتفع لافتة كتب عليها بحروف ضخمة من القار : « تعيش دفعة ٥٦ » ٠ كانت السيدة « كلو » تكنس بهمة درجتى السلم الأسمنتى المؤدى الى مدخل دكان الخردوات ، وعندما رفعت رأسها رأت الصبى وهو يحك العملة المعدنية فى جدران الكنيسة ٠

ـ الى أين أنت ذاهب فى هذا الوقت المبكر ، يا «نينى»؟

استدار الصبى نصف استدارة وظل ناظرا تجاه المرأة منفرج الساقين ٠ كان الطين قد ترك على احدى ساقيه بقعة بدت وكأنها جورب أسود ٠

استندت السيدة « كلو » على يد المكنسة ، ابتسمت بكل وجهها العريض ثم قالت :

ـ بدأ الجو يتغير ، متى سنذبح الخنزير ، يا «نينى» ؟

نظر اليها الصبى نظرة متأنية ثم أجاب :

ـ مازال الوقت مبكرا .

ـ لو كانت جدتك موجودة ما فكرت كثيرا مثلك ٠

حرك « النيني » رأسه في عزم :

ـ لا تشغلي بالك ، يا سيدة « كلو » ، فليس من الصواب ذبحه قبل عيد « سان دامسو » ٠ سأخبرك بالموعد في حينه ٠

استأنف طريقه ولما رأى الكلبة تطوف حول بيت « خوسيه لويس » ، المحضر نادى عليها بصفرة خافتة ٠ لبت الكلبة النداء وسارت مطيعة خلفه ، لكنها هجمت عندالناصية على سرب من العصافير التي كانت تنقر في الروث ٠

طارت العصافير محدثة صخبا بينما تابعتهم الكلبة ، رافعة رأسها ومحركة ذيلها المقصوص بعصبية ٠

كان يسمع صوت منشار « الأنتوليانو » واطل «النيني» من الباب ، المفتوح حتى في أيام الشتاء الاشد برودة ، فرآه ، منحنيا على الطاولة ، ويده القوية تمسك بمقبض المنشار ٠ الورشة عبارة عن غرفة سيئة التهوية وحقيرة ، تغص بسلخات خشبية ونشارة ، وبها أربع كتل من الخشب الخام ملقاة رأسيا في أحد الأركان ٠ على الحائط ، بجانب النافذة ، كان يوجد حجل يدور حول نفسه وينقر في قضبان القفص ٠ مضى زمن كان يعيش فيه « الأنتوليانو » على ما يكسبه من صناعة مكاييل الحبوب ، لكن بعد الاستعاضة عنها بموازين الحبوب الجديدة مثل الكيلو ، انقطع مورد رزق « الأنتوليانو » ، وأصبح يعمل في كل ما يعرض عليه ٠ عند النظر الى « الأنتوليانو » من جانب ، يلاحظ عدم التناسق الواضح في أنفه ، الذي يبدو وكأنه قد نما وحده ثم توقف في منتصف الطريق نكاية في صاحبه ٠ على أية حال ، كان أنف « الأنتوليانو » يشبه أنف ملاكم ، ويشكل بالنسبة له ، هو الذي يتباهى بالقوة والجسارة ، نقطة ضعف وامتهان ٠ كثيرا ما كان يتطوع بشرح الأمر دون أن يطلب منه أحد ذلك : « هل تعرف السبب في أن أنفي يشبه

كعكة العجين المقلى ؟ يداى هاتان ، عليهما اللعنـة » • يدا « الانتوليانو » ، وعليهما الآن نشـارة الخشب ، تشـبهان مجرفتين كبيرتين ، وطبقا لروايته ، فقد كان يسير ذات ليلة حالكة السواد وهما فى جيبيه فعثرت قدمه وسقط بوجهه على حافة بئر « الخوستيتو » ولم يسعفه الوقت لانتزاعهما من مكمنهما •

ـ أهلا ـ قال له « النينى » من على عتبة الباب •

تسللت الكلبة داخل الورشة ثم أقعت فى زاوية منهـا ، بجوار الشرائح الخشبية المسحوجة حديثا •

ـ يا شقية ! ـ ناداها •

انفرجت شفتا « الأنتوليانو » عن ابتسامة مبتسرة دون أن يرفع عينيه عن اللوح الذى كان يقوم بنشره •

ـ اتركها ، فلن تحطم شيئا •

اضطجع « النينى » على عتبـة الباب • كانت شـمس خريف العذبة تغمر الشارع وتغطى نصف باب الورشة • قال الصبى بكسل وعيناه على الشمس :

ـ ماذا تصنع ؟

ـ كما ترى • أصنع نعشا •

التفت اليه « النينى » مندهشا وسأله :

ـ هل مات أحد ؟

أنكر « الأنتوليانو » دون أن يتوقف عن العمل •

ـ ليس من هنا ـ قال • انه من « توريثيوزيجو » • « الديفونسو » •

ـ « الديفونسو » ؟•

ـ كان كهلا • تعدى السابعة والخمسين •

ترك « الانتوليانو » المنشار على الطاولة · جفف عرق جبينه بساعده · كان شعره الأشعث يلمع بالنشـارة وتفوح من كل جسده رائحة الخشب الخام · قال :

ـ أثمان النعوش فى العاصمة تزداد يوما بعد آخر · وكما ترى فكل واحد منها لا يزيد عن أربعة ألواح ·

اكفهرت نظرته عندما أضاف :

ـ حقا لا يحتاج الواحد منا لأكثر من هذا ·

جلس عند الباب ، على المصطبة الحجرية ، بجوار الصبى، ثم لف بعناية سيجارة :

ـ أحضر « أدولفو » البذور أمس · والحوض جاهز ـ قال وهو يمرر طرف لسـانه على الطرف اللاصـق لـورقة السيجارة ·

ـ عليك أن تضع فى الحوض تربة حامية ـ قال الصبى·

ـ حامية ؟

ـ طبقة من الروث أولا ، ثم طبقة أخـرى من التراب المنخول ·

أشعل «الأنتوليانو» السيجارة وسأل بشفتين مضمومتين:
ـ روث أبقار أم خيول ؟

ـ روث خيول اذا كنت تريد تربة حامية ، ثم ترويهـا بعد ذلك ·

ـ حسنا ··

جذب «الأنتوليانو» نفسا عميقا من السيجارة ، منكرا قال وهو ينفث الدخان بلذة

ـ اذا نما نبات عش الغراب فى الحوض ، فيجب أن أزرعه فى المغارات العلوية ·

ـ في مغارة جدى ؟

ـ وفى مغارة « المودو » (٣) والفجرية • فى الثلاث •

استنكر الصبى بنظرة منه :

ـ لا يجب آن تفعل هذا ـ قال : يمكن أن تسقط تلك المغارات فى آى يوم •

صدرت عن « الأنتوليانو » ايماءة بعدم الاكتراث :

ـ تنبغى المخاطرة •

تسلق الديك الأبيض فجأة سور الحظيرة ، المجاورة للورشة ، نفش ريشه تحت ضوء الشمس .ثم مد عنقه وصاح بصوت خشن • وثبت الكلبة فى طين الشارع وأخذت تنبح بغضب وعندئذ أمال الديك رأسه وأخذ ينفخ من الغيظ كالأوزة •

ـ يمكن آن يسقط هذا الديك • .سيجلب لك الكدر والاستياء ذات يوم •

نهض « الأنتوليانو » ، ألقى بعقب السيجارة فى الوحل ثم داسه بقدمه وهو يقول :

ـ لابد وأن يتولى أحد حراسة البيت •

وعندما هم بدخول الورشة بدا أنه تذكر شيئا فعاود الخروج :

ـ تقول ان طبقة التراب يجب أن تكون فوق طبقة الروث ؟

ـ نعم • ومنخولة جيدا ـ أجاب الصبى •

أمال « الأنتوليانو » رأسه قليلا وقبل أن يدخل الورشة أومأ بيده الضخمة ايماءة صداقة • نادى « النينى » على الكلبة وتواريا فى الشارع ، المؤدى الى النهر •

---

(٣) المودو (El Mudo) لقب آخر لاحدى شخصيات الرواية ، ومعناه الاخرس ـ (المترجم)

- ٣ -

كانت السيدة « كلو » ، صاحبة دكان الخردوات ، تنسب الى « النيني » صفة العلم اللدني • لكن « دونيا ريسو » (١) ، أو الوصية الحادية عشرة كما كان يناديها أهل القرية ، كانت تؤكد أن معرفة « النيني » مصدرها الشيطان ، لأن العم اذا كان أحمق فمن الضروري أن يكون ابن العم كذلك •

أما السيدة « كلو » فقد كانت تؤول المثل السابق قائلة ان ابن العم يمكن أن يكون أحمق أو ذكيا تبعا لوجهات النظر المختلفة • أما « الأنتوليانو » فقد كان يرى خلاف ما تقدم : «لكن ، دونيا ريسو ، أليس الأحمق الا ذكيا تجاوز الحد؟ » • فترد « دونيا ريسو » مستنكرة : « رجعنا ثانية للفلسفة ! » • فيضيف « الأنتوليانو » : « ألم أقل صوابا ؟ » وعندئذ ترد عليه « دونيا ريسو » : « لا أدري اذا كان صوابا أو لا ، لكنه مما يروق لك ترديده » •

على أية حال ، فان معرفة «النيني» تنبع فقط من نظرته الفاحصة المتأملة ، ودون الذهاب بعيدا ، فلئن كان الأطفال والشبان يحومون حول العم « روفو » ، العجوز (٢) ، فقد كان هذا بدافع رؤية يده وهي ترتجف ، كي يتخذوها مادة للتسلية فيما بعد ، أما « النيني » فقد كان يقترب منه

---

(١) دونيا (Dona) لقب بمعنى سيدة مثل سنيورا (Senora) لكن الاول اكثر وجاهة وخصوصية – (المترجم) • .

(٢) اللقب الحقيقي الذي أطلقه المؤلف على العم « روفو » هو « المئوي » (نظرا لبلوغه المائة سنة) ، لكننا استعضنا عنه في الترجمة بكلمة عجوز لأنها أكثر شيوعا في الاستعمال – (المترجم) •

بدافع حب الاستطلاع . كان العم « روفو » ، العجوز ، يعرف الكثير عن جميع الأشياء . كان يتحدث دائما بالامثلة ويعرف اسماء القديسين التى تطلق على كل أيام السنة . وهو وان كان لا يتذكر بالتحديد السنوات التى يحكى عنها . فقد كان بامكانه ، وعلى خلاف ذلك ، التحدث بجلاء عن طاعون ١٨٥٨ . وعن زيارة جلالة الملكة « ايزابيلا » وأيضا عن فن المصارعة الراقى لكل من « كوتشارس » و « التاتو » ، بالرغم من أنه لم يشاهد أبدا مباراة لمصارعة الثيران .

وعندما كان « النينى » يجلس الى جواره على مصطبة البيت لم يكن يدقق النظر فى حركاته العصبية . بل انه لم يكن يرد أحيانا بنعم أو بلا . لكن عينيه المترقبتين واهتمامه الفاحص كانا يشجعان العجوز ، هذا بالاضافة الى رباطة الجأش المبكرة عند طرحه لأسئلة أو تقديمه لاجابات .

كان العجوز يتحدث ، عادة ، عن الزمن وعن الحقل مستخدما أسماء القديسين :

ـ عندما يحل يوم « سان أندريس » ، يبدأ الشتاء .

أو :

ـ فى « سان كليمنتى » تربو التربة وتغطى البذور .

أو :

ـ اذا أمطرت السماء فى « سانتا بيبيانا » ، يستمر المطر اربعين يوما وأسبوعا .

كان العجوز اذا تكلم أسهب فى الحديث . وبهذا الشكل تعلم « النينى » الربط بين الزمن والمناخ ، بين الحقل واسماء القديسين ، كما تعلم التنبؤ بالأيام المشمسة ، بموعد وصول القبرات والصقيع المتأخر . وأيضا التمييز بين العقعق والشقراق الأزرق ، وبين الحمائم المطوقة والحمائم البرية .

تعلم الصبي أيضا اشياء اخرى من أجداده · فقد كان لديه ، على خلاف المعتاد · ثلاثة أجداد من جهة الأب والام : جدان وجدة · عاش الثلاثة معا في المغارة المجاورة ، وأحيانا كان « النيني » يسأل مستقصيا ، وهو صغير جدا ، العم « راتيرو » (٣) عن الجد الحقيقي منهم · «الجميع حقيقيون» ـ كان يرد عليه العم «راتيرو» وهو يبتسم ابتسامة بين بلهاء وماكرة · قليلا ما ينطق العم « راتيرو » بأكثر من أربع كلمات متتالية · واذا فعل هذا فمن خلال مجهود كبير يدعه منهكا ، لا بسبب التعب الجسماني بقدر ما هو بسبب التركيز الذهني الذي يتطلبه الفعل في حد ذاته ·

كان « النيني » يصحب الجد « أبونديو » ، مقلم الاشجار ، الى « توريثيو ريجو » ، حيث « دون بيرخيليو » الذي يملك خمسين هكتارا من أشجار العنب وبيتا جميلا بعريشة كرم ومخزنا مهجورا ، بسقف من القرميد تملوه الثقوب ، حيث يمضيان الليل بصحبة كلاب الرعاة ورجال من اقليم « اكستريمادورا » كانوا يعملون وقتها في زراعة الجبل بالأشجار · في الليلة الأولى ، كان الجد « أبونديو » لا ينام ، فقد اعتاد أن يقضي تلك الليلة في اصلاح السقف بالواح من الصفيح والحجر للاحتماء من البرد والرطوبة · كان يعجب « النيني » تغيير رتابة الحياة بالذهاب الى « توريثيوريجو » بالرغم من شدة فزعه من رجال « اكستريمادورا » بحكاياتهم التي يقصونها الى جوار النار ، أثناء اعدادهم للعشاء البسيط بينما تنام كلاب الرعاة ، مطوية ، تحت أقدامهم · كما كان يفزعه في الصباح صرير مضخة البئر التي يفتحها جده ، قبل الشروق للاغتسال · كان رجال « اكستريمادورا » يهددونه بالضرب المبرح اذا لم يقلع عن تلك العادة ، لكن

---

(٣) العم « راتيرو » هو والد « النيني » ، لكن المؤلف يطلق عليه هذا اللفظ لأن أهل القرية اعتادوا مخاطبته به ـ (المترجم) ·

عندما يجد الجد لا ينفذ أحد منهم وعيده ، ربما لشدة البرودة خارج المخزن ·

وفي الحقل ، كان يتملك « النيني » احساس مؤلم كل مرة يرى فيها اسوداد الجفان ·

وعلى خلاف هذا ، كان الجد « أبونديو » يقطع ، دون شفقة ، الأفرع عديمة الفائدة أينما وجدت ومن فوق كتفه يعطي التعليمات للصبي :

ـ التقليم ليس قطع الجفان ، أسمعت ؟

ـ نعم ، يا جدي ·

ـ كل جفن له تقليمه الخاص ، أسمعت ؟

ـ نعم ، يا جدي ·

ـ الجفنة الخضراء البالغة من العمر ثلاثين عاما تحمل فرعين متصلين ، وآخرين جديدين ، وطرفين أو ثلاثة بدون تقليم ، أسمعت ؟

ـ نعم ، يا جدي ·

ـ في الأشجار التي يستخرج منها النبيذ الأبيض أو الأحمر القاني لا نفعل هذا ، بل نترك في كل منها فرعين بدون تقليم ، برعمين و (بذبوذ) ، أسمعت ؟

ـ نعم ، يا جدي ·

عندما كان الجد ينتهي من تقليم كل جفن كان يدفن تحته الأفرع المقطوعة لكي يستفيد بها كسماد · كان يروق للصبي عمل جده وكان يعتقد أن اهتمامه الكبير بالنظافة قد اكتسبه من وظيفته ، من كثرة عمله في ازالة كل ما هو متسخ وغير نافع من على عريشة الكرم ·

وبالرغم من كونهما أخوين ، الا أن الجد « رومان » كان بمثابة النقيض للجد « أبونديو » ، فلم يكن يقرب الماء الا في شهر يناير ، وهذا لأن ـ على حد قول العم «روفو» ـ ، « الأرانب البرية تعتاد ورود الماء في الشهر المذكور » · كان

يترك لحيته ولا يحلقها الا مرة كل عام، في الحادى والعشرين من مايو ، وهو اليوم السابق لـ «سانتاريتا» • أخر مرة حلق فيها لحيته ، بعد الحاح من أخيه ، كانت في الشتاء وأرغى وأزبد يومها • كان الجد « روما » يقول للجد « آبونديو » كل مرة يضبطه فيها وهو يغتسل من ماء الدلو : «ابتعد عنى، يا أبونديو ، تفوح منك رائحة مثل رائحة الضفادع » •

اذا كان يفكر ، أو يصطنع التفكير ، كان الجد «رومان» يدخل اصبعا تحت قبعته الملوثة ويهرش جمجمته بخشونة • وهكذا ، الى أن جاء يوم أكمل فيه « النينى » أربع سنوات ، فقال له الجد « رومان » :

ـ ستذهب معى غدا الى الحقول •

وخرجا ، تحت شمس كالسفرجل، وفى الارض المحروثة تحول الجد « رومان » الى نوع من الحيوانات المتربصة • كان يمشى منحنيا فى زاوية مستقيمة ، يشم الهواء بصوت رنان ، فى كل يد قضيب ، وحتى لحيته بدت وكأنها مزودة بحاسة اللمس • من وقت لآخر كان يتوقف ويختلس بعض النظرات على ما حوله ، دون أن يحرك رأسه تقريبا • عيناه ، فى تلك الأحوال ، تبدوان وكأنهما اكتسبتا حياة مستقلة • أحيانا ، كان الجد « رومان » يميل برأسه الى ناحية متسمعا أو يستلقى على الأرض ليفحص بعناية الحجارة والقش المتبقى من الحصاد •

التقط فى احدى المرات التى بحث فيها بعرة صغيرة داكنة من فوق فلقة حجر ، ثم ابتسم مبتهجا وكأنه عثر على لؤلؤة ففزع « النينى » :

ـ ما هذا ، ياجدى ؟

ـ ألا ترى ؟ البعرة • ليست بعيدة من هنا ، البعرة لا تزال ساخنة •

ـ ما هى البعرة ، يا جدى ؟

ـــ خي ، خي ، خي ، الروث ! اهكذا أنت ؟

وفجأة ، تخشب الجد « رومان » ، اصبعه تحت القبعة ، عيناه ثابتتان كزرين ، ثم قال دون أن يحرك شفتيه :

ـ انظر ، انها هناك .

اعتدل ببطء ، غـرس قضيبا في الأرض ووضـع فوقه القبعة ، ثم تحرك رغما عنه راسما نصف دائرة صغيرة بينما كان يعطي تعليماته للصبي في صوت هامس :

ـ لا تتحرك ، يابني ، حتى لا تفر . آترى فلقة الحجـر البيضاء على بعد مترين من المنخفض ؟ انها تقعي هنـاك . لا تتحرك ، اسمعت ؟ الا ترى عينيها الوقحتين ؟ لا تتحرك ، يابني ، لا تتحرك . لم يهتد « النيني » لرؤية الارنبة البرية، لكنه لمحها بعد أن اقترب الجد شاهرا القضيب الآخر . كان ينبعث من عيني الحيوان الصفراوين ، عندما نظر بهما الى القبعة ، بريق فوسفوري . وشيئا فشيئا بدأت معالم الحيوان تتضح للصبي : الخـرطوم ، الأذنان الزرقاوان الملتصـقتان بصلبه ، المؤخرة وبها نتوء خفيف . كانت الأرنبة البرية ، كبيوت القرية ، تشكل ، في انسجام بيئي مدهش ، جـزءا لا يتجزأ من الأرض التي تقف عليها . اقترب الجد بجانبـه منها ، دون أن ينظر اليها تقريبا ، وعندما أصبح عـلى بعـد ثلاثة أمتار منها رمى المحجن بقوة مخلخـلا الهـواء . تلقت الأنبة الضربة على ظهرها ، دون أن تتحرك ، وفجأة فتح فمها مثل زهرة واهتزت مرتجفة عدة لحظات داخل الحفرة . قفز الجد « رومان » فوقها وأمسكها من أذنيهـا . كانت حدقتاه تبرقان .

ـ حجمها كبير مثل كلب ، ألا ترى ؟

ـ حسنا ـ أجاب الصبي .

ـ تم كل شيء بنظافة ، أليس كذلك ؟

ـ نعم .

لكن الصبى لم يعجبه عمل الجد « رومان » ، فقد كان يكره الموت فى جميع صوره ٠٠٠

وبمرور الزمن لم يتغير موقفه تقريبا ، بمعنى ، أنه كان يسمح فقط بموت الفئران التى كان يأكلها والغربان والعقاعق ، لأن ريشهما الجنائزى كان يذكره بموت الجد « رومان » والجدة « الومينادا » ، بنعشيهما المتجاورين فوق عربة « لاسيميونا الكارو ٠ ولنفس السبب كان الصبى يكره « ماتياس ثليمين » ، المختلس (٤) ٠

كان الجد يواجه، على الأقل ، الأرانب البرية ٠ بينما كان المختلس يتسلل الى مراقدها ، ويطير جماجمها بطلقات بندقيته ، دون أن يعطيها أية فرصة ٠ ومع هذا لم يكن المختلس يكف عن سؤال الصبى :

ــ « نينى » ، أيها الصعلوك ، دلنى على مكان الزبزب(٥) وسأعطيك خمس بيزيتات ان أصبت ٠٠٠ كانت عينا المختلس رماديتين ومشاكستين كعينى صقر ٠ أما جلده المحترق بشمس ورياح الهضبة فقد كان ينطوى ألف طية عندما يضحك متجها الى الصبى ، وكان فمه يبين ، فى تلك الأحوال ، عن أسنان مفترسة مخيفة ٠

تعرف « النينى » ، بجوار الجد « رومان » ، على الأرانب البرية ، تعلم متى تجرى ومتى تبحث عن مأوى بين الحقول ، كما عرف أنها تتفادى أيام الشتاء جفان الكرم وأشجار الصنوبر الصغيرة ، واذا هبت الريح من جهة الشمال فانها تأوى الى جنوب الجبل أو الى النباتات الشائكة ، أما اذا هبت من الجنوب فانها تأوى الى الشمال ، وأنها تبحث فى الأصبحة المشمسة لشهر نوفمبر عن ملاذ آمن بين المنحدرات ٠ كما

---

(٤) المختلس هو الذى يصيد ،لا رخصة ولا يحترم قواعد الصيد ولا مواسم الحظر ــ (المترجم) ٠

(٥) الزبزب ٠ حيوان برى يعيش فى الجبال أو فى الصحراء ٠ (المترجم) ٠

تعلم التمييز بين ارانب الأماكن المنخفضة ـ بنية كارض المنطقة ـ وبين الأرانب الجبلية ـ حمراء مثل ارضه ـ . تعلم أن الأرنبة البرية ترى في الليل مثل النهار ، وحتى عندما تنام ، واستطاع التمييز بين طعم الأرنبة التي صيدت ببندقية وبين التي صيدت بالضرب أو التي صادها كلب ، حيث يكون لحم الأخيرة لاذعا بسبب المشوار الذي جرته . وتعلم ، في النهاية ، كيف يحدد مكانها بدقة ويحدد ، في غلس الليل البهيم صوتها الخشن الخارج من الحلق . لكنه تعلم أيضا ، بجانب الجد « رومان » ، الاحساس بنبض الحياة حوله .

في القرية ، كان الناس يلعنون السكون ويسخطون عند رؤية الغمام والجفاف أو الصقيع الاسود قائلين : « لا يمكن العيش في هذه الصحراء » . لكن « النيني » ، الصبي ، كان يعرف أن القرية لم تكن صحراء وأن كل جزء من الأراضي المزروعة أو البور ينبض بمئات الحيوات . كان يكفيه الاستلقاء على الأرض والملاحظة لاكتشاف تلك الحيوات . كانت تدله بعض الآثار على الأرض أو بقايا الأفرع المهشمة أو مجرد ريشة ملقاة على وجود الحبارى الصغيرة ، بنات عرس ، القنافذ أو الكروان .

وذات يوم ، منذ عامين ، حلق الجد « رومان » ذقنه ومرض . أما الجدة « الوميناادا » ، التي كانت ترعاه في المغارة ، فقد وجدوها في الفجر متيبسة ، جالسة على المقعد ، دون أن تتغير ملامحها أو هيئتها ، كما لو كانت نائمة .

كانت الجدة « الوميناادا » تذبح لأغنياء المنطقة كل عام ، وتفتخر بأن أي خنزير لم يكن يهمهم أكثر من ثلاث مرات بعد ذبحه بالسكين ، كما أن سكينها لم تكن تخرج روثا من بطن الحيوان عندما تقوم بسلخه .

وعندما وصلت عربة « لاسيميونا » الكارو الى المغارة وعليها التابوت ، مات الجد « رومان » أيضا ولزم احضار تابوت آخر . كان حمار « لاسيميونا » يجر التابوتين مبتهجا

فى طريق المنحدر ، لكنه عندما وصل الى القنطرة الصغيرة دخل الاطار الأيسر للعربة فى التعشيقة فسقطت فى النهر ٠ وعندئذ فتح تابوت الجـدة وظهرت وهى تنظر اليهـم فى هدوء ، كان فمها فاغرا ، كأنما أخذت على غرة ، ويداها فى حضنها ٠ لكنها هناك ، داخل التابوت ، طافية فوق الميــاه القذرة ، كانت أشبه بامرأة محفوظة ٠ عندما علقت السيدة « كلو » ، صاحبة دكان الخردوات ، على سكون الجثة وصفوها داخل التابوت قالت ان « لا الومينادا » خلقت لتعيش تحت الأرض ، وأن الموت لم يكن يفزعها ٠ عندما عاد « النينى » والعم « راتيرو » من المقابر ، كان الجد « أبونديو » قد رحل، لا أحد يعلم الى أين ، ومعه أدوات التقليم ٠

ـ ٤ ـ

انحنى العم « راتيرو » ، الصق أذنه بالأرض وفحص متسمعا أحشاءها • عاود النهوض ، أشار بسيخ الحديد الى حفرة بجوار النهر وقال :

ـ انها هناك •

هزت الكلبة ذيلها المقصوص وتشممت فوهة الحفرة • جثمت أخيرا على الأرض ، ورأسها الصغير مائل الى ناحيـة ، ظلت بلا حراك ، مترقبة •

ـ حذار ـ قال « الراتيرو » وبضربة واحـدة غـرس السيخ على بعد متر من الشاطىء •

مرقت الفأرة مسرعة أمام خرطوم الكلبة محدثة ، عنـد هروبها بين حلفاء الشاطىء الجافة ، حفيفا كحفيف الأوراق المتساقطة • صاح « النينى » :

ـ هيا وراءها •

اسرعت الكلبـة كالبرق خلف الفأرة • جـرى الرجـل والصبى فى المنحدر ، محمسين الحيوان بصيحاتهما • جرت مطاردة مضنية بين مخلفات الحلفاء وشجر اللبلاب • هشمت الكلبة . فى هيجانها ، سيقان نبات البوط الهشة ، فتساقطت ثمارها فى النهر وحركتهـا الأمـواج حركات متأرجحـة • توقفت الكلبـة فجأة • تعـرف « الراثيرو » و «النينى » على مكانها بالضبط بفضل نباتات البـوط المنتصبة السـامقة ، هناك حيث تنتهى الثلمة المفتوحة بين الأحراج •

ـ أحضريها يا « فا » ـ صاح « النينى » •

اهتزت نباتات البوط لحظة، سمع حفيف صراع مكتوم، وفى النهاية ، دمدمة قصيرة ، قال العم « راتيرو » :

ــ لقد أمسكت بها ٠

رجعت اليهما الكلبة وهى تحـرك ذيلهـا المقصـوص بابتهاج والفأرة فى فمها ٠ أخـذها العم « راتيرو » من بين أسنان الكلبة ثم تمتم :

ــ انه ذكر كبير ٠

كانت أسنان الفأر تطل من تحت خرطومه فى عدوانية عديمة الفائدة ٠

منـذ « سان ثكارياس » و الرجل والصبى يهبطان الى النهر كل صباح ٠ وظل الامر على هذا الحال منـذ ان ادرك الصبى التمييز بين الاشـياء ٠ كان عليهما الاسـتنادة من الخريف والشـتاء ٠ ففى هـذين الفصلين تتسـاقط اوراق الاشجار الوارفة ، ويتحول الـكرفس المـائى والصفصـاف واللبلاب وشجيرات النعناع الى فضلات جافة تستطيع الكلبة البحث الجيد خلالها ٠ فقط كان البوص، بأوراقه التى يحركها الهواء ، والبوط بثماره الداكنة يسجلان فى عرض النهـر علامة البقاء والاستمرار ٠ كانت أطراف نبات الأسل القليل على جانبى النهر تصفر ، وكأنه شىء يتـدهور ، فى طريقـه أيضا الى الزوال ٠ ومع ذلك ، وعام بعد آخر ، عندما يحـل الربيع ، تزين الخضرة مجرى النهر من جديد ، فتمتد قامة نبات الأسل ، ويكتسى البوص بأوراق كالحراب وتنضج ثمار البوط لتغمر الحقول بالزغب الأبيض لزهرة الشوك ٠ كان الأريج اللزج للنعناع الشيطانى والازدهار الكثيف لكرفس الماء ، يغطى الممرات ، ويعوق أية محاولة للمطاردة تقوم بها الكلبة ٠

وعندما يحل موسم الحظر كان العم « راتيرو » ، محترما فترة تناسل الفئران ، يظل فى مغارته حتى مقدم الخريف ٠

لم يكن العم « راتيرو » يريد استئصال شأفة الفئران ٠ أحيانا ، كانت الكلبة تستعد للهجوم وعندما يلاحظ العم « راتيرو » بعض الأعشاب الجافة على باب الجحر كان يردعها قائلا :

ــ انها تجهز العش للصغار ، هيا بنا ٠

وعندئذ تنسحب الكلبة دون مقاومة ٠ فبينها و بين الرجل والصبى يوجد تفاهم غير منظور ٠ كان الثلاثة يوقنون أنهم باصطياد الصغار لن يحصلوا على شيء آخر سوى البقاء دون مورد للطعام ٠ تتكاثر الفئران كل ستة أسابيع وفى كل بطن تلد الجرذة ما بين خمس أو ست ٠ ولهذا ، فان كل بطن تعنى عشر بيزيتات على الأقل ، وهو مبلغ لا يستهان به ٠ كما كانت الكلبة تتخذ موقفا سلبيا مشابها اذا كان باب الجحر تحت مستوى ماء النهر ، لأنها تدرك أن محاولتها ستبوء بالفشل ٠

وفى مثل هذه الحالات ، كان العم « راتيرو » يعتمد على نفسه ٠ كان يغمس يده اليمنى فى الطين ضابطا تجويف راحته على أبعاد الجحر ، ثم يخد بعد ذلك بيده اليسرى فتتحرك الجرذة محاولة الهرب ٠ بعد هنيهة يشعر بدغدغة لزجة تلامس يده فيطبق وبسرعة يده القوية ثم يرفعها منتصرة الى السطح وهى ممسكة بخرطوم الفريسة ٠ كان يكفيه جذب ذيلها بقوة لكى يحطم عمودها الفقرى ٠

فى «سان ساباس» عضت جرذة العم «راتيرو» ٠ كانت قد انقضت حينذاك أربعة أسابيع على انتهاء موسم الزراعة بالقرية ٠

اعتاد العم « روفو » ، العجوز ، القول : « بعد انتهاء عيد آخر قديس ، اجمع الشوك وازرع القمح » ٠ وفى هذا العام ، وكأنه شعار يجب أن يتبع ، ظهر كل حقل من حقول القرية وبه عمود علق عليه غراب ميت ٠ حامت أسراب

الغربان مشـوشة طوال يومين بالأماكن القريبـة ثم طارت أخيرا فى اتجاه الشمال ·

كان « بيرخيليو مورانتى » ، زوج السـيدة « كلـو » ، يضحك فى الحانة قائلا :

ــ سيشكر لنا هذا الصنيع آهالى « توريثيوريجو » ·

ولكن اذا كانت الغربان قد ابتعدت عن حقـول القرية فان المطر تأخر · ولذا فقد انبرى « الروسالينو » ، وكيـل اعمال « دون أنتيرو » ، قائلا :

ــ اذا لم تمطر السـماء فى « سانتا ليوكاديا » فعلينـا زراعة الأرض من جديد ·

فرد عليه « البرودن » الذى تشحذ المصائب قريحتـه ، بان الأذى يحيق فقط بالفقراء ، لأن من يستخدم الماكينات ، مثلهم ، لن تكلفه اعادة الزراعة الا القليل التافه · فأطلق السيد « روسالينو » ، الذى كانت رأسه تلامس الأفرع الأولى لأشجار الصنوبر الثلاث ، ضحكة مدوية ، ثم قال :

ــ فلتلطموا الخـــدود اذن لأنه لا يزرع الآن ســـوى المتسولين والبلهاء ·

فى المساء ، أتى « البرودن » الى باب المغارة مكتئبا :

ــ « نينى » ، السماء لا تمطر ، ماذا نفعل ؟

ــ الانتظــار ــ رد الصـبى فى اتزان · عنـدئذ طأطأ «البرودن» رأسه ، لأن نظرة «النينى» الهادئة كانت تربكه ·

عندما مضت الشارة اصبح العم « راتيرو » ، فى « سان ساباس » ، كانت تسبح فى السماء الخريفية الصافية شمس حمراء منتفخة كمنطاد · وفوق القـرية يمتزج ضباب فاتر بدخان القش المحترق فى البيوت ·

كان القطامى يرقب فوق برج الكنيسة مطوحا جناحيه بعصبية ، دون أن يتقدم أو يتأخر ·

نظر الصبى الى السماء فى اتجاه القمم العالية ثم قال :

ـ ستمطر غدا ·

ـ نعم ـ أردف العم « راتيرو » ، ثم استوى جالسا فى المنحدر ، ففتح الخرج وأخرج نصف رغيف عليه شحم خنزير· قسم ما معه وأعطى الصبى نصفه · قطع بعد ذلك شحم الخنزير وحمل بسن المطواة قطع الشحم الى فيه ·

ـ هل تشعر بوجع ؟ ـ سأل الصبى ·

نظر « الراتيرو » لأصبعه المتورمة ، وأجاب :

ـ لا أحس الآن بوجع ·

كانت حظيرة المواشى التى يسمد منها « خوستيتو » ، العمدة ، أرضه رنت جلاجل قطيع « الرابينو جراندى » · كان « المورو » ، الكلب ، قد سبقه ووقف ينظر اليهما وهما يأكلان محركا ذيله فى استكانة · اقترب من الكلبة فهمهمت له كاشفة عن أنيابها · كان « الرابينو جراندى » يضع جلد شاة على كتفه ، قال بعد أن نظر الى الشمس :

ـ ألم تعد فى السماء نقطة ماء واحدة ؟

لف سيجارة دون انتظار لاجابة ، أشعلها ثم جذب نفسين عميقين وظل ناظرا الى قداحته البدائية فى استياء :

ـ ألن يستحدثوا قانونا لدفع الضرائب على مثل هذا الجلد ؟

لم ينظر اليه العم « راتيرو » · فأضاف « الرابينو جراندى » :

ـ لو حدث هذا لألقيت به فى النهر ، ولا أبالى ·

كان يدخن وهو واقف ، مستندا على عصاه ، بلا حراك، وعيناه تنظران الى بعيد ، كتمثال · وجلاجل النعاج ترن حوله · سأله « الراتيرو » فجأة :

ـ هل رأيته ؟ مشيرا بابهامه فى اتجاه «توريثيوريجو»·

ـ لم أره فى عامنا هذا ـ رد الراعى دون أن يغير من وقفته ٠

ـ لقد رآه « المالبينو » ـ قال « الراتيرو » ٠

ـ ما تقوله غير صحيح ٠

ـ لقد رآه « المالبينو » ـ أصر « الراتيرو » ٠

فى الحانة ، كان « المالبينو » قد حذره اليوم السابق : « حذار من هذا ، يا « راتيرو » ، فهو يأتى ليسلبك لقمة العيش ٠ أنت تعمل فى هذه المهنة قبل أن يولد » ٠

ألقى « الرابينو جراندى » ، الراعى ، بعقب السيجارة فى النهر ثم طلب بعد تفكير :

ـ أعطنى جرذتين ، هيا ، ببيزيتتين الا ربعا ، حقا ؟

ـ بل بيزيتتان ـ رد « النينى » ٠

ـ حسنا ، لكن أعطنى هذا الذكر ٠

نهض العم « راتيرو » ، تمطى بكسل محملقا فى النهر، وواضعاً يده امام وجهه للاحتماء من ضوء الشمس ٠

قال الراعى غاضبا :

ـ أخبرتك أننى لم أره ، يا « راتيرو » ٠ ألا تثق فى كلامى ؟

ـ لقد رآه « المالبينو » ـ تحدث « الراتيرو » من بين أسنانه ٠

تحسس « الرابينو جراندى » صلب الجرذتين بلذة قبل حفظهما ٠ وعندما هم بالانصراف قال :

ـ أرجو أن يستقيم لك الحال ٠

عندما غابت الشمس وراء الأفق ، ذهب الرجل والصبى الى القرية ٠ كان الضباب يتكاثف فوق البيوت ، وتطقطق

تحت اقدامهما الأرض المحروثة والصلبة بفعل الجفاف ٠ والكلبة تسير خلفهما متعبة ٠ وقد عادت حمائم «الخوستيتو» الى أبراجها ، ولم يبق سوى أربعة صبيان يبثون بألعابهم الروح فى شوارع القرية الميتة ٠ فى الحانة ، كان الوضع مختلفا ، نظرا لبعض النشاط داخلها ٠ كان المصباح العارى يوزع ضوءه الأصفر على الموائد ٠ وعلى المائدة الخلفية كان يلعب « فروتس » ، المحلف ، مباراة الدومينو التى لا تنتهى مع « بيرخيلين مورانتى » ، زوج السيدة « كلو » ، الذى كان يترنم بأغنية يختتم كل مقطع منها بضرب المائدة بقطعة « دومينو » ٠

قال « البرودن » بمجرد أن رأى « الراتيرو » :

ـ « مالبينو » ، كأس من النبيذ للعم « راتيرو » ٠

كان حدثا غير عادى ، لما اشتهر به من بخل ٠ لكن «البرودن» فى تلك الليلة كانت تبدو عليه أمارات الاثارة ٠ أخذ « النينى » من عنقه وبدأ يشرح له فى غموض مشروع الرى الذى تناولته الصحيفة اليومية وتقع قريتهم فى نطاقه ٠ قال للصبى مندفعا ، من مكانه على المقعد الخلفى :

ـ ضع فى اعتبارك ، يا « نينى » ، أن الأمر سيكون سواء : أمطرت السماء أم لم تمطر ٠ عندما يريد «البرودن» ماء فما عليه الا رفع محبس المياه ٠ أفهمت ؟ سنترك العيش كالكلاب ناظرين الى السماء اليوم بطوله ٠

أطبقت فترة صمت طويلة ، لم يكن يقطعها الا صوت اصطدام قطع الدومينو بالمائدة ، مصحوبة باللحن المكرر الذى يغنيه « بيرخيلين مورانتى » ٠ وأخيرا ، نطق العم «روفو» ، العجوز ، من الناصية المقابلة بصوته الجهورى :

ـ لو كانت المشاريع تكثر من الغلال ، لما بقى فى هذه الساعات مكان فارغ بالشون ٠ أطبقت فترة صمت أخرى ٠

نظر « البرودن » بثبات الى « النينى » ، لكن شفتا الصبى لم تنفرجا عن كلمة ٠

نادى مغتاظا رجـل منـكمش الـكتفين من على المائدة المجاورة :

ـ هات كأسين ٠ قبل أن يصـل الماء هيـا نقضى عـلى النبيذ ٠

كان الجو مظلما خارج الحانة ، أطل قمر أخضر فاتح وعليل من خلف ربوة « كلورادو » ثم ارتفع بفتور فوق سماء معدنية عالية ٠

فى « سان دامسو » أرسلت السيدة « كلو » ، صاحبة دكان الخردوات . فى طلب « النينى » اقتادته الى حظيرة الخنازير :

ـ اختبره ، يابنى ، أعتقد أنه نما بما فيه الكفاية ٠

تحسس الصبى الخنزير ثم قال :

ـ لم يصل بعد الى الحد المطلوب ٠

كانت السماء تمطر وقتذاك ولم يكن من المستطاع فعل شىء ٠

فى « سان نيكاسيو » انقطع المطر ، لكن الصبى نظر الى السماء وقال :

ـ اصبرى ، يا سيدة « كلو » ، مازال الجو رطبا ينبغى الانتظار حتى تصفو السماء ٠ منذ أن وصل «النينى» لسن الادراك ، عرف بأن السيدة « كلو » ، صاحبة دكان الخردوات ، تحتل المرتبة الثالثة بين أغنياء القرية ٠ كان امامها فى الترتيب «دون أنتيرو» ، الغنى ، و «دونيا ريسو»، الوصية الحادية عشرة ٠ كان « دون أنتيرو » يمتلك ثلاثة أرباع أرض القرية ، وتملك السيدة «كلو» و «دونيا ريسو»٠ ثلاثة أرباع الربع الباقى ، أما الجزء المتبقى فموزع مناصفة بين « البرودن » والثلاثين فلاحا الموجودين بالقرية ٠ ولم يمنع هذا « دون أنتيرو » من التباهى فى مسامراته بين أصدقاء المدينة بأن « ما يفعله من خير لقريته يوازى التوزيع العادل للأرض» وعلى فرض أنه كان يعتقد هذا ، فانه لم يكن يدخر وسعا وقت الدفاع عن ممتلكاته وفى العام الماضى رفع دعوى ضد « الخوستيتو » ، العمدة ، لأنه لم يغلق برج الحمائم أثناء موسم الزراعة ٠ وعند تدبر الأمر مليا يتضح

أنه لم يكن يمر عام الا ويختلق فيه « دون أنتيرو » مشاجرة أو اثنتين بالقرية ، وأنه لم يكن يفعل هذا لسوء طويه ، على حد تعبير « روسالينو » وكيل اعماله ، بل لأن مواسم الشتاء طويلة ومملة في المدينة ولابد من شيء يتسلى به سيده . وعلى أية حال ، فقد كان « دون أنتيرو » يؤجر ، عندما يحل عيد القرية السنوى ، بقرة معيبة لكي يجرى وراءها الشبان ويضربوها على هواهم ، وبهذا الشكل ينفسون عن الأحقاد والضغائن المتجمعة فى الصدور طوال الاثني عشر شهرا السابقة .

وفى تلك المناسبة ، ومنذ ثلاث سنوات ، كاد « النينى » أن يفسد الامور . كان من الممكن ان تقع كارثة محققة لولا تدخل « دون أنتيرو » ، الذى كان يطمح فى أن يصبح من الصبى أجيرا منقطع النظير . وتتلخص الواقعة فى ان « النينى » رق قلبه لخوار البقرة المؤثر فى الهزيع الأخير من الليل ، وعليه فقد تسلل الى حظيرة « دون أنتيرو » واطلق سراحها . لم تفد لمحته الانسانية الا فى القليل ، لأن الحيوان عندما عاد الى الحظيرة ، بعد الامساك به صدفة خارج القرية ، كانت جبهته تنزف وقرنه مكسورا وظهره مثخنا بالجراح . ومع هذا فقد كان من الممكن أن تتأزم المسألة ، عندما أشار « ماتياس ثليمين » ، المختلس ، فى خسة قائلا : « هذا عمل لا يقوم به الا « النينى » الصعلوك » . ولحسن الحظ فقد كان « دون أنتيرو » يعرف مواهب الصبى وعلمه اللدنى فتوجه الى « الروسالينو » ، وكيل أعماله ، مستفسرا : « أليس هو « النينى » ابن « الراتيرو » ، صاحب المغارة ، هذا الذى يعرف كل شيء ويفعل كل ما يطلب منه ؟ » . « أجل ، يا سيدى » — أجاب « الروسالينو » . « اذن دعه يتشاقى واليوم الذى يبلغ فيه الرابعة عشرة أحضره الى بيتى » .

أثناء فصل الشتاء ، كانت الثلوج تسقط بغزارة ، ولم يكن « دون أنتيرو » يزور القرية الا لماما . لم تكن السيدة

« كلو » ولا « دونيا ريسو » تذهبان لأرضهما لا فى شتاء أو صيف ، لأنها كانت مؤجرة • ولكن ، بينما كانت « دونيا ريسو » تحصل ايجارها نقدا وفى موعده ، سواء أمطرت السماء أم لا ، نزلت الثلوج أو تكاثف البرد ، كانت السيدة « كلو » ، صاحبة دكان الخردوات ، تقبض ايجارها قمحا أو شعيرا أو سلتا اذا كانت الأمور تسير على ما يرام ، أما اذا كانت الأمور لا تسير على ما يرام أو لا تسير ، فانها كانت تحصل ايجارها كلمات معسولة مطمئنة •

وبينما كانت الوصية الحادية عشرة لا تسمح بمناداتها الا بلقب « دونيا » ، كانت صاحبة دكان الخردوات تسمح بنطق اسمها مجردا : وبينما كانت الوصية الحادية عشرة نحيفة ، خصوما وفظة ، كانت السيدة « كلو » بدينة ، صريحة وبشوشا : وبينما كانت « دونيا ريسو » تتفادى التعامل مع الناس وتهوى النميمة ، كانت السيدة « كلو » متحدثة بارعة ، تدبر شئون الدكان والمخزن بنفسها وتتفانى فى خدمة العصفورين ، وسكنا لزوجها ، « ألبرخيليو » ، وهو فتى أشقر ، مهذب ومثقف ، أحضرته من المدينة وكان يقول عنه « المالبينو » ، صاحب الحانة ، أنه فتى غض الاهاب لم يخلع ملابس المدرسة الا حديثا •

تدخل « النينى » تدخلا مباشرا فى موضوع العصفورين اللذين أرسلتهما أختها ، « لادى ميريس » ، المتزوجة بموظف فى مصلحة التليفونات • أسكنتهما السيدة « كلو » فى قفص مذهب جميل ، به حوض للأكل مطلى باللون الأزرق ، كانت تضع فيه بذور القنب ولباب الخبز ، وفى المساء كانت تدخل فى القفص حصاة صغيرة مكسوة بالقطن حتى لا يفقد العصفوران الدفء الأموى • وبعد أن شبا عن الطوق ، كانت السيدة « كلو » تمسك بورقة من الخس بيد وتدخلها بين قضبان القفص وباليد الأخرى حجرا من الكلس ، الورقة لكى لا يحدث للعصفورين امساك والحجر لكى يشحذا

منقاريهما فيه · في خلوتهـا معهما ، كانت تتحدث اليهما بنبرة صدق كما كانت توبخهما بلطف كلما سنحت الفرصه · من شدة العناية بهما وصل العصفوران الى حد اعتبارها اما حقيقية لهما ، وفي كل مرة كانت تقترب من القفص دان الذكر ينفش ريشه ويظهر حوصلته الوردية الفاتحة كما لو كان يتهيأ لضمها الى صدره · وهي بكلام معسول : « لنرى من الأول الذى سيعطيني قبلة ؟ » · ويحدث هرج ومرج بين العصفورين . يحاول كل منهما أن يكون الأول الذى يضـع منقاره الصغير بين شفتيها السميكتين · وتحذرهما السيدة « كلو » اذا تشاجرا معا : « لا ، يا صغارى ، أتسـمعان ؟ يا صغارى ، لا » ·

في « سان فيلبكس » ومنذ أربعة أعوام ، أهدى «النيني» للسـيدة « كلو » عشـا فارغا للعصـافير ، منبهـا اياها بأن العصافير تتكاثر وهي غير مكشوفة فأضاء وجهها بالسرور كما لو كان يخبرها بأنها ستكون جدة · وفعلا ، فعندما استيقظت السيدة « كلو » ذات صباح لاحظت أن الأنثى ترقد فوق العش ولم تحضر لاعطائها القبلة المعتادة عندما تقترب من القفص·

لم تغير العصفورة من مرقدها طوال فترة الحضانة ، وبعد عدة أيام ظهرت في العش خمسـة عصـافير وردية فأسرعت السيدة « كلو » ، بقلب مفعم ، الى الشارع وأعلنت الخبر لكل من قابلها · لكن فرحتها لم تدم كثيرا ، فبعد ساعات قليلة مات زوج من العصـافير وبدأ الآخـرون في فتح منـاقيرهم وضمها كمـا لو كان ينقصهم الهـواء · أرسـلت في طلب « النيني » ، وبالرغم من مراقبة الصبي المتأنية في الساعات التالية ، واجتهاده في تقديم ثمرات برية وحبوب من مختلف الأنواع للعصافير ، الا أنهم فارقوا الحياة صبيحة اليوم التالي والسيدة « كلو » مختمة ، رحلت الى المدينـة ، عنـد أختها ، لتحاول النسيان ·

عندما عادت بعد اثنى عشر يوما ، لاحظ « النينى » ، الذى كان الى جوار « لاسابينا » المكلفة برعاية الدكان ، أن عينى السيدة « كلو » تتألقـان كعيني تلميـذة في مدرسـة ثانوية • تحدثت الى «لاسابينا» متعجلة : «في «سان أمانثيو» أنت مدعوة لحفل زفافى، العريس يسمى «بيرخيليو مورانتى» وهو فتى أشقر وعيناه زرقاوان كحلية صغيرة » •

عندما قدم « انبيرخيليو مورانتى » الى القرية ، شـابا صغيرا غض الاهاب ، كان الفلاحون ينظرون اليه بازدراء وأخذ « المالبينو » يستظرف فى الحانة قائلا ان الفتى لم يخلع ملابس المدرسة الا حديثا • لكن منذ أن تناول «البيرخيليو» كأسين من الشراب وعزف مقطـوعة موسـيقية أبكت العـم « روفو » ، العجوز ، عم التقـدير والاحترام بين الجميع ، وهكذا فما من مرة يرونه فيها الا ويقولون :

– هيا « بيرخيليو » ، أيها الفتى ، اعزف لنا قليلا •

فيحقق رغبتهم أو يرد :

• اليوم لا أستطيع – اعذرونى ، صوتى مبحوح

وخلال الاحتفال بالأضحية ، فقدت الثرثرة معناها فى بيت السيدة « كلو » • كان الناس يحضرون هناك مدفوعين بالرغبة فى سماع «البيرخيليو» وهو يغنى • حتى «النينى»، الذى تولى مهمـة الذبح بعـد موت جـدته ، كان يشـعر بالتضاؤل •

صفت السماء فى « سـان ألبينو » فهبط « النينى » الى القرية وأخذ خنزير السيدة « كلو » وتمشى به لمدة سـاعة ثم وصف له الماء والنخالة • بعد يومين سـقطت عـلى القرية ثلوج قاسية •

فى مثل هذا الـوقت تكـون طيـور الزرزور قد غيرت ريشها ، ويأتى الشتاء الذى تلمع فيـه الأرض من الصـقيع

وتصبح صلبة كالجرانيت كما يتحول ماء النهر الى ثلج ، وكل صباح تنهض القرية متثاقلة في جو من الزجاج ، حيث تقرقع أدنى ضوضاء مثل ضربة سوط .

حينما وصل « الراتيرو » و « النيني » الى دار السيدة « كلو » ، كانت الجلبة تصدر منها وكان اليوم عيد . لقد حضر من المدينة أبناء الأخت ، وكان هناك ايضا « لاسأبينا » و « البرودن » وابنهما ، «المامرتيتو» ، والسيدة «ليبرادا» ، و « الخوستيتو » ، العمدة ، و « الخوسيه لويس » ، المحضر ، و « الروسالينو » ، الوكيل ، و « المالبينو » ، و « المامس » ، الأخرس ، و « الانتوليانو » ، والسيد « رونو » ، العجوز ، وابنته « لا سيميونا » ، عندما دخلا كان « البيرخيليو » يعزف منفعلا وكلهم فاغرو الأفواه ، وبعد أن انتهى صفقوا له و «البير خيليو» لكي يدارى ارتباكه ، وزع على الحاضرين قطعا من الخبز المحمص وعددا من كئوس النبيذ . كانت النار تخرج كثيرا من الشرر وعلى المائدة والأرفف كانت السيدة « كلو » قد وضعت ، بالترتيب ، البصل ، ولباب الخبز ، والأرز والسكر لعمل السجق .

وبجانب الفرن صفت السكاكين حسب أحجامها ، كما كانت توجد جفنة كبيرة ، ثلاث من الأواني الخشبية وغلاية نحاسية لاذابة الدهن .

في الحظيرة ، خلع الرجال ستراتهم الصوفية وشمروا عن سواعدهم برغم الصقيع وتجمد الهواء بمجرد خروجه من الأفواه . كان العجوز يجرجر قدميه بتثاقل وسط المجموعة وفجأة فرك يدا بأخرى ثم قال : « يوم الثلاثاء لا تزوج ابنا ولا تذبح خنزيرا » . نظرت اليه السيدة « كلو » محتدة بعد أن سمعته : « دعك من النصائح . اذا لم يعجبك هذا فأرحنا من وجودك » . ثم اتجهت الى زوجها ، الذى شمر قميصه مثل الآخرين فأبان عن ذراعين أبيضين أمردين ، وقالت له : «أنت لا ، يا بيرخيليو ، يمكن أن تصاب بالبرد » .

فتح « الانتوليانو » الحظيرة فاطل منها الخنزير وعندئذ قبض على أذنه بيد من حديد وطرحه أرضا ، بمساعدة « المالبينو » . « البرودن » و « الخوسيه لويس » • بعد أن راى الأولاد الخنزير — الذى كان يصرخ صرخات تشكل كل واحدة منها سحابة من البخار حول فمه — مستلقيا على الأرض ، تجاسروا وبدءوا فى جذب ذيله وتسديد الركلات الى بطنه • بعد ذلك ، تعاون ستة من الرجال على تمديد الخنزير فوق المقعد وفحصه « النينى » ثم رسم علامة الصليب فوق قلبه بقطعة من الجص وعندما سدد العم «راتيرو» سكينه بنفس الثبات الذى يغرس به سيخ الحديد فى النهر ، أعطى للصبى ظهره وبدأ فى عد الهمهمات ، واحدة بعد أخرى ، حتى ثلاثة • وسرعان ما صاح « البرودن » :

— لقد مات !

التفت « النينى » حينئذ ، اقترب من الخنزير ، وباصبع مدربة . وضع ورقة كرنب فى الثقب المفتوح فى الرقبة لكى يمنع نزيف الدم ، وأخيرا فتح فم الحيوان ووضع حجرا بداخله •

كان الرجال يتحلقون حوله بينما كانت النساء تتهامس فى الخلف • سمع صوت « لاسابينا » الخافت :

— يا له من صبى ! كل مرة أراه فيها أتخيل المسيح بين حوارييه •

اجتهد « النينى » فى ألا يتذكر جدته « الومينادا » حتى لا يرتكب أخطاء • غلف بمهارة جثة الحيوان بقش السلت وأشعل فيه النار ، أخذ جذوة مشتعلة وكوى بعناية الفجوات الموجودة تحت الابطين ، الحوافر والأذنين • ارتفعت رائحة الحريق وعندما خمدت النار قام « الماسر تيتو » ، صبى « البرودن » ، وأبناء أخت السيدة « كلو » بتقليم أظافر الحيوان وأكلوا الكعوب •

وجاءت اللحظة الحاسمه ، لا لأن سلخ الخنزير كان مهمة صعبة فى حد ذاته ، بل لأن الظرف كان يحتم الرجوع بالذاكرة الى ما كانت تفعله الجدة « الوميناداً » • ارتعشت قليلا يد « النينى » التى كانت تحمل السكين عندما صاح من خلفه « المالبينو » :

ــ حذار ، سكين جدتك فى مثل هذا الظرف لم تكن تخرج روثا أبدا !

رسم الصبى ذهنيا خطا متساوى الأبعاد للضرع ثم شق من منتصف زاوية اللغد وحتى الشرج دون تردد • بعد أن جزأ ، بعد ذلك ، نسيج الأمعاء بطعنة سكين ماهرة تعالت حوله صيحات الاعجاب • خرجت رائحة نتنة قوية تصيب الرأس بالدوار من الأمعاء التى أفرغها « النينى » فى الأوانى الخشبية ، ولكى ينجز عمله أدخل فى الفتحة خابورين ليصنع منهما اسفينا • ثم عاونه كل من « الأنتوليانو » و «المالبينو» فى تعليق الخنزير من رجليه الخلفيتين •

سال من فم الخنزير خيط رفيع من الدم مكونا بركة صغيرة حمراء فوق أرضية الحظيرة الباردة •

اقتربت السيدة « كلو » من « النينى » الذى كان يغسل يديه فى احدى الأوانى ، وقالت له بحرارة :

ــ تعمل ، يابنى ، بسرعة ومهارة تفوقان جدتك •

جفف « النينى » يديه فى سرواله • ثم سأل :

ــ هل تريدين تقسيمه أرباعا ؟

أخذت بكل يد سطلا ، ثم قالت :

ــ دع هذا لى •

اتجهت نحو البيت الذى دخل فيه الرجال منذ قليل وصاحت من على الباب ، مميلة رأسها بعض الشىء :

― ٦ ―

لكن « النينى » كان يضحك كثيرا بالرغم من انه لم يكن يفعل هذا سفاهة أو عتها كما يفعل الرجال خلال الاحتفال بالأضحية ، أو عندما يسكرون فى حانة « المالبينو » . أو عند رؤية المطر بعد انتظاره بفارغ الصبر طوال أشهر . ولم يكن يضحك أيضا مثل « ماتياس ثليمين » . المختلس . كل مرة يتجه فيها اليه ، ثانيا جلده المدبوغ كجلد فيل الف بنية وكاشفا عن أسنانه المفترسة . لم يكن النينى يتسعر بأدنى ميل تجاه المختلس . فالصبى كان يكره الموت فى كل صوره ، وخاصة الموت الغادر وغير المسبب ، على خلاف المختلس الذى كان يفخر بأنه فارس لا يشق له غبار فى هذا المجال . حقيقة أن الظروف هى التى دفعت بالمختلس للوصول الى تلك الحال . قبل الحرب الأهلية اجتهد فى اخفاء غرائزه العدوانية التى حاولت الطفو على السطح فى بعض المواقف . لكن الحرب جدعت كثيرا من الميول وجففت الكثير من الأحاسيس وحددت العديد من المصائر ، ومن بينها مصير « ماتياس ثليمين » .

قبل الحرب ، كان « ماتياس ثليمين » يذهب الى مزادات القرى المجاورة ويكسب دون بذل الكثير من الجهد أربعة أو خمسة آلاف ريال (١) . كان يستطيع أن يضع فى رأسه حتى رقم خمسة آلاف ريال وأن يجمع ويطرح منها أتعاب الغير لكى يعرف بالضبط المبلغ الذى سيربحه . وبقدوم

(١) الريال . عملة اسبانية قديمة انتهى العمل بها ويعمل الآن بالبيزيتة . والبيزيتة تساوى اربعة ريالات ـ (المترجم) .

الحـرب بدا الناس يتعاملون بالبيزيتة وتصـل الارقام فى المزادات الى ثلاثين ألفا وهو شىء لم يتعود عليه ، وما زاد الطين بلة أنه كان لزاما عليه ضرب هذه الأرقام الكبيرة فى أربعة كى يحولها الى ريالات ، الوحدة النقدية التى يعرفها · ومنذ ذلك الحين آخذ ينكمش ويخاف الى أن حدثته نفسه ذات يـوم : « ماتياس ، ثمن الحجل مائة ريال صـافية والثعلب أربعمائة والزيزب فوق هذا بكثير » · كما أحس فى نفسـه القدرة على حساب سعر الخرطوشة عند تصنيع البارود فى البيت ، عن طريق خلط السكر بالكلورات وتعبئتها برؤوس المسامير ·

ومنـذ ذلك الحين أصـبحت نظـرته مسـنونة وجلده كالمدبوغ ، وما ورد ذكره على لسان أحد فى القرية الا ورد المستمع قائلا : « آه ، هذا » · لكن « دونيا ريسـو » كانت أكثر حسما عندما وصفته بمتشرد وشرير وضائع مثل سكان المغارات ورجال اقليم « اكستريما دورا » ·

اعتاد « ماتياس ثليمين » السهر بالليل والنوم طـوال النهار · كان الصباح يطلع عليه عادة وهو فى القفـار أو الجبل بعد أن يكون قد انتهى من نصب عدة فخاخ للأرانب البرية عند عودتها من الحقـول ، وفخا للثعلب وكميـة من الالواح الحجـرية فى طريق الحجـلان · كما كان يسـتفيد أحيانا من عربة « لاسيميونا » الكارو أو عربة «دون أنتيرو»، الفوردش ، للاقتراب من أسراب الحبارى أو لصيد زوج من الحمائم البرية . لم يكن المختلس يحترم لوائح أو قانـونا فقد كان يخرج الى الحقول فى الربيع والصيف وبندقيتـه على كتفه وكأنه لا يوجد حظر ، واذا حدث وقابله مصـادفة « فروتس » ، المحلف ، يبادر بقـوله : « أنا ذاهب لصـيد الوحوش الكواسر » · ويقتصر رد «فروتس» على : «معلوم»، ويغمز له بعينه · يعتقد « فروتس » ، المحلف ، أن الخلاء غير صحى لأن الشمس تأكل صحة الرجال كما تأكل آلـوان

ملابس الفتيات ، ولهذا السبب ، فقد كان يقضي أوقات فراغه في حانة « المالبينو » يلعب الدومينو ٠

كثيرا ما كان دهاء المختلس لا يسعفه ، وعندئذ ، يلجأ للصبي :

ـ « نيني » ، أيها الصعلوك ، دلني على مكان الزيزب وسأعطيك خمس بيزيتات ان أصبت ٠

أو :

ـ « نيني » ، أيها الصعلوك ، لم تقع عيني منذ أسبوع على الثعلب ٠ هل رأيته ؟

فيهز « النيني » كتفيه دون آن ينبس ببنت شفة ٠ وعندئذ يهزه المختلس بعنف قائلا :

ـ يا لك من شيطان صغير ! ألم يعلمك أحد كيف تضحك ؟

لكن النيني كان يعرف الضحك بالرغم من أنه تعوده عندما يكون بمفرده ومدفوعا بسبب ٠ عند حلول موسم تلاقح الحيوانات ، كان الصبي يصعد ليلا الى الجبل ، ومع الفجر ، عندما كانت تمشط نسمات الصباح الأولى عيدان القمح الخضراء ، كان « النيني » يقلد الصوت الخشن للأرانب البرية فتأتي الحيوانات من الحقول ملبية النداء ،بينما يكون المختلس ، على الجانب الآخر من المرتفع ، يسب ويلعن لانتظاره العقيم ٠ عندئذ كان الصبي يضحك بدهاء ثم يعاود الضحك بكل كيانه عندما يصطنع اللقاء ، عند عودته ، بالمختلس الذي كان يسأله عكر المزاج :

ـ من أين أنت قادم ، أيها الصعلوك ؟

ـ كنت أجمع بعض النباتات ٠ هل اصطدت شيئا ؟

ـ لا شيء ٠ آرنبة برية كانت تنادي من الجانب الآخر

فهرع على نداتها كل من كان بالحقول ٠ ثم يلتفت اليه فجاة ، متشككا :

ـ ألا تعرف تقليد صوت الأرانب البرية ، يا «نيني» ؟

ـ لا ٠ لماذا ؟

ـ أبدا ٠

وفي مواقف أخرى ، كان المختلس يخرج ومعه «لاميتا»، الكلبة ، فيختبىء « النيني » ،وعندما تضل الكلبة ، لاهثة وراء الأرنب البرى ، يخرج من مكمنه ويخوفها بعصا والكلبة ، التي كانت جبانة مثل بقية كلاب الصيد ، تترك فريستها وتعود ادراجها ٠ عندئذ ، كان « النيني » يضحك أيضا بينه وبين نفسه ٠

على اية حال ، كان « النيني » يعرف كيف يضحك دون الحاجة الى سخرية المختلس ٠ خلال ليالى الربيع المقمرة ، كان يروق للصبى الذهاب الى الحقول والاختباء بين نباتات الأسل الموجود على الشاطىء ، لرؤية الثعلب وهو يهبط من المرج للاستحمام في النهر ، منتهزا فرصة تمام القمر الذى يغمر المنطقة بضوء فوسفورى لبنى ٠ كان الثعلب يتصرف بتلقائية دون أن يشعر بوجوده ٠ كان يرعى بقناعة حشائش الشاطىء القليلة ، وبين الفينة والفينة ، يرفع رأسه الجميل وينصت منتبها لبعض الوقت ٠ كثيرا ما كان ضوء القمر يسقط علىعينيهاللوزيتين فيصدر منهما بريق أخضر فاتح ، وفي تلك الأحوال ، كان يبدو الحيوان وكأنه كائن لا ينتسب لهذا العالم ٠

ذات مرة ، خرج « النيني » من مكمنه وصاح بينما كان الثعلب يهرش ، وهو مقعى في المرج ، جسده بقدمه مطمئنا ، فقفز الحيوان قفزة هائلة مبعثرا بذيله نتونه السكريه الرائحة ٠ جلجلت ضحكات الصبى بينما كان يجرى وراءه بين نباتات الأسل وفى الأراضى المزروعة ٠

في ليال اخرى كان «النيني» يختبىء وراء شجيرة بلوط. في مكان مكشوف بالجبل ، ويلاحظ الأرانب ، التي يغمرها ضوء القمر ، وهي تركض وتلعب بين الأعشاب رافعة اذيالها البيضاء • من حين لآخر كانت تظهر بنات عرس وتختفي في سرعة البرق • في موسم التزاوج ، كانت ذكور الارانب البرية تتقاتل بشراسة أمام عينيه بينما كانت الانثى تقعى بهدوء في مكان مكشوف منتظرة المنتصر • وبعد أن تنتهي المعركة ويتجه المنتصر نحو الأنثى المنتظرة يصدر « النيني » صوتا مميزا فيلتفت الحيوان ، ويداه مرتفعتان ، في انتظار غريم آخر •

في بعض الليالي كان يصل عدد المجتمعين الى نصف دستة من الذكور ، وفي تلك الأحوال كانت المعركة تاخذ طابعا ملحميا • ذات مرة ، رأى « النيني » ، تحت ضوء القمر الفضي ، ذكرا ينتزع اذن آخر بقضمة شرسة فصدرت عن الحيوان الجريح أنات حادة هزت أركان الصمت في الجبل •

في « سان اخنيو » اصطاد « ماتياس ثليمين » ثعلبة لا مثيل لها • في هذا التاريخ تكون الأضحيات قد انتهت ومضت أعياد الفصح ، لكن الجو يظل قاسيا وفي الصباح تبدو الأرض بيضاء وكأن الثلوج تغمرها • علاوة على تجريف السبخ من تحت المواشي وازالة الحشائش الضارة من بين المزروعات ، فلا يوجد لأحد ما يفعله في الحقول باستثناء المختلس • وبعد أن هبط هذا من القفار ، صبيحة ذلك اليوم ، غير طريقه المعتاد ليمر بالقرب من المغارة بهدف اطلاع الصبي على فريسته :

ـ « نيني » ! ـ صاح ـ « نيني » ! أيها الصعلوك ، أرأيت ما أحضرت !

كانت ثعلبة جميلة ، جلدها ضارب الى الحمرة . وعلى لوحها الأيمن شامة غير مألوفة •

ضغط المختلس على ثدى من اثدائها فخرج منه ســائل أبيض لزج . رفع الحيوان بعد ذلك لكى يتأمله الصبى :

ــ أنثى ونفساء ــ قال ــ . ثروة كبيرة ! اذا لم يفتش « الخوستيتو » جيبه كما ينبغى ، فسأذهب بهــا الى المدينة ، سترى .

تركت الهوام الجســد الميت وبحثت عن الدفء فى يد المختلس . تعقب « النينى » الرجل بعينيه ، رآه يعبر قنطرة الألواح الخشبية ، والثعلبة فى يده ، ثم تابعه وهو يختفى وراء مخزن التبن العمومى دون أن يكف عن الصياح .

عندما حل المساء ، وبمجرد أن أحس بنوم العم «راتيرو» نهض من فراشه وسلك طريق الجبل . كانت الكلبة تتب الى جواره والصقيع يلمع حواليه تحت فلقة القمر الهزيلة . أخذ الصبى مكانا خلف شجرة بلوط أمام فتحة الجحر وتكومت الكلبة مطيعة تحت ساقيه . كان الصــقيع يعض ، بأسـنان حادة صغيرة ، أطراف أصابعه وأذنيه ، بينما كانت طيــور الرعاة ترفرف بأجنحتها فوقه ، قريبة جدا من رأسه . بعــد قليل أحس بعــواء ، كانت أنة حادة مثــل أنة أرنب برى ، ولكنها طويلة محزنة . طوى الصبى طرف لســانه وصــفر عدة مرات ، بمهارة فائقــة . بعــد ثلاث صفرات برز من فوهة الجحر ، تحت ضــوء القمر الســقيم ، ثعلب صــغير لا يتعدى الأسبوعين من العمر ، يمشى بحركات خرقاء وكأن ذيله الطويل يعوق تحركاته .

وبمرور بضعة أيام تعود الثعلب الصغير الحياة بينهم . فى الليالى الأولى كان يبكى فتزمجر له الكلبــة فى مزيج من خصومة أبدية وحماسة أسرية ، لكنهما سرعان ما أصــبحا صديقين حميمين . كانا ينامان معا فى حجر الصبى ، فوق القش ، وفى الصباح يتشاجران بود فى رقعة الأرض الصغيرة المليئة بنبات السعتر والمؤدية الى باب المغارة .

وبسرعة طار الخبر لكل انحاء القرية وتوافد الناس لرؤية الثعلب، الذى كان يسترد غريزته المفترسة فى محضر الغرباء وينزوى فى ركن مظلم وينظر اليهم مكشرا عن أنيابه • كان « ماتياس ثليمين » يقول :

ـ يا له من صنيع ، أيها الصعلوك ! لن يفلت من يدى •

بعد أسبوعين فقط كان الثعلب يأكل من يد « النينى » ، ويستقبله عند عودته من صيد الفئران لاعقا ساقيه المتسختين ومحركا ذيله بفرحة غامرة • وفى المساء ، بينما كان العم « راتيرو » يطبخ البطاطس مع حسك البكالاو ، كان الصبى والكلبة والثعلب يلهون فى ضوء الموقد ، وفى مثل هذه الحالات كان « النينى » يضحك بصوت مسموع •

كل صباح، وبالرغم من أن الثعلب كان يأكل كل مايقدم له الا أن « النينى » كان يحضر له عقعقا ليكرم وفادته وعند رؤيته وهو ينتزع ريش الطائر بفمه الحاد الرطب ، كان الصبى يبتسم راضيا •

قالت « لا سيميونا » للوصية الحادية عشرة ، معلقة على ما يجرى فى المغارة :

ـ أول مرة فى حياتى أرى ثعلبا يتحول الى العيش كبنى البشر •

فتقطب « دونيا ريسو » حاجبيها :

ـ تريدين أن تقولى انه لأول مرة تشاهدين رجلا وصبيا يتحولان الى العيش كالثعالب •

كان « النينى » يخاف أن يلبى الثعلب نداء الطبيعة عندما يكبر ويتركه، وان كان الى الآن لا يكاد يفارق المغارة ، وفى كل مرة يخرج فيها الصبى ، كان يعطيه بعض الارشادات والثعلب ينظر اليه بعينيه اللوزيتين ، وكأنه يفهمه •

ذات صباح ، سمع الصبى ، بينما كان يصطاد فى النهر ، طلقة عيار نارى · جرى ، كالمجنون ، ناحية المغارة وقبل أن يصل لمح المختلس يهبط المنحدر بخطــوات واســعة ، يقهقه ويده خلف ظهره :

ــ خا ، خا ، خا ، « نينى » ، أيهــا الصعلوك ، أتدرى ما احضرت اليوم لك ؟ بالطبع لا !

كان الصبى ينظر فزعا الى يده التى أخذت فى الظهــور شيئا فشيئا ، وأخيرا ، أطلعه « ماتياس ثليمين » عــلى جثــة الثعلب التى لا تزال ساخنة ·

لم تطرف للصبى عين ، لكن بعد أن جرى المختلس هابطا المنحدر ، انحنى على الحصباء وشرع فى قذفه مهتاجا · كان المختلس يقفز مترنحــا ، كحيوان جــريح ، دون أن يكف عن الضحك ، ويلوح فى الهواء بجثة الثعلب ، وكأنها نيشان · وقبل أن يختفى ، أخيرا ، وراء مخزن التبن العمومى ، رفع له الجثة مرة أخرى على ماسورتى البندقية ·

ـ ٧ ـ

كلما أوغل الشتاء فى التقدم يتناقص محتـوى مخزن التبن العمومى · كان رجال القرية ونساؤها يأتون بحميرهم ويحملون التبن والقش الى بيوتهم ثم يخلطـونه بالحبـوب ويعلفون به الماشية ، أو يضعونه تحت البهائم فى الحظائر ليتحول الى سماد بعد ذلك ، أو يحرقونه فى المطابخ للاحتماء من البرد ·

وهكذا فعندما ينتهى شهر ديسـمبر ، كان « النينى » يرى من المغارة ، التى تشرف على المخزن من عل ، الســاحة المهجورة التى كانت مخصصة فى المـاضى لانعال الخيـــول بالحدوات الحديدية ·

فى « ســان أبريكو » ، وقبـل أن ينقضى يناير انفلت عيار العاصـفة الثلجيـة · رآها « النينى » · قادمة من بين قمتى « الشاتو » و « كنتامانياس » ، سوداء مهيبة ، تجرجر أذيالها فوق التلال · خـلال ســاعات قليلة غطت الســحابة المنطقة ورشقتها بالثلج ·

أصبحت القمم العالية ، التى تناطح السماء الرصاصية، مثل كثبان من السكر ، شديدة البياض واللمعان ·

فى المساء ، اشتدت الريح فبدا الثلج ،فى ضوء أربعة المصابيح المحتضرة للقرية ، وكأنه قادم من جهة الأرض ومن ناحية السماء ·

كان « النينى » يلاحظ المشهد المروع فى صمت · خلف الصبى ، كان العم « راتيرو » قابعا فى المغـارة ، مسترخيا

أمام النار وعند تغذيتها بحطب جديد أو جمع جذواتها كان يحرك شفتيه ويبتسم • نادرا ما كان يخرج ليطوف بالقمم التى الهبتها العاصفة الثلجية بسياطها ، وفى تلك الاحوال ، كان يربط قبعته المتسخة بحبل ، مثلما كان يفعل اثناء هبوب رياح الشمال الشديدة ، ويمرر طرفه تحت ذقنـه كما كان يفعل الجد « رومان » قديما •

لكى يتمكن العم « راتيرو » من اشعال النار داخل المغارة أحدث فتحة فى سقفها الترابى السـميك بماسـورة صـدئة أحضرها له « روسالينو » ، الوكيل • حذره « الروسالينو » وقتها قائلا : « انتبه ، يا راتيرو ، فقد تسقط المغارة وتدفن فيها » • لكنه تصرف بحنكة عند خرق السقف الذى لم يحدث به الا صدع صغير اجتهـد « الراتيرو » فى معالجتـه بدعامة بدائية • والآن ، يخرج من الماسورة الصدئة دخان يتلوى بين العاصفة الثلجية ، والعم « راتيرو » قابعا بالداخل منكمشـا من البرودة ، يتأمل ألسنة اللهب العدوانية المتقلبة • كانت الكلبة تجثم بالقرب من النار وترسل ، بين الفينة والفينة ، بشخير منطفىء • عندما يتقدم الليل ، يطفىء العم «راتيرو» النار تاركا جذوتها وعلى حرارتها ينام الثلاثة فوق القش ، الصبى فى حضن الرجل ، والكلبة فى حضن الصبى ، ووقت أن كان الثعلب موجودا كان ينام فى حضن الكلبة •

لم يكن « الخوسيه لويس » ، المحضر ، يتورع عن الانذار دون مقدمات بكارثة : «راتيرو ، يمكن أن يشتعل القش وأنتم نائمون وساعتها ستسلقون كالأرانب » • كان العم راتيرو يسمع بينما تعلو شفتيه ابتسامة ماكرة ، متشككة ، لأنه يعلم أن النار صديقته ولا يمكن أن تغـدر به ، وأن « الخوسـيه لويس » يتحدث بلسان العمدة الذى أخذ على نفسه عهدا أمام رئيسه بالقضاء على وصمة المغارات •

.. فى مثل تلك الظروف ، كان « النينى » يحترم صـمت « الراتيرو » • فقد كان يعلم أن أية محاولة للحديث معه لن

تعود بطائل ، لا لأنه مشاكس ، بل لمجرد أن نطق اكثر من أربع كلمات أو الربط بين فكرتين فى جملة واحدة كان كافيا لانهاك عقله . وقد اختار الصبى اسم « فا » للكلبة بالرغم من تفضيله لأسماء أخرى أكثر جاذبية حتى يوفر على « الراتيرو » الجهد . فقط عندما كان « الراتيرو » يفك وثاق جملة يتيمة بقصد افاقة لسانه من الخدر كان الصبى يجاريه :

ــ لقد أصبحت الكلبة عجوزا .

ــ لهذا تعرف .

ــ لا تتصرف كما ينبغى أثناء الصيد .

ــ لا تشغل بالك . مازالت قادرة على الامساك بالفئران .

ويخيم الصمت مرة أخرى ليمتزج الصوت الخافت للعاصمة الثلجية فوق القمة وعواء الريح بقرقعات النار .

فى صبيحة اليوم الثالث بعد « سان أبريكو » ، أطل النينى من المغارة فلمح هيكلا بشريا مقوسا يعبر البيدر ، فى طريقه الى القنطرة :

ــ « الأنتوليانو » ــ قال .

تسلى برؤيته وهو يقاوم الريح التى كانت تصوب حبيبات الثلج الى وجهه وتجبره على لى عنقه فى الاتجاه المضاد . انتصب عندما دخل المغارة ، ملأ رئتيه بالهواء ونفض الثلج بيديه الكبيرتين . قال « الراتيرو » ، دون أن يترك مكانه بجانب النار :

ــ الى أين أنت ذاهب مع كل هذا الثلج ؟

ــ انى قادم ــ أجاب « الأنتوليانو » ، ثم استوى جالسا بجوار الكلبة ، التى نهضت وبحثت عن ركن مظلم ، حتى لا يضايقها أحد .

ــ ما وراءك ؟

مد « الآنتوليانو » يده امام النار تم قال :

ــ « الخوستيتو » ، العمدة ، سيطردك من المغارة ٠

ــ مرة ثانية ؟

ــ بمجرد آن يصفو الجو سيآتى اليك ، لقد حذرتك ٠

هز « الراتيرو » كتفيه :

ــ المغارة ملكى ٠

كان « الخوستيتو » ، العمدة ، يزور بصفة مستمرة « فيتو سولورثانو » ، المحافظ ، في المدينة ، ويناديه بكلمة يا ريس ٠ فيرد عليه « فيتو » :

ــ خوستو، يوم أن تنتهى من موضوع المغاراتأخبرنى ٠ ضع فى اعتبارك أن الذى يحدثك ليس « فيتو سولورثانو » بل المحافظ نفسه ٠

تعرف « خوستو فادريكى » على « فيتو سولورثانو » أثناء الحرب الأهلية عندما كانا يحاربان جنبا الى جنب وأصبحا صديقين ٠ لكن ، الآن ، ما من مرة يواجه فيها « فيتو » « خوستو » ويطلب منه ضرورة الاسراع فى حل موضوع المغارات الشائك ، الا وتضيق جبهة الأخير وتتحول الى اللون البنفسجى وتخفق ، خفقات ضعيفة ، مثل قلب صغير :

ــ دع الأمر لى، يا ريس ٠

وبعد العودة الى القرية يسأل العمدة « خوسيه لويس » المحضر ، باهتمام :

ــ أتعرف ما يعنيه الريس بقوله : ضع فى اعتبارك أن الذى يحدثك ليس « فيتو سولورثانو » ولا رئيسك ، بل المحافظ نفسه ؟

فيرد « الخوسيه لويس » بثبات :

ــ انه سيكافئك ، هذا واضح للعيان ٠

ولكن امراته ، لاكولومبا ، كانت تضايفه في البيت :

ــ خوستو ــ تقول له ــ ، ألن نخرج طوال حياتنا من هذا الجحر اللعين ؟

وعندئذ كانت جبهة « الخوستيتو » تحمر وتتسع بينما يرد عليها :

ــ وما الذى يمكن عمله ؟

فتضع « لاكولومبا » يدها على خاصرتها وتصيح :

ــ تخرج هذا البائس من مغارته ! السلطة فى يدك ٠

لكن « خوستو » كان يمقت العنف بطبيعته ٠ فقد كان يعرف أنه يرتد على صاحبه طال الزمان أم قصر ٠

ومع ذلك ، فقد أتاح له « الخوسيه لويس » الفرصة فى « سان ليسمس » عندما قال له :

ــ المغارة على وشك السقوط ، وبالتالى فان طردك للراتيرو سيكون من أجل مصلحته ٠ هدم ثلاث المغارات الأخرى كان مسألة هينة ٠ فقد ماتت «لا الومينادا» و «رومان» فى يوم واحد ، وغادر « الأبونديو » القرية دون ان يترك عنوانا ٠ « لاسجراريو » ، الغجرية و « المامس » ، الأخرس، كانا سعيدى الحظ بعد تغيير مغارتيهما ببيتين فى البيدر القديم ٠ بكل منهما ثلاث غرف ومشمسان نظير ايجار شهرى قدره مائة بيزيتة ٠ لكن الأربعمائة ريال مازال يعتبرها الءم « راتيرو » ثروة طائلة ٠

انتهت العاصفة الثلجية فى « سان سيبرو » ونزل الضباب ٠ ضباب ساكن ، عتيد ولزج ، يغمر المنطقة بأصداء غريبة ، وفى الهزيع الأخير من الليل ، يزيد من عتمة الصمت المعذب للأرض المقفرة ٠ لكنه (١) كان يرى ، أحيانا أخرى،

---

(١) يقصد الضباب ــ (المترجم) ٠

وهو يمضى بين القمم دشبح ، شفافا وثخينا على التوالى ، ليجعل من دوران الأرض واقعا ملموسا • تحت الضباب ، كانت العقاعق تطير متباعدة وتنعق بصوت غير منسجم، خليط من الغيظ والدهشة • وتبدو القرية ، عند النظر اليها من المنارة ، مثل ديكور باهت سرعان ما يتلاشى تحت ضباب الغسق •

فى « سان أندريس » صفا الجو فظهرت الحقول فجأة وعليها غلال مترعة ، القمح بلون أخضر خفيف ، نصف شفاف ، بينما كان الشعير يشكل بساطا كثيفا من الخضرة الداكنة • تحت شمس شتوية شاحبة كانت الطيور تتمطى مندهشة وتنظر حواليها غير مصدقة ، قبل أن تطير نحو السماء • ومعها كان يتمطى أيضا كل من « الخوسيتيتو » ، العمدة ، « الخوسيه لويس » ، المحضر ، و « الفروتس » ، المحلف ، والذى كان يتولى مهمة مبلغ الأوامر فى بعض الأحيان • عندما رآهم « النينى » يعبرون قنطرة الألواح الخشبية ، مهيبى الطلعة ويمشون بحذر داخل حللهم المخصصة للمناسبات ، تذكر المرة التى عبرت فيها مجموعة سوداوية ، يرأسها رجل فى ملابس الحداد ، القنطرة لحمل والدته الى مستشفى الأمراض العقلية بالمدينة • كان الرجل ذو الرداء الحدادى ينطق بتفخيم كبير عبارة « معهد الصحة النفسى » بدلا من مستشفى الأمراض العقلية ، لكن ، لا بهذه أو بتلك (٢) استردت أمه ، « لا مارثيلا » عقلها ولا حريتها •

رآهم « النينى » يصعدون المنحدر لاهثين أثناء مداعبته بحركة آلية لشعر الكلبة المطوية تحت قدميه • كانت قبعة « فروتس » السوداء تلمع وكأنه يتصبب عرقا • وسرعان ما وصلوا جميعهم الى رقعة الأرض الصغيرة المليئة بنبات

---

(٢) يقصد المؤلف (متهكما) أن تلاعب رئيس المجموعة بالألفاظ (استخدام عبارة « معهد الصحة النفسى » بدلا من « مستشفى الأمراض العقلية ») لم يقدم ولم يؤخر بالنسبة لحالة الأم التى لم تسترد بعدها لا عقلها ولا حريتها — (المترجم) •

السعتر والمؤدية لباب المغارة ، وقف «الخوستيتو» و «الخوسيه لويس » في ثبات ، دون آن يرفعا عيونهما من على الأرض ، أمر « الخوستيتو » « الفروتس » ، بصوت أجش :

ـ اقرأ المنشور ، هيا ٠

بسط « الفروتس » ورقة وبدأ يقرأ متعترا قرار الجمعية باخلاء مغارة العم « راتيرو » لأسباب أمنية ٠ عندما انتهى « الفروتس » نظر الى العمدة ، و «الخوستيتو» دون آن يعدل من وقفته ، قال :

ـ لقد سمعت ، يا راتيرو ، انه القانون ٠

بصق العم « راتيرو » ثم فرك يدا بأخرى ٠ نظر اليهم ، واحدا بعد آخر ، غير عابيء ، كما لو كان الأمر يتعلق بشيء هزلي ٠

ـ لن أرحل من هنا ٠

ـ ألن ترحل ؟

ـ نعم ٠ فالمغارة مغارتي ٠

أضاءت جبهة « الخوستيتو » ، العمدة ، فجأة :

ـ لقد أعلنت على الملأ نبأ الاخلاء ـ صاح ـ ٠ مغارتك على وشك الانهيار وأنا العمدة وهذا من اختصاصاتي ٠

ـ انهيار ؟ ـ استفهم « الراتيرو » مستنكرا ٠

أشار الخوستيتو الى الدعامة والصدع ٠

ـ انها المدخنة ـ أضاف « الراتيرو » ٠

ـ أعرف أنها المدخنة ٠ لكن سيسقط فوق رأسك ذات يوم طن من التراب ويدفنك أنت والصبي ٠

ابتسم العم « راتيرو » في بلاهة :

ـ بل أكثر ٠

ـ أكثر ؟

ـ تراب أكثر فوقنا ، هذا ما أعنى ٠

عندئذ تدخل « الخوسيه لويس » ، المحضر :

ـ عم « راتيرو » ! عليك اخلاء المغارة طوعا أو كرها ٠

نظر اليه العم « راتيرو » بازدراء :

ـ انت ؟ لا يمكنك أن تجبرنى على هذا حتى ولو بأصابعك الخمس !

كان ينتقص « الخوسيه لويس » الاصبع السبابة ليده اليمنى ٠ لقد اجتز الحمار ذات مرة اصبعه بعضة واحدة ، لكن « الخوسيه لويس » لم يستسلم ، بل رد عليه بعضة انتزع بها شفة الحيوان العليا ٠

أحيانا ، عندما كان الموضوع يثار فى الحانة ، كان « الخوسيه لويس » يؤكد أن شفة الحمار ، وهى غير ناضجة ، مثل طعم عش الغراب باردا وبلا ملح ٠ على أية حال ، فقد ظل حمار « الخوسيه لويس » طوال حياته وأسنانه مكشوفة للهواء كما لو كان يبتسم على الدوام ٠ فقد « الخوستيتو » صبره :

ـ اسمع ، يا « راتيرو » ـ قال ـ ٠ أنا العمدة ولى اختصاصاتى ٠ لقد أخذت حيطتى وأعلنت على الملأ نبأ الاخلاء ٠ وقد أعذر من أنذر ، ولا أكون العمدة اذا لم اهدم المغارة خلال أسبوعين ٠ أعلمك بهذا أمام اثنين من الشهود٠

فى « سان سابينو » ، عندما عادت اللجنة الى المغارة ، كانت تضرب القمم العالية ، ريح متقطعة وتحدث تموجات فى اعواد القمح والشعير مثل موجات البحر ٠ كان « الفروتس » ، المحلف ، يمشى فى المقدمة ويحمل بيده أصابع الديناميت بينما الفتيل ملفوف حول خاصرته ٠ عندما أخذوا فى صعود المنحدر أطلق عليهم « النينى » الكلبة فاصطدمت بالفروتس الذى تدحرج حتى وصل الى الطريق بينما كان يسب ويلعن بصوت منخفض ٠ كان العم «راتيرو»

قد استعد وتحدث فى هذا الشان مع « الأنتوليانو » ، وهكذا فبمجرد ان هدده « الخوستيتو » بترك المغارة ، اخذ فى تكرار هده العبارة وكأنه اسطوانة مشروخة : « أعلمنى كتابة ، أعلمنى كتابة » ٠

نظر العمدة الى « الخوسيه لويس » الذى كان ملما ببعض القوانين ، فأومأ اليه برأسه وبعدها انسحبوا ٠ فى اليوم التالى ، أرسل « الخوستيتو » للعم « راتيرو » بلاغا بمهلة أخرى قدرها خمسة عشر يوما ٠ فى « سان سيرخيو » انتهت المهلة وهبطت اللجنة على المغارة قبل الظهر ، عندما نادوا من على الباب ، أجاب « النينى » من الداخل بأن البيت بيته واذا اقتحموه بالقوة ، فسيبلغ عنهم القاضى ٠ نظر « الخوستيتو » الى « الخوسيه لويس » الذى هز رأسه وقال مهمهما : « تعد على حرمة المنزل ، حقا انها لجناية » ٠

فى اليوم التالى ، أوشك « الخوستيتو » على البكاء أمام « فيتو سولورثانو » ، الرئيس ، كانت البقعة البنفسجية التى فى جبهته تنبض وكأنها قلب :

ــ لا أستطيع مع هذا الرجل ، يا ريس ٠ طالما ظل حيا ستبقى مغارات بالمحافظة ٠

حاول « فيتو سولورثانو » ، بصلعته الوردية المبتسرة ويديه المكتنزتين اللتين تعبثان بمحتوى المكتب الحفاظ على هدوئه ٠ فكر عدة ثوان قبل أن يتكلم ، واضعا اصبعين من يده على خاتم الشمع الأحمر ٠ تكلم أخيرا فى تواضع مشوب بعظمة :

ــ لو بقى لى شيء واحد أعمله غدا وأنا فى منصبى هذا، فسيكون الانتهاء من مشكلة المغارات ٠ أنت هدمت ثلاثا فى منطقتك ، خوستو ، أعرف هذا ، ولكن الأمر لا يتعلق بهذا الآن ٠ لقد بقيت مغارة وطالما لا أستطيع أن أقول للوزير : « سيدى الوزير ، لم تبق ولا مغارة فى محافظتى » فكأننى

لم أفعل شيئا · أنت تفهمني ، حقـا ؟ أومأ « الخوسـتيتو » برأسه · كان يبـدو كتلميذ في مدرسـة يعـاني من توبيخ أستاذه · أضاف « فيتو سولورثانو » :

ـ رجل يعيش في مغارة ولا يجد مائة بيزيتة ليدفعهـا في بيت ليس الا متشردا · أليس كذلك؟ أحضره لي، وسأحبسه في ملجأ الفقراء دون تحقيق ·

مد « الخوستيتو » احدى يديه بخجل :

ـ مهلا ، يا ريس · هذا الرجل لا يتسول · له عمله ·

ـ ماذا يعمل ؟

ـ يصيد الفئران ·

ـ هل هذا عمل ؟ لأجل ماذا يريد الفئران ؟

ـ انه يبيعها ·

ـ ومن يشترى جرذانا في قريتك ؟

ـ الناس جميعا · يأكلونها ·

ـ تأكلون الفئران في قريتكم ؟

ـ انها لذيذة الطعم · اذا قليت وتبلت بالخـل تكـون أشهى من السمان ·

انفجر « فيتو سولورثانو » فجأة :

ـ لا يمكن أن أتهاون في هـذا ! انهـا لجريمة في حق الصحة العامة !

حاول « الخوستيتو » تهدئته :

ـ كل المنطقة تأكلهـا ، يا ريس · ألا نأكل الأرانب ؟
ـ مرت لحظة صمت · أضـاف بعـد ذلك : الفئران نفس الشيء ، انها مسألة تعود ·

ضرب « فيتو سولور ثانو » المكتب بقبضته فتناثرت محتوياته :

ـ لماذا أريد عمدا ورؤساء محليين اذا كانوا لا يحلون المشاكل بل يختلقونها لى باستمرار ؟ ابحث أنت عن الصيغة الملائمة ، خوستو ! ضع هذا الرجل فى أى مكان ، افعل كل ما فى وسعك ! ولـكن فكر أنت ، أنت ، بعقلك القـاصر ، وليس عن طريقى أنا !

رجع « الخوستيتو » القهقرى تجاه الباب :

ـ حسنا ، ياريس ٠ دع الأمر لى ٠

غير « فيتو سولورثانو » فجأة من نغمة صوته وأضـاف عندما هم « الخوستيتو » بفتح باب المكتب :

ـ وعندما تنتهى من هذا الموضوع ، أخبرنى ٠ ضـع فى اعتبـارك أن الذى يحـدثك ليس « فيتو سـولوزثانو » ولا رئيسك ، بل المحافظ نفسه ٠

في « سان بالدوميرو » اكتشف « النيني » فوق حلمة « توريثيوريجو » السرب الأول لطيور الشتاء وهي تتجه مسرعة صوب الجنوب · تعاقبت الأسراب دون انقطاع خلال ثلاثة أيام بلياليها · كانت تطير عالية ، راسمة حرف V على السماء الزرقاء الهادئة ، وتصيح هائجة في شيء من الفزع ·

قديما ، كانت حلمة « توريثيو ريجو » تسمى قمة « المورو » ، لكن « لامارثيلا » ، أم « النيني » ، أطلقت عليها الاسم الأول قبل عدة أشهر من دخولها مستشفى الامراض العقلية · بعد ولادة « النيني » ، لم تتحسن صحة «لامارثيلا» وفي كل مرة يضبطها «الراتيرو» وهي تنظر بعته الى الروابي كان يسألها : « الى ماذا تنظرين ، يا مارثيلا ؟ » فلا تجيب · فقط كانت تتلعثم اذا هزها بعنف : «حلمة توريثيوريجو» ، وتشير الى قمة « المورو » المخروطية ، الكئيبة المتجهمة مثل فوهة بركان · « حلمة ؟ » ـ كان «الراتيرو» يسأل مستقصيا ، فتضيف هي : « كثيرون نحن على هذه الحلمة · لا تدر لبنا يكفى الجميع » ·

بعدها بأيام ضبطها « الراتيرو » وهي تنشر رجل مقعد بلا مسند · « ماذا تفعلين ؟ » ـ سألها · فأجابت : « الكرسي يعرج » · رد : « يعرج ؟ » · فلم تجبه ، وعندما حل المساء قامت بنشر الأرجل الباقية للكرسي ·

في ذلك الوقت كان « النيني » قد أكمل ست سنوات ، وما من مرة يقابله فيها المختلس الا ويسأله : « اشرح لي ، أيها الصعلوك · كيف يمكن أن تكون « لامارثيلا » أمك

وعمتك فى نفس الوقت ؟ » ـ ينفجر ضاحكًا وكأن به شحنة هواء تسربت فجأة ·

فى اليوم الذى قرر فيه العم « راتيرو » احداث ثقب فى سقف المغارة بالماسورة التى أهداها له « الروسالينو » ، الوكيل ، طلب من « لامارتيلا » رملا ليخلطه بالأسمنت . فجاءت اليه بعد طول انتظار وهى ممسكة بالمذراة · « خذ » ـ قالت · « ماذا ؟ » ـ سأل « الراتيرو » · « الرمل ، الم تطلب رملا ؟ » ـ قالت : « رمل ؟ » ـ قال : فأضافت : « أسرع ، لأنه ثقيل » · كان « النينى » ينظر اليها مندهشا لكنه نطق أخيرا : «أماه ، كيف يمكن جمع الرمل بالمذراة ؟» - بعد مضى أسبوع على هذه الواقعة ، فى « سان أوليبا » منذ أربع سنوات ، حضر الى القرية رجل فى ملابس سوداء وحملها لمستشفى الأمراض العقلية ، لكن قمة « المورو » لم تسترد اسمها وظلت الى الآبد حلمة « توريثيوريجو » ·

والآن ، تحلق طيور الشتاء فوق الحلمة ، هبط «النينى» الى القرية ليخبر العجوز :

ـ لا أراها ولكنى أحس بأصواتها ـ قال العجوز ـ · هذا يعنى سقوط الثلوج · قبل مضى أسبوع ستغمر المنطقة بأسرها ·

يبدو العجوز ، فى وضح النهار ، ونصف وجهه مغطى بقطعة القماش السوداء وكأنه مومياء جافة · قبل أن يضع قطعة القماش سأله الصبى ذات مساء عما به :

ـ شىء تافه ، دمل سرطانى ـ رد العجوز مبتسما ·

عندما تساور « النينى » الشكوك حول شىء ما (الرجال أو الحيوانات أو السحب أو النباتات أو المناخ) فانه يلجأ للعجوز · كانت لدى العم « روفو » بغض النظر عن خبرته. أو ربما بسببها ، رهافة حادة للاصطباغ بصبغة الظواهر

التطبيعية • في بعض الاحيان ، كان يتحدث عن «ريح صباه» أو عن « تراب البيدر عندما كان شابا » أو عن « شمس خريف العمر » • بمعنى أن مراحل العمر تلعب دورا أساسيا في مدارك العم « روفو » ، الاثر الذى أحدثته فيها ، في مراحل بعينها ، اشياء مثل السحب ، الشمس ، الرياح او تراب الدراس الذهبي • كان العجوز يعرف الكثير عن كل شيء ، بالرغم من أن فتيان القرية وصبيانها لم يكونوا يقتربون منه الا بقصد الضحك من حركاته العصبية أو ليكشفوا قطعة القماش من على وجهه « ليروا جمجمته » والسخرية ، بعد ذلك ، من مرضه :

ـ دعهم ، انهم صبيان ـ اعتاد أن يقول العجوز للنينى متذرعا بالصبر ، في مثل تلك الحالات •

لم تكن « لا سيميونا نفسها ، ابنته ، تكن له أدنى تقدير • منذ أن بدأ العم « روفو » يشيخ ، أخذت « لاسيميونا » على عاتقها مهام البيت والحقل • كانت تعنى بالتطعيم ، تزرع ، تقتلع الحشائش الضارة ، تحصد ، تدرس المحصول وتنقل القش •

ولهذا السبب أصبحت سريعة الغضب ، بخيلة وشكاكة • كانت «دونياريسو» تؤكد بأن جميع الناس يتحولون الى البخل وسوء الظن عند ادراكهم لمدى ما يكلفه كسب بيزيتة واحدة من معاناة • وبالرغم من هذا ، فما كانت تفعله « لاسيميونا » مع أبيها كان زائدا عن الحد • في المرات القليلة التى كانت تتحدث فيها مع جيرانها لم تكن تتورع عن التصريح بأنه « كلما تقدم العمر بالعجوز زادت شراهته ، شيء لا يطاق » • فتنظر اليها السيدة « كلو » وتردد : « يا لقسوة قلبك !

لا يمكن مقارنة ما تفعلينه بالاهتمام الذى أوليه لزوجى « البيرخيلين » (١) ٠

كل اهتمامات السيدة «كلو» ، صاحبة دكان الخردوات، تنصب الآن على « البيرخيلين » ٠ ترعاه كابن لها ، وتود ، لو استطاعت وضعه فى قفص وتعليقه فى سقف الدكان ، كما فعلت من قبل مع العصافير ٠

وعلى خلاف هذا ، لا تعامل « لا سيميونا » والدها كما ينبغى ، بل ان عدم ثقتها به تزداد مع الأيام والآن ، فى كل مرة تغيب فيها عن البيت ، (تعلم) الخبز وتقيس الدجاج ، واحدة واحدة ، لتعرف ما اذا كان العجوز قد أكل كسرة خبز أو طعم بيضة أثناء غيابها ٠ وعند عودتها تقول :

ـ يجب أن تكون هنا ثلاث بيضات ، لنرى أين وضعتها٠

وعندما تنقص بيضة كان السباب والصياح يتجاوزان آخر بيت فى القرية ، واذا كانت الريح مواتية تصعد الصيحات الى المنارة فيتألم « النينى » ويحدث نفسه : «ها هى لا سيميونا تعنف العجوز » ٠

على أية حال ، لم يكن يستطيع أحد ان يقول عن « لا سيميونا » أكثر من أنها تكفل والدا عجوزا ، وتتولى شئون البيت والحقل ، ولا تضن بما يتبقى لديها من طاقة لدفن أموات القرية ٠ كانت تستخدم فى هذا عربة كارو عتيقة ، يجرها حمار أكل منه الزمان حتى شبع ، لا تكف عن ضربه بلا هوادة كل مرة تحمل فيها ميتا الى المقابر ٠ وفى مؤخرة العربة كان تربط « الدوكى » ، الكلب ، بحبل قصير جدا يكاد يخنقه ٠ والكلب يعوى ، مميلا رأسه قليلا لكى يتفادى ضغط الحبل ، واذا لفت نظرها أحد الى هذا فانها ترد بحدة :

---

(١) بيرخيلين « تصغير بيرخيليو » والتصغير ، علاوة على دلالته الحسية المعروفة ، يستخدم كثيرا فى الاسبانية للتعبير عن مشاعر الود والحب والعطف التى يكنها المتكلم تجاه الشىء المصغر ، واستخدام التصغير هنا يندرج تحت المعنى الثانى ـ (المترجم) ٠

(٢) عيون القرية المقصود بها المصابيح ـ (المترجم) ٠

ـ هذا أفضل • فبهذه الطريقة لن يعدم أحط ميت كلبا يبكي عليه •

كانت « لا سيميونا » تسب وتلعن كالرجال وفى الأيام الأخيرة ، عندما تشير الى شراهة والدها ، تسخر من مرضه بالسرطان وتقول : « العجوز يأكل لاثنين بدلا من واحد » •

الى الآن ، يستطيع العجوز الانتقال من مكان لآخر ، ولكنه فى الساعات المشمسة يلزم المصطبة الموجودة خلف الدار حيث يضطجع فوقها مغمض العينين • كثيرا ما كان « النينى » يهبط للاستمتاع بصحبته وهو يفك ألغاز الطبيعة أو لسماع حكاياته القديمة • وفى الأيام الأخيرة يجد الصبى لذة فى تأمل قطعة القماش السوداء التى تغطى جانبا من أنف العم « روفو » ووجنته اليسرى ، وفى كل مرة يجلس فيها الى جانبه ، كان يشعر برغبة لا تقاوم فى رفع قطعة القماش • كانت تتملكه نفس الرغبة التى تتملك صبيان القرية ، مع مطلع الخريف ، عندما كانوا يلعبون بالدمى ويصيحون : « الساعة تدق الرابعة ، هيا نطير قطعة القماش الهاجعة » • ومع ذلك ، كان « النينى » يسيطر على رغبته ، فقد كان يوقر العجوز ويشكر تلقائيا نصائحه •

قال العجوز للصبى عندما أخبره برؤية الطيور تحوم حول حلمة « توريثيوريجو » ، ان الثلج على وشك السقوط ، ربما قبل مضى أسبوع ، وفى « سان بيكتوريانو » ، أى بعد خمسة أيام فقط ، أخذت قطع الثلج تتهاوى فتحولت المنطقة ، بعد بضع ساعات ، الى كفن لا نهائى • أدمى البياض عيون القرية (٢) وطوبها اللبن ووضحت تحت الثلوج الأسوار الشائكة التى تحيط بالحظائر المتهالكة • تبدو الحياة وكأنها هربت من العالم تاركة وراءها صمتا مخيفا وكثيفا كصمت المقابر ، يطوق المنطقة بأسرها • هجعت الوحوش داخل

---

(٢) عيون القرية المقصود بها المصابيح ـ (المترجم) •

جحورها والعصافير بعد طيران حائر بين الثلوج عادت الى الأرض تلتمس الدفء • وهناك ، داخل الفجوات ، ظلت القبرات ساكنة ، تطل برؤوسها ذات العيون المستديرة المندهشة ، لترقب ما حولها جائعة •

أحيانا كان « النيني » يتسلى بالطواف حول تخوم القرية وعندما تراه العقاعق والقبرات وطيور الزرزور تتثاقل فى الارتفاع عن الأرض ، لكنها بعد طيران راسى قصير ، وكأنه وثبة ، تعود مسرعة الى أوكارها •

فى « سان سيمبليثيو » ، لبى « الصبى » والكلبة النداء الخادع للثلوج فخرجا الى الحقول • كانت قدمه تحدث صريرا خافتا ، يحوله صمت المنطقة المهيب الى قرقعات صماء معتمة ، كان ينبسط أمام عينيه كوكب متسع ، معدنى ، منعزل وأخرس ، وعليه أن يطوفه مدفوعا بالرغبة فى الاكتشاف • دار حول قمة « ميرينو » وعندما بدأ فى هبوط المنحدر ، لمح أثرا لحجل • كان يمكن تحديد آثار أقدامه الخفيفة بوضوح على الثلوج العذراء وتتبع الصبى تلك الآثار ، والكلبة خلفه ، دون أن تحاول مجرد اقتفاء الأثر • اختفت الآثار فجأة فتوقف الصبى ثم نظر حواليه، وعندما لمح عشب شجرة البلوط على بعد اثنى عشر مترا ، ابتسم ابتسامة لا تكاد ترى • كان يعرف من جده « رومان » أن الحجلان لا تتبخر ولا تطير فى الثلوج كما يدعى بعض الصيادين الذين يعتقدون فى الخرافات ، ببساطة ، كان الحجل ، لكى يتفادى وشاية آثاره به ، يقفز قفزة هائلة قبل أن يختفى داخل الجحر • ومن ثم فقد استنتج وجود الحجل هناك ، تحت العشب ، وعندما تقدم نحوه والابتسامة بين شفتيه ، مستمتعا بحلاوة المفاجأة ، وثب الحجل بحركات خرقاء والصبى وراءه ، بحركات خرقاء أيضا ، يضحك ويقع ، بينما كانت الكلبة تنبح الى جواره •

توقف الصبى والكلبه بعد ان اختفى الحجل بين المروج وعيناه الصفراوان متسعتان من الرعب • وكرد فعل مباغت شرع « النينى » ، الذى مازال يلهث ، فى التبول فظهرت دائرة صغيرة سوداء من الأرض تحت الثلج المذاب •

انحنى على مقربة من المكان وصنع فى دقائق محدودة تمثالا من الثلج ، ثم وضع على فمه ملفعة واستحث الكلبة :
ــ « نا » ، انظرى ، ها هو المختلس ، اهجمى عليه •

لكن الكلبة نكصت على عقبيها خائفة بينما كانت تنبح وعيناها على التمثال ، عندئذ ، شكل الصبى كرات ثلجية وبدأ يقذف التمثال الذى تهاوى بعد أربع تصويبات • أطلق ضحكة حادة وتجمه رجع الصوت الكريستالى على التكرار ، ثم ، الصياح مرة بعد أخرى ، كل مرة أعلى من سابقتها • تملكه عند ئذ هذا احساس بالكمال • صعد الرابية دون أن يكف عن الصياح وعندئذ لمح المختلس ، بشحمه ولحمه ، هناك أسفل ، يدرجر قدميه فى أراضى السيدة « كلو » المحروثة • أمسك « النينى » عن الصياح وشعر بموجة من الغضب تسرى فى كل جسده • كان القانون يحرم الصيد أثناء سقوط الثلج ، لأن الحيوانات التى تمشى على الأرض تترك آثارا تفضح وجودها بالاضافة الى أن الحجلان لا تستطيع الحركة بحرية فى مثل تلك الظروف • ومع ذلك ، فقد كان المختلس هناك وبندقيته مشرعة • رآه الصبى يتجه نحوه فحاول تفاديه لكن المختلس قطع الطريق عليه • « ماتياس ثليمين » يضرب بالقانون والعرف عرض الحائط عند سيره فى الثلج ، وعند رؤيته من بعيد ، وهو يتسلل بخفة تحت لمعان القمم العالية ، يبدو وكأنه الساكن الوحيد لهذا العالم • عندما اقترب من الصبى ، قال له كاشفا عن أسنانه المخيفة المفترسة :
ــ كنت أنت الذى يصيح هناك أعلى ، أيها الصعلوك ؟

ــ نعم •

ـ كنت تضحك بحماس ، ايه ؟ تضحك عندما تكون بمفردك كالمجانين ٠

حاول الصبى الاسراع لأن صحبته لا تروقه ٠ كانت مخلاة المختلس منتفخة بما يشبه الحجلين ٠ سأل «النينى» :

ـ الم تشاهد آثارا ؟ أين يختبىء الزبزب فى هذه القرية ؟

ـ لا أدرى ٠

ـ لا تدرى ، لاتدرى ، أراهن على أنك تدرى جيدا ٠

هز الصبى كتفيه ٠ أضاف المختلس :

ـ سيطردكم « الخوستيتو » من المغارة ، ايه ؟ الى أين ستذهبون ، أيها الصعلوك ؟ اذا فقئت عينا الأرنب ، مات ٠ سيحل بك نفس المصير لأنك تنلق فمك بقفل ٠

هبطت من على الرابية الآثار الصغيرة لقدمى « النينى » وبجوارهما حذاء المختلس الملىء بالمسامير والآثار الخفيفة للكلبة ٠ تبدو الأرض وهى خالية ومنتفخة بعض الشىء بفعل أشكال القمم المستديرة ، وكأنها مسطح يغمره اللبن قبل لحظة الغليان ٠

رفع العم « راتيرو » ، الذى كان يجلس القرفصاء أمام النار ، رأسه عند سماعه لوقع أقدام الصبى :

ـ هل رأيته ؟ ـ سأل بغيظ مكتوم ٠

ـ لا ـ رد الصبى ٠

ـ « مالبينو » رآه ٠

ـ ليس صحيحا ـ أضاف الصبى ٠ لا توجد مهجة حية بين الحقول ٠

شحذت نظـرة العم « راتيرو » الأبقـة تحت الجفـون وتسمرت على النار ، لكنـه لم يتفـوه بشيء • والصـبى هو الآخر فضل الصمت •

منذ اربعة أسابيع لا يفكر العم «راتيرو» الا فى غريمه • حاول « النينى » مرات عديدة صرفه عن هذا ، واقناعه بأن النهر للجميع ، لكن اصرارا شرسا قد تملك قلب العم راتيرو • « الفئران تخصنى ، وهو يسرقها منى » ، كان يقول : ويلهث من التعب والغيظ • فى « سـان ميليتون » طلعت الشـمس وأذابت الثلج ، ومع حلول المساء ، لم يكن قد بقى الا بعض أجزاء بيضاء هشة تطوق القمم العالية من ناحية الشمال • وفى نفس هذه الليلة لزم العجوز الفراش ، وبمجرد أن عرف « النينى » هبط لتمضية بعض الوقت معه • حقنة شرجيـة كانت معلقة فوق السرير الخشن ، وبجواره مصباح متواضع ، وفوق المصباح توجد صورة للعذراء • قال له العجوز دون أن ينظر اليه ، ودون أن يحرك عضلة واحدة من وجهه :

ـ هذا المساء ، قبل أن أنام ، أردت سماع صوت الريح بين نباتات البوط ، مثلما كنت أفعل وأنا شاب • استلقيت بجوار النهر وانتظرت ، لكن الصوت جاء مختلفا •

كل شيء يمضى فى هذه الحياة لا يتكرر أبدا ، يابنى •

شرع الصبى يتحدث عن الثلج والمختلس وعن الحجل بين أعشاب البلوط وأخيرا ، خيم الصمت ، وحدقتاه على قطعـة القماش السوداء التى تغطى نصف وجه العجوز • لكن العم « روفو » ، الذى كان يلهث من التعب ، لم يعلق على كلمـات الصبى •

فى مساء اليوم التالى عاد «النينى» الى جواره ، ولما أظلم الجو ، نهض وأضاء المصباح الموجود على رأس السرير •

تكررت زيارات « النينى » للمريض لمـدة أسـبوع لم يتبادلا فيـه الا بضـع كلمات ، لـكن « النينى » كان ينهض

بمجرد رؤيته لاحتضار النهار ويضيء المصباح دون أن يطلب منه هذا · فى الليلة السابقة ، وبعد أن أضاء المصباح ، نزع العجوز قطعة القماش السوداء باصبعين مرتجفتين ، وقال :

ـ تعال هنا ·

خفق قلب الصبى خفقات غير منتظمة · بدا الجزء الذى تغطيه قطعة القماش وكأنه عجينة دموية محفورة فى اللحم ذاته · وفى الجزء العلوى من الانف ، بجانب الصدغ ، ظهرت عظمة صفراء ·

ضحك العجوز وقال عندما لاحظ وجه الصبى الممتقع :

ـ ألم تشاهد أبدا جمجمة رجل حى ؟

ـ لا ·

عاود العجوز الضحك ثم قال :

ـ عندما نموت يأكلنا الدود · لكن الأمر سواء ، يابنى· فأنا قد بلغت من الكبر عتيا ولم تطق الديدان الصبر والانتظار ·

في « سان سيجوندو » ، ومنذ أربعة أعوام ، ياتي الى القرية رجال من اقليم « اكستريمادورا » • كانوا يشحلون عند مجيئهم فوق حميرهم المسرجة قافلة غير منتظمة ويغنون، وكانهم بدلا من قطع مسـافة خمسمائة كيلو متر في عشرة أيام وفي طرق متربة ، قد انتهوا من أخذ حمام ساخن بعد الاستيقاظ من نوم عميق • كانوا يسكنون اصطبلات « دون أنتيرو » ، نظير خمسة ريالات للفرد في اليوم الواحد • وبما أن عددهم يصل الى اثنى عشر فردا ويمضون بالقرية ما يقرب من ستة الأشهر ، فقد كان يدخل جيب « دون أنتيرو » سنويا حوالى أحد عشر ألف ريال •

أحسست «دونياريسو»، الوصيةالحادية عشرة ، بقدومهم فأغلقت النافذة بشدة :

— انهم هنا من جـديد ، ليشملنا الله برعايته — قالت لـ « لابيتو » ، الخادمة •

خلال العامين الأولين ، شارك « النيني » هؤلاء الرجال في تطهير الجبل من أعشاب الصنوبر • فعلوا هذا من قبـل في « توريثيوريجو » ، وهم الآن عمال تابعون للحكومة حيث تقع على عاتقهم المهمة الشاقة لتشجير الصحارى والجبال • قضية التشجير كانت الشغل الشاغل لرجال الحكومة الجدد • ففي أثناء الحرب، التي لم يكن قد مضى على اندلاعها غير أربع وعشرين سـاعة ، شـكلت مجموعات من المتطـوعين بغرض تحويل صحراء قشتالة القاحلةالى غابة وارفة • كان المؤيدون لهذه العملية لا يملون من التأكيد على أن « الأشجار تحسن

الطقس ، وتجلب الأمطـار وتحجـز الأتـربة عن الأرض المزروعة • فلابد من زراعة الأشجار • يجب احداث ثورة • ولينهض الريف ويتقدم ! » • وشمر رجال كل القرى عن سواعدهم ، حاملين الفؤوس ، من أجل المنحدرات القاحلة • وعندما جاءت شمس أغسطس أحرقت البراعم الطرية وظلت القمم عارية كالجماجم •

قال « جوادالوبي » ، خولى رجال « اكستريمادورا » ـ والذى كان بالرغم من اسمه (١) فتى لوحته الشمس ، مفتول العضلات وذا ايماءات سريعة وفظة كغجرى ـ لفتيان القرية في حانة « مالبينو » انهم جاءوا وفى نيتهم تحـويل اقليم قشتالة الى جنة فيحاء • ضحك « البرودن » وقتها متشـككا فقال له « جـواد الوبى » : « ألا تعتقد هـذا ؟ » • فأجابه «البرودن» مكتئبا : « الله وحده هو الذى يصنع المعجزات» •

بدأ رجال « اكستريمادورا » العمل في رابية «دونالتيو» وخلال أشهر معدودة رشقوها بأشجار الصـنوبر الصـغيرة ، فأصبحت مثل وجه آدمى هاجمه الجدرى • لكنهم بمجرد أن فرغوا من عملهم صبت شمس لا ترحم نيرانها على الرابية ، فأخذت البراعم الصنوبرية فى الذبول وبعد أسـبوعين جف سبعون بالمائة من الأشجار المزروعة وأصبحت تقـرقع تحت الأقدام مثل الحطب الجاف • قاومت الأشجار الباقية أسابيع أخرى ، لكنها ماتت متفحمة وعادت الرابية الى ما كانت عليه قبل مجيء رجال « اكستريمادورا » ، عبوسة متجهمة •

كان الجص الكريسـتالى يومض عـلى حافة المنحـدر ، وعندما شاهد « جوادالوبى » ، الخولى ، غمزات المرتفع سب ولعن :

ـ مازال يسخر منا هذا المخنث •

(١) فى اسبانيا يعتاد تسمية النساء بهذا الاسم (جرادالوبى) لكنه يطلق على الرجال فى القليل النادر وقد ذكرنا هذا حتى يقف القارىء على قصد الكاتب من حملته الاعتراضية الاستدراكية ـ (المترجم) •

كانوا يتحدثون بغصب عن المرتفعات ، لكن عزيمتهم لم تفتر ، بالرغم من النتائج العقيمة • أحيانا كان يظهر بالقرية المهندس ، وهو شاب بشوش وان كان يعلو وجهه شحوب أوراق الكتب الكثيرة التى درسها ، ويجتمع بالاثنى عشر رجلا فى حانة « المالبينو » ويخطب فيهم وكأنه جنرال يتوجه الى جنوده قبيل المعركة :

ـ أيها الرجال ـ كان يقول ـ ، أتعرفون أنه منذ أربعة قرون كان باستطاعة قرد دخول أسبانيا من على جبل طارق والوصول الى جبال البرانس ، وهو يقفز من غصن الى غصن دون آن تلمس رجله الأرض • بشجاعتكم سيتحول البلد الى غابة مترامية الأطراف •

تبادل « البرودن » و « المالبينو » نظرات لها معنى • بعد انتهاء زيارة المهندس ، الذى كان يشاركهم الشراب دفوره منهم ، يزداد تفانى رجال «اكستريمادورا» ، ويعمقون اكثر حفر شجيرات الصنوبر لكى تتجمع فيها الأمطار ويحمونها من رياح الشمال ، ولكن المطر كان يأبى على النزول ، وعندما يصل شهر يونيو ، تسلق شجيرات الصنوبر داخل حفرها مثلما يطهى الدجاج بنفس عصارته •

اعتاد « النينى » زيارة رجال « اكستريمادورا » لأنهم علاوة على مهارتهم الفائقة فى اجتثاث أعشاب الصنوبر أو زراعة الشجيرات الصغيرة فى لمح البصر ، يذكرونه بأيام « توريثيوريجو » وهو مع جده « أبونديو » ، عندما كانوا يقصون أثناء الليل ، تحت سقف المخزن الملىء بالثقوب ، حكايات تثير الرعب والفزع • من وقت لآخر ، كان يأتى الى القرية أحد (المعارف) :

ـ « نينى » ، أيها الغلام ، ما هى أخبار جدك ؟

ـ ذهب •

ـ الى أين ؟

ــ لا أعرف ٠

ــ يا له من عجوز شقى ! لم يكن يتركنا ننام طوال الليل باغتساله المستمر٠ أمازلت تذكر؟ لكن أهل القرية لم يكونوا يحبون رجال « اكستريمادورا » لأن عملهم بلا ثمرة ، ولانهم يمنعون الخدامان من الاقتراب من المنحدرات ولذا ، فقد كانوا ينسبون أليهم كل أنواع الرذائل ٠ وخــلال فترة تواجدهم كان أهل القرية يتمتعون بحصانة مطلقة ٠ فعنــد حــدوث ما يشين يبادر الناس قائلين :

ــ لابد وأن يكون الفاعل من رجال «اكستريمادورا» ٠

أما الوصية الحادية عشرة فقد كانت تذهب لأبعــد من هذا بكثير ، فلو ظهرت ورقة ماليــة فئة الخمس والعشرين بيزيتة فى صندوق الكنيسه ، أو لو كان عندها علم بفعل من افعال الخير ، كانت تقول :

ــ بالطبع ، ليس هذا من شيمة رجال «اكستريمادورا»٠

لكن «النينى» كان يعرف انهم أناس طيبون فهم يتعبون طوال النهار ويكتفون بالقليل لسد رمقهم ٠ وأجورهم كاملة تذهب الى «اكستريمادورا» حيث تنتظرهم نساؤهم وأولادهم بفارغ الصبر طيلة ستة أشهر كاملة ٠

ولم يغير كل هذا من رأى الوصية الحادية عشرة . فهم بالنسبة لها ، وتحت أى ظرف من الظروف ، أناس غير مرغوب فيهم ٠ اذا سـكتوا اعتبرتهم خطرين ، واذا غنــوا عديمى الحياء ٠ واذا مرت من أمام المخزن وسمعتهم يغنــون بحماس كانت تنادى على « جوادالوبى » ، الخولى :

ــ « جوادالوبى » ، تأمرنا الوصية الحادية عشرة بعدم احداث ضوضاء ٠

فيرد عليها « جوادالوبى » :

ــ واذا لم يغنوا ، فماذا يفعلون ؟

ـ يصلون ٠

عنـدئذ يعقف « جوادالوبى » يديه السـمراوين فوق صدره ويهز رأسه من أعلى الى أسفل ، وكأنه يريد أن يبرهن على سكوته حتى لا تتفاقم الأمور ٠

فى « سان براوليو » ، التقت « دونياريسو » بالراتيرو فى الميدان :

ـ تسرنى رؤيتك ـ قالت له ـ ٠ هل تعرف أن الصبى يمضى كل الوقت بصحبة رجال « اكستريمادورا » الضـالين ويشرب من أوعيتهم ويستمع لكلامهم الفـارغ وحـكاياتهم القذرة ؟

ـ دعيـه ، يا « دونياريسـو » ـ أجاب « الراتيرو » بابتسامته المبهمة ٠

ـ أهذا ما قدرت عليه ؟

ـ نعم ٠

ـ أليس من الأفضل له الذهاب الى المدرسة بدلا من تعلم مالا ينبغى ؟

ـ انه يعرف ٠

ـ تعتقد أنه يعرف ؟

ـ الكل يقول هذا ٠

ـ الكل ؟ واذا كانوا هم لا يعرفون شيئا ، فكيف يحكمون على الآخرين ؟

وضع « الراتيرو » اصـبعا تحت القبعة وهرش راسـه بخشونة ٠

تحول صوت «دونياريسو» ، فجأة ، الى نغمة استرضاء :

ـ اسمع ، يا « راتيرو » ـ أضافت ـ ٠ لدى « النينى »

مواهب طبيعية ، أعتقد في هذا ، لكنه يحتاج الى توجيه ،
اذا سلك الطريق الصحيح فيمكن أن يعرف مالا يعرفه أحد ٠

نظرت الوصية الحادية عشرة الى الساعة فى معصمها وصدرت عنها ايماءة قلقة :

ـ ليس لدى وقت الآن ، يجب ان اتحدث معك ذات يوم على مهل ٠ الفكرة السيئة التى كونتها « دونياريسو » عن « النينى » لم تكن بالشىء الجديد ، لكن قبل وصول رجال « اكستريمادورا » هـذا العام ، اقتصرت الوصية الحادية عشرة على الظن السيىء به أو توجيه بعض اللوم اليه ٠ لكن هذا لم يمنعها من الاستفادة بخدماته وقت الحاجة ، مثلما حدث فى « سان روبرتو » وفى « سان خوان » منذ عامين مضيا ، بالنسبة لموضوع الأرانب :

ـ « نينى » ـ سألته حينئذ ـ ألا تلد الأرانب كل شهر ؟

ـ بلى ٠

ـ ما الذى جرى اذن لأرنبتى هذه التى يصحبها الذكر من ستة أشهر وكأن شيئا لم يكن ؟

لم يجب « النينى » ، فتح العشة واختبر الأرنبين بدقة ، وبعد برهة ، أغلق عليهما العشة من جديد ثم نهض وقال بصوت وقور :

ـ انهما ذكران ، يا « دونياريسو » ٠

بدت الوصية الحادية عشرة وكأنما نزل عليها سطل من الماء البارد ، وعندما استعادت هدوءها دفعته بكلتا يديها خارج الحظيرة ٠

فى حيـاة « دون ألثيو جاجو » ، زوجها ، كانت «دونياريسو» مستبدة وتركب رأسها دائما ٠ كان «دون أليثو» مريضا بالضغط ولم يكن يقوى على المشى ، وبما أنه يرهب الخيول ، فلقد اشترت له بعض الخيول الضامرة التى تستغنى

عنها المؤسسات المتخصصه فى تجهيز الموتى ودفنهم · كانت الخيول التى تجر مثل تلك المركبات مطيعة ولا تأتى بما يعكر الصفو · وبالرغم من هذا ، فقد ابقى « دون التيو » على سروجهم المذهبة وعلى الريش الاسود الذى يزين رؤوسهم لانه ربما يؤدى التخلى عن هذه اللوازم الى استغراب الخيول وهيجانها · كان الفلاحون يرسمون الصليب على صدورهم عندما يلتقون به وهو على هذا الوضع ، لأنهم يعتقدون ان الحيوان المسرج بهذا الشكل لا يمكن أن يجر سوى المصائب · اعتاد « دون ألثيو » الذهاب عند مغيب الشمس الى قمة « ثيرال » ، وهناك يبدو وهو جالس بلا حراك فوق حصانه المزين بالريش ووجهه للضوء الباهت وكأنه شبح أسطورى · ومنذ ذلك الحين تحولت قمة « ثيرال » الى قمة « دونالثيو » ، لكن « دون ألثيو » ، بالرغم من مرضه بالضغط ، فقد دفن أربعة خيول قبل أن يموت ، وعندما حدث هذا اتشحت « دونياريسو » بالسواد ، حتى انها رفضت المشاركة فى عيد الفصح وواظبت على قداس الأحد من خلال نافذة الاعتراف لمدة عامين ·

كان قسيس «توريثيوريجو » ، « دون ثيرو » ، بعد أن يفرغ من قداسه فيها يذهب فى نفس اليوم لاداء قداس اخر فى قرية «النينى» · وبما أنه كان فى ريعان الشباب وخجولا فلم يستطع مقاومة رغبة «دونياريسو» : «اذا كنت ترين ان هذه الطريقة تريح ضميرك ، فاستمرى » ، كان يقول لها · يأتى « دون ثيرو » الى القرية ممتطيا جرار « دون أنتيرو » الزراعى ، فى تمام الحادية عشرة أيام الآحاد ، فيصلى صلاة خفيفة ويحاول التبسط فى شرح الانجيل· أما «الماميرتيتو» ، صبى البرودن الذى يعمل مساعدا للقس ، فلم يكن يقرع الأجراس الا بعد أن يشاهد من موقعه على البرج سحابة التراب التى تثيرها على الطريق عربة « دون أنتيرو » ، « الفوردش » ·

كان « المامير تيتو » يصر على التأكيـد ، ومنـذ نعـومة أظفاره ، بأن الملاك جبريل يتراءى له قبل نومه · عندما بلغ السادسة لازمت وجهه أمارات الذهول فكانت « لاسابينا » ، أمه ، ترجع هذا الى التهيؤات · لكن بعد سنتين سقط الصبى من على آلة الدرس فخرجت من أنفه حبة صنوبر لها جذور ومعها دم كثير وصديد ، ومن ساعتها عادت النضارة الى وجهة من جديد وعندئذ صاحت فيه « لاسابينا » ، بخيبة أمل ، اذا ادعيت ثانية رؤية جبريل فسألطمك على وجهك ·

فى « سان خوناس » ، أرسلت « دونياريسو » فى طلب « النينى » :

ــ ادخل ، أيها الصغير ــ قالت له ــ · دع الكلبـة فى الخارج ·

نظر اليها الصبى فى هدوء وقال برباطه جأش :

ــ اذا لم تدخل معى ، لن أدخل ، ها قد عرفت ·

ــ حسنا · سنتحدث حينئذ فى الحظيرة ·

لكنهما بقيا في الدهليز ، جالسين على دكة عالية جدا من خشب الجوز، لدرجة أن قدمي الصبى ظلتا معلقتين فى الهواء بعيدتين عن الأرض · استخدمت معه الوصية الحادية عشرة كلاما عذبا مهذبا هذه الليلة :

ــ أخبرنى ، يا « نينى » ، لماذا تمشى وحدك دائما ؟

ــ لا أمشى وحدى ، يا « دونيازيسو » ·

ــ مع من ، اذن ؟

ــ مع الكلبة ·

ــ يالله ! أتعتبر الكلبة أحدا ؟

نظر اليها « النينى » مندهشـا ولم يجب · اسـتمرت « دونياريسو » :

ـ والمدرسة ؟ لماذا لا تذهب الى المدرسة ؟

ـ لماذا ؟

ـ لكى تتعلم ٠

ـ وهل تعلم المدرسة ؟

ـ يا له من سؤال ! فى المدرسة يتعلم الصغار ليصبحوا فى الغد رجالا ذوى شأن ٠

ابتسمت « دونياريسو » عندما لاحظت حيرة الصبى وأضافت :

ـ اسمعنى جيدا ٠ سيقول لك جهلاء القرية ورجال «اكستريمادورا» الضالون انك تعرف الكثير٠ لكن لا تلتفت لكلامهم ٠ اذا كانوا لا يعرفون شيئا ، فكيف يقومونك ؟

نظر كل منهما للآخر فى صمت و « دونياريسو » لكى لا يفلت الزمام من يدها ، أضافت أخيرا :

ـ هل تعرف مثلا معنى طول الأناة ؟

نظر اليها الصبى متحيرا ، كانت تعلو وجهه نفس الدهشة التى علته منذ يومين عندما طلب منه « الروسالينو » وهو على متن العربة « الفوردش » أن يضرب بيده على « الكاربوراتور » لأن محرك السيارة يقطع ٠ وبما أن الصبى لم يحرك ساكنا ، فقد سأله « الروسالينو » : « ألا تعرف مكان « الكاربوراتور ؟ » فهز الصبى كتفيه وقال : « عن هذا لا أعرف شيئا ، انه من المخترعات » ٠

تأملته « دونياريسو » فى شىء من الكبرياء وعلى شدقيها مشروع ابتسامة :

ـ قل ـ ألحت ـ ٠ هل تعرف معنى طول الأناة ؟

ـ لا ـ رد الصبى بجفاء ٠

تفتحت ابتسامة « دونياريسو » كزهرة الخشخاش :

ـ اذا ذهبت الى المدرسة فستعرف اكثر من هذا وستصبح في القريب العاجل رجلا مهما ٠

انطبقت لحظة صمت ٠ كانت « دونياريسو » تعد لهجوم جديد ٠ لقد بدأت تزعزعها سلبية الصبي وغياب رد فعله ٠ قالت فجأة :

ـ أتعرف عربة « دون أنتيرو » الكبيرة ؟

ـ نعم ٠ يقول « الرابينوجراندى » انهـا من النـوع الذكر (٢) ٠

ـ ياالله ، يا له من هذيان ! ٠ أيمكن أن تكون السيارة ذكرا أو أنثى ؟ أهذا ما يقوله الراعى ؟

ـ نعـم ٠

ـ جاهل آخر ٠ لو كان « الرابينو جراندى » ذهب الى المدرسة لما تفوه بمثل هذه الترهات ـ غيرت من نغمة صوتها كى تواصل الحديث :

ـ وأنت ، ألا يعجبك أن تكون عندك سيارة مثل التى يملكها « دون انتيرو » عندما تصبح كبيرا ؟

ـ لا ٠

تنحنحت « دونياريسو » :

ـ حسنا ـ تابعت كلامها ـ ، لكن يعجبك معرفة كيف تزرع صنوبرا أكثر من « جوادالوبى » ٠

ـ نعـم ٠

ـ أو معـرفة كم لدى النسر من أصابع أو أين يعشش العاسوق صائد السحالى ؟

ـ أعرف هذا ، يا « دونياريسو » ٠

---

(٢) على خلاف ما هو معروف فى اللغة العربية فان كلمـة : سـيارة أو عربة (el coche) فى الاسبانية تندرج تحت جنس المذكر ـ (المترجم) ٠

ـ حسنا ـ قالت الوصية الحادية عشرة بصوت مضطرب ـ ، (عايز تفرسنى) · أهذا ما تريد ؟

لم يجب الصبى · كانت الكلبة تتأمله بخنوع من موقعها بالقرب من افريز الباب المذهب ·

نهضت « دونياريسو » ووضعت يدها على كتف الصبى :

ـ اسمع ـ قالت له بحنان ـ ، لديك مواهب فطرية لكن العقل تجب زراعته · اذا لم تقدم الطعام يوميا لعصفور فانه يموت ، أليس هذا بصحيح ؟ والأمر كذلك بالنسبة للعقل ·

ـ تنحنحت ببلاهة ثم أضافت :

ـ أنت تعرف مهندس رجال « اكستريمادورا » ؟

ـ « دون دومينجو » ؟

ـ نعم « دون دومينجو » ·

ـ أعرفه ·

ـ يمكن أن تصبح مثله ·

ـ لكنى لا أريد أن أكون مثل « دون دومينجو » ·

ـ حسنا ، ما أردت الا أن أضرب المثل به · ما أريد قوله هو أنك يمكن أن تصبح من السادة لو قدمت القليل من جانبك ·

ـ ومن قال لك اننى أريد أن أكون من السادة ، يا « دونياريسو » ؟

وجهت « دونياريسو » نظرها الى السقف ، ثم قالت كاتمة غيظها :

ــ من الأفضــل أن أتحــدث الى والدك ثانية ٠ أنت فى غاية العناد٠ لكن ضع ما تقوله «دونياريسو» حلقة فى أذنك: لا يمكن لأحد فى هذا العالم أن يضع يدا عــلى أخرى ويظل متأملا شروق الشمس وغروبها ٠ تقول الوصية الحادية عشرة : العمل حق ٠

كان « الرابينو جراندى » ينهض قبل طلوع الفجر وينفخ فى البوق وسط ميدان القرية فيلبى السكان اشارته ويفتحون أبواب الحظائر ، وهم شبه نائمين ، فتتقاطر النعاج والماعز بمفردها وتلتف حول الراعى محركة جلاجلها بسرور • فى مثل هذه الساعة ، يكون « الرابينو تشيكو » عائدا من النهر بعد سقى البهائم ويتقابل الأخوان فى الميدان فيحيى كل منهما الآخر برفع يده فى لمحة صداقة ، كالغرباء :

ـ صباح الخير •

ـ لينعم الله علينا بالخير •

بعد ذلك ، ينزوى « الرابينو تشيكو » داخل الاصطبل ، ينظف المداود ويعدالأعلاف، بينما يسلك «الرابينو جراندى» بقطيعه طريق الربوة لتفاجئه خيوط الصباح الأولى . عادة ، وهو فى مسارب القمم العالية •

خلال فصلى الخريف والشتاء ، يكون العم « راتيرو » و « النينى » هما أول الكائنات البشرية التى يراها « الرابينو جراندى » تحت فى السهل ، بين الربى العبوسة ، بالقرب من الخط الفضى للنهر • كان يميزهما بوضوح ، بالرغم من صغر حجميهما ، ومن حركاتهما كان يدرك متى تفر الجرذة ومتى يمسكان بها • وبينما هو جالس فوق صخرة ، لتناول غذائه ، يظل يرقبهما بلا اكتراث أو حماس •

تحت ، فى السهل ، ابتعد « الراتيرو » عن فوهة الجحر عكر المزاج وهو يقول :

ــ ليس به شيء ٠

يمضي النهر ، في مجراه الضحل ، بصعوبة بين نباتات السعد والبوط ، وعلى جانبيه تحت شمس مشاكسة ، تلمع الأرض العطشى بالبياض ، في تناقض واضح مع مظهر الكمال الخادع للغلال المنتصبة ٠

استحث الصبي الكلبة :

ــ عليك بها ، يا « فا » !

ألصقت الكلبة خرطومها بسطح الأرض ، تشممت المسارب على الشاطيء وعند عبورها النهر ، بربطت في الماء بصوت عال ٠ توقفت فجأة ، ذيلها المقصوص منتصب ، رأسها مائلة الى ناحية ، عيناها ثابتتان ، وجسمها متخشب بلا حراك :

ــ حذار ! ــ قال « الراتيرو » ــ شاهرا سيخه الحديدي٠

أسرعت الكلبة بلا تبصر فهشمت كرفس الماء ونبات السعد الذي يعترض طريقها ٠ جرت لعدة ثوان في خط مستقيم ، ثم توقفت فجأة ، عادت أدراجها وهي تشمشم في كل اتجاه ، وأخيرا رفعت رأسها حزينة وهي تلهث من التعب ٠

ــ لم تفلح في الامساك بها ــ قال « النيني » ٠

ــ لقد شاخت ، لم تعد تنفع للصيد ــ رد عليه « الراتيرو » ٠

نظر اليه « النيني » بارتياب ثم قال بعد وقفة قصيرة :

ــ انها حامل ٠ ستعود الى ما كانت عليه بعد الولادة ٠

لم يرد الرجل ٠ قفزت الكلبة النهر ، أقعت ، ثم نبشت الأرض بيديها في عصبية حتى غطت البقعة الصغيرة الرطبة ٠ كل مرة تتبول فيها بين الحقول تحاول ألا تترك أثرا ٠ في

المغارة كانت تكفى اشارة من الصبى لكى يخرج الحيوان ويريح نفسه . فى شبابها كانت ترفع رجلها على النواصى لتفعل هذا ، مثل الذكور ، لكن بعد أول بطن لها ، أصبحت رزينة وأدركت معنى الأنوثة . من قبل ، قص «الأنتوليانو» ذيلها بضربة ازميل واحدة ، لكن ذيل « لافا » ظل بهيجا ومعبرا ، مثل هؤلاء الرجال الذين يبتسمون رغم كثرة المصائب . من ذيل الكلبة كان « النيتى » يعرف أين توجد الجرذان . اذا كانت حزينة أو مسرورة ، أين يعشش الهدهد والكروان أو أين يكمن الخطر .

ــ انها حامل من كلب العجوز ــ أوضح الصبى ، بعد وقفة قصيرة ، دون أن يسأله الرجل .

ــ من « الدوكى » ؟

ــ نعم . فى المساء تفك « لاسيميونا » وثاقه .

حرك « الراتيرو » رأسه غاضبا . كانت ذقنه التى لم تحلق كثيفة الشعر ، وقبعته المتسخة تصل الى أذنيه . تعكرت عيناه عندما قال :

ــ الآن لا توجد جرذان .

أوشك الربيع على القدوم والمخلاة يتناقص محتواها كل مرة عن سابقتها بالرغم من مضاعفة الجهد . لم يحدث هذا فى أى عام مضى . كانت الجرذان تكثر فى النهر ــ ما بين خمسة أو ستة فى الجحر الواحد ــ ونادرا ما كانت تقل حصيلة اليوم الواحد عن ثلاث دست . أما الآن ، فلا يكاد يسفر مجهود اليوم بطوله عن ثلث هذه الحصيلة . ولذا كان « الراتيرو » يقول من بين لثتيه الخاليتين من الأسنان : «انه يسرقها منى » .

فى الحانة ، لا يكف « المالبينو » عن وسوسته الشريرة كل ليلة : « الجرذان جرذانك ، يا « راتيرو » ضع هذا فى رأسك . هذا الوغد لم ينتدبه أحد» . «معك كل الحق» .

كان « الراتيرو » يرد عليه وتتصلب عضلات رقبته وذراعيه كما لو كانت ستنفجر • ومع ذلك يضيف « المالبينو » يريد أن يسلبك لقمة العيش ، لا تدع هـذا التنبل يطأ أرضك » •

وبعدها لا يكف « الراتيرو » ، حتى مساء اليوم التالى، عن اجترار كلمات « المالبينو » بالرغم من اجتهاد « النينى » فى اقناعه بأن الجرذان مثل الغلال ، تكثر يوما وتشح اخر، وأن السبب هذا العام يرجع الى كثرة بنات عرس •

أحيانا كان الصبى يتصور أن الجرذان قد أصابها الوباء الذى يفتك بالأرانب ، لكنه بالرغم من بحثه الدائب فلم يعثر على جرذة واحدة مريضة • وعلى خلاف هذا ، فقد كان يعثر بسهولة على أرانب فى الصحراء أو فى مسارب الجبل ، رؤوسها شقراء ضاربة للسواد ، جفونها منتفخة ، وأفواهها مليئة بالبثور • فالأرنب الذى تصيبه العدوى يصبح مخلوقا أعزل سرعان ما يموت جوعا : فهو عندما يفقد البصر وحاسة الشم لا يعود قادرا على البحث عن غذاء •

كشف « النينى » عشا ونادى على « الراتيرو » :

ـ انظر •

بين القش كان يتحرك جسدان صغيران ورديان وعيونهما مازالت مقفلة :

ـ ها قد رأيت ـ أضاف الصبى ـ • الذنب ليس ذنب أحد •

عادة ما تحتوى جحور الفئران على عدد يتراوح بين خمس أو ثمان • قال « الراتيرو » بعد امعان النظر فيهما :

ـ لقد ولدا هذه الليلة •

غطى الصبى الجحر بعناية حتى لا يؤذيهما ، وألح قائلا :

ـ انها سنة كبيسة • الذنب ليس ذنب أحد •

في سبيحة اليوم التالى ، التقي « النيني » ، بينما كان يبحث عن ثعلب النهر ، بفتي « توريثيوريجو » الذى يصيد الجرذان ٠ كان شابا وسيما ، ذا عينين متألقتين وتعبيرات جريئة ، ويلبس سترة مخملية بنية اللــون وحــذاء ملينــا بالمسامير مثل حذاء المختلس ٠ كان كلبه يتشمم بلا قناعة بين كرفس الماء ٠ ابتسم لـ « النيني » أثناء جلوســه القرفصاء وغرزه للسيخ الحديدى في الأرض :

ـ ماذا حدث ، أين الجرذان هذا العام ؟

ـ لا أدرى ـ رد الصبى ٠

ـ فى العام الماضى كانت الجرذان (على قفا من يشيل) ٠
ـ هذا العام ، لا ٠ بنات عرس تهاجمهم، وأبناء مقرض ٠
ـ أبناء مقرض أيضا ؟

ـ احكم أنت ٠ لا توجد أرانب في الأماكن العاليــة ٠ قضى عليهم الوباء ٠ ولابد أن يقتات أبناء مقرض بشيء ٠

صمت « النيني » بعد ذلك متأملا الفتى ٠ نظرت الكلبة اليه أيضا وهمهمت بغضب لم تفلح في اخفائه ٠ وقعت عينا « النيني » على الكيس المترهل المتدلى من حزام الفتى :
ـ ألم تصد شيئا ؟

ابتسم الآخر ، كانت ابتسامته بيضاء على خلاف وجهــه الذى لوحته الشمس :

ـ بل قل هل رأيتها ٠

وضع الصبى مرفقيه على ركبتيه وأمسك وجهه براحتيه ثم سأل أخيرا :

ـ لماذا تفعل هذا ؟
ـ أفعل ماذا ؟
ـ تصيد الجرذان ٠
ـ بقصد التسلية ، ثم لأنى أحبها ٠

ـ هل تبيعها ؟

أطلق الفتى ضحكة مجلجلة :

ـ أصيدها فقط لكى آكلها ·

حينئذ أشـــار عليـه « النينى » بالصـيد فى أراضى « توريثيوريجو » · فسأله الفتى :

ـ هل الصيد محظور هنا ؟

لم يجب الصبى · عنـدئذ جلس الفتى فى المنحـدر أخرج لفافة تبغ ، اشعلها ثم استلقى تحت وهج الشـمس كانت عيناه تغمزان ، لا أحد يعرف هل بسبب دخان السيجارة أم لشدة ضوء الشمس ، وفجأة ، اعتدل وقال :

ـ يبدو أن المطر لا يريد النزول ·

منذ « سان خوان كليماكو » و « البرودن » لا يمل من تكرار هذه العبارة فى الحانة : « اذا لم تمطر فى « سـان كينتيانو » فعلى الدنيـــا العفـــاء » · أما « الروسالينو » و « البيرخيليو » و « الخـوسيه لـويس » و « الخوستيتو » و « الجوادالوبى » ومعهـم كل رجال القرية ، فلم يكـونوا يتفـوهون بشىء ، لكنهم عنـد الاستيقاظ صباحا يرفعـون عيونهم نحـو السـماء وعنـد رؤية الزرقة اللا نهائيـــة يسخطون ويلعنون من بين أسنانهم · وبرغم هـذا ، فقـد كانوا يعجلون بالذهاب الى الحقـول مع أول ضـوء للشمس لعزق الأرض ، وعندما ينتهون ، يجلسون فى الحانة صامتين، وأحيانا يحاولون نسيان المأساة فيقولون : «هيا، يا«بيرخيليو» اعزف لنا قليلا ، نستمع ـ على الأقل ـ للموسيقا » ·

كان رجال القرية فى محاولة منهم للتسلح ضد المصائب، يقيمون الأعياد والاحتفالات طوال العام · لـكن المطـر أو الغمام أو الآفات أو الصقيع الأسود كانت تتكفل بقلب كل شىء رأسا على عقب · بدت القرية هذا العام وكأنها تحولت الى مأتم فى أعياد « لاس مارثاس » · ومع ذلك ، فقد انقسم

الشباب ، كالعادة ، الى جوقتين تطالب كل واحدة منهما بانضمام « بيرخيليو مورانتى » اليها ، لكن الحماس ما لبث ان توارى حينما ظهرت السيدة « كلو » وأخبرتهم أن الليلة رطبة وأن « البيرخيليو » يشكو من البرد ومن الأفضل له ان يبقى بالبيت · لم تفلح الجوقتان فى الغناء بدون « البير خيليو » · وضحكت الفتيات من الشرفات على محاولاتهما النشاز · بعد ذلك ، فى الحانة ، لم تكن الجرذان كافية لتلبية الطلبات عليها وصدقت ، مرة أخرى ، نبوءة العجوز : « عندما يكثر النبيذ ، تقل المؤن » · توجه « الخوسيه لويس » الى العم « راتيرو » قائلا له فى غلظة : « لم تعد لك فائدة ، لتحجز لك من الآن مكانا فى الملجأ » · فرد « الراتيرو » : « لا توجد جرذان لأنه يسرقها منى » ·

بمجرد أن أعاد « النينى » من مهمته للبحث عن ثعلب النهر ، ألقى عليه الراتيرو هذا السؤال :

ـ هل رأيته ؟

لم يجب الصبى · فرفع العم « راتيرو » عينيه من على القدر وكرر السؤال :

ـ هل رأيته ؟

تأخر الصبى برهة فى الرد :

ـ انه لا يتقن الصيد ـ قال أخيرا ـ · ولا الكلب الذى يصحبه ·

أمسكه « الراتيرو » من شعره وأجبره على رفع رأسه :

ـ أين رأيته ، تكلم ؟

تقلص فم الصبى فى تعبير عن الألم الذى يحسه :

ـ فى « لاس ريبويلتس » ، لكنه لا يفهم فى الصيد · لم يصد جرذة واحدة طول النهار ·

تركه العم « راتيرو » لكن أصابع يده ظلت متآلمة ثم

ضمها أخيرا لأصابع اليد الأخرى ، وكأنه يقبض على رقبة شخص ما ، ثم قال :

ـ لو أمسكت به ،لقتلته ٠

وظل يلهث لبعض الوقت من المجهود الذى بذله ٠

فى « سان اندريس ايبيرنون » فقدت الكلبة احدى عينيها ٠ حدث هذا فى نفس اليوم الذى قتل فيه « الرابينو جراندى » ، الراعى ، أفعى طولها متر ونصف المتر كانت ترضع نعجة «البرودن» بعد تخديرها ٠ ادى جزع «الراتيرو» ورغبته المستمرة فى البحث بين نبات الاسل ، البوص والسروال لأن تفقد « لافا » عينها ٠ كان لا يمل من تكرار : « هيا ، ابحثى » ٠ والكلبة مطيعة كانت تقتفى الآثار بين كرفس الماء واللبلاب٠ عندما خرجت من بين الأحراج وعينها مصابة كانت تهمهم همهمات خافتة ٠ قال « الراتيرو »٠: « لم تعد تصلح ، أصبحت عجوزا » ٠ أخذها الصبى بين ذراعيه وسهر بجوارها طوال الليل ليضع لها الضمادات ٠ فى صباح اليوم التالى ، غسل بعصير المشمش عينها ، لكن محاولاته باءت بالفشل، وبقيت الكلبة عوراء وعلى وجهها ارتسم تعبير غريب يجمع بين الصعلكة والاكفهرار ٠

فى « سان خوان » ، وضعت الكلبة ستة كلاب بجلود رقطاء وكلبا بلون القرفة ٠ هبط « النينى » الى حيث يقيم العجوز ليزف اليه البشرى :

ـ لقد أصبحنا أقارب ، أليس كذلك ؟ ـ قال له العجوز:

ـ أقارب ، ياعم « روفو » ؟

ـ لنر ٠ أليست الكلاب المولودة من « الدوكى » وكلبتك ؟

ـ بلى ٠

ـ اذن نحن أقارب ٠

لم يعتد الصبى الوحدة . وهو الآن يفتقد وجود الكلبة الى جواره . كل مرة يغادر فيها المغارة كانت الكلبة تتبعه بعينها وتتحير بين صحبته وبين البقاء الى جوار صغارها . ذات مساء ، عندما عاد من الخارج ، وجدها تعوى بحرقة . كان تحتها ، مختفيا بين ضرعها ، الكلب الذى بلون القرفة . بادره « الراتيرو » وعلى شفتيه ابتسامة خبيثة :

ـ باين عليه شاطر ومفتح .

نظر اليه الصبى دون أن يفتح فمه . أضاف العم « راتيرو » :

ـ عيناه تتوقدان ذكاء .

تحير الصبى ثم سأل :

ـ والآخرون ؟

ـ الآخرون ؟

ـ نعم ، أين وضعتهم ؟

ارتسمت على فم العم « راتيرو » تعويجة ما بين بلهاء وماكر :

ـ أين ؟ هناك .

كانت الكلبة تعوى الى جوار « النينى » الذى حمل الكلب الصغير بين يديه وخرج من المغارة . كانت « لافا » تتقدمه وتشمشم فى المنحدر ، ومن على تخوم حقول القمح وصلت الى المرج ، رفعت رأسها للريح ثم توجهت ، دون تردد ، الى النهر فى خط مستقيم .

وهناك جثمت على الأرض مطأطئة الرأس فى استسلام . عثر « النينى » على ست الجثث بين نباتات البوط ، وهناك فى نفس المكان حفر حفرة عميقة وأهال عليها التراب . بعد أن انتهى وضع صليبا خشبيا على كومة التراب بينما كانت الكلبة مكومة الى جواره وتنظر اليه بعينها الوحيدة شاكرة .

غالبا ما تهاجر طيور اللقلاق فى مواعيد غير منتظمة . ومع هـذا لا يعجز « النينى » عن التنبؤ بموعد عودتهـا كل عام · فى المنطقة يسود اعتقاد قديم مفاده أن طيور اللقلاق بشير بقدوم الربيع ، بالرغم من أن « سان بلاس » ، وهـو التاريخ الذى تحضر فيه عادة ، يكاد يقع فى منتصف فصل الشتاء القاسى · اعتاد العجوز ترديد : « فى قشتالة ، كمـا هو معروف ، الشتاء تسعة أشـهر والجحيم (١) ثلاثة » · ونادرا ما كان يشذ عام عن تلك القاعدة ·

كان « النينى » يعرف أن طيـور اللقلاق التى تعشش فى البرج هى بعينها الطيور التى هاجرت من قبل ، لانه قد زودها ذات مرة بأطواق معدنية وفى العـام التالى أتت فى موعدها وكانت الأطواق تلمع فى ضوء الشمس على قمة برج الكنيسـة كما لو كانت من ذهب · اعتاد « النينى » ، بعـد ذلك ، الصعود الى برج الأجراس كل ربيع ، بمناسبة عيـد الفصح ، ومن أعلى البرج ، تحت عصيات العش . كان يتأمل متبهرا منظر الأرض · فى مثل هذا التاريخ ، تنهض القرية من العدم ، وتكتسب أرضها مظهرا خادعا للخصوبة · كانت الغلال تشكل بساطا أخضر يذوب فى اللانهائية التى تحدها سلسلة الروابى بأعرافها التى يخفف من كآبتها اللون الأخضر الكابى لنبات السعتر، والأزرق الفاتح للخزامى والبنفسجى الداكن لنبات المريمية · ومع ذلك ، لا تزال القمم العاليـة

---

(١) الجحيم : المقصود به فصل الصيف ، ولقد استخدمت هذه الكلمة بدلا منه (فى القول المأثور) للدلالة على قسوته وشدة حرارته بالنسبة لشهور الشتاء الباردة (المترجم)

مطوقة بالثلج الذى تنعكس عليه قزحيات الجص الكريستالى المتقلب للمنحدر والسلوك الخانع لقطيع «الرابينو جراندى» وهو يرعى أطراف النباتات والحشائش القصيرة بين الفجوات والحصى ·

تحت بـرج الاجـراس تتمدد القـرية المطوقة بالنهر وطريق المحافظة ومخزن التبن العمـومي وحظائـر « دون أنتيرو » · يتراقص على صفحة النهر خيال أشـجار الصنوبر التلات المخضرة الرؤوس · وعلى الجانب الآخر من النهر ، كان « النينى » يلمح مغارته ، صغيرة على البعد ، وكأنهـا جحر جندب (٢) ، وبالقرب منها أنقاض مغـارة أجـداده ومغارة « سجراريو » ، الغجـرية ، ومغـارة « المامس » ، الأخرس · وهناك خلفها يرتفع جبل أشجار البلوط العمومى الذى تطير فوقه الصقور والطيور الجارحة بحثا عن الطعام ·

يبدو المشهد وكأنه بعث عجيب ، ومع وصـول « سـان أجوستين » ، يورف النهر بنباتات متشابكة ، وتكتسى تخومه بشقائق النعمان والأقحوانات ، وتتجمع روائح البنفسج على شكل عناقيد فوق الخنادق الرطبة وتطعن الجنادب صـمت المنطقة بهياج عنيد ·

ومع ذلك ، فقـد ظل المنـاخ عبوسـا هـذا العام فى « سانتا ماريا كليوفى » برغم أن مفكرة حساب الأيام تشير الى بقاء أسبوعين فقط على بداية الربيع الرسمية ·

كانت السحب العالية ، القاتمـة بعض الشىء ، تشـق عباب السماء مسرعة ، لكن رياح الشمال لم تهـدأ وتبخرت الآمال فى نزول المطـر · بجـوار النهر ، فى قطـع الأرض الصغيرة التى تصل اليها المياه ، زرع رجال القرية السـلق والخرشوف والبازلاء القصيرة · حصد آخرون غلال الأراضى

(٢) الجندب . نوع من الجراد ــ (المترجم) ·

العالية كعلف أخضر للحيوانات ويدروا القمح قصير الدورة . حملت الأفراس وبلبن الماعز والنعاج صنع الجبن لسوق « توريثيو ريجو » . كما يعرض الأهالى خلايا النحل الجديدة للنسمات لكى يتفادوا تجمع النحل السابق لأوانه . لم يجد « النينى » الوقت الكافى لتلبية طلبات أهل القرية :

ــ « نينى » ، أريد إقامة خلايا نحل جديدة . ان لم أحصد قمحا أجمع ــ على الأقل ــ عسلا .

ــ « نينى » ، أصحيح أننى لو قمت بهدم خلايا الملكات سيهرب النحل ؟ وبحق الشياطين كيف أهتدى لمعرفة خلايا الملكات ؟

ويلبى « النينى » طلبات هؤلاء وأولئك بدماثته المعروفة .

انقشعت السحب فى « سان لمبرتو » ، وعلت السماء وفوق حقول الغلال بدأت تتشكل حلقات بيضاء . دق « البرودن » ناقوس الخطر ذات مساء فى الحانة :

ــ لقد وصلت الطفيليات ! لن تفلح معها أية وسيلة .

أجابه الصمت . منذ أسبوعين لا يسمع فى القرية سوى نعيب اللقلاق أعلى البرج ، والثغاء الحزين للخراف الوليدة خلف أسوار الحظائر . كان الرجال والنساء يمشون فى شوارع القرية المتسخة يجرجرون أقدامهم فى التراب ، النظرات غائمة ، وكأنهم ينتظرون مصيبة . كانوا يعرفون جيدا معنى الطفيليات لكى لا يهدأ لهم بال . ففى عام الجوع أتت على كل المزروعات ، وبعده بعامين لم تحترم سنبلة واحدة ، عندما يسمع رجال القرية هذا الاسم يعقفون أصابعهم آليا على شكل صليب كما لو كانوا يرون « دون ثيرو » وهو يصلى باللاتينية من فوق منبر الكنيسة على ميت . تهدد الطفيليات وتتوعد فى شهر أبريل من كل عام . ومن مقولات العم « روفو » : « لو لم يكن أبريل ما مر عام سيىء » . ولذلك ، فان رجال القرية يبغضون من أعماقهم هذا الشهر الجامح

المتقلب · في «سان فيديل سيجمارينجا» ، ونظرا لطول فترة الجفاف ، اقترحت « دونياريسو » اخراج تمثال القديس للتوسل بنزول المطر ، لكن « دون ثيرو » ، قسيس « توريثيو ريجو » ، بشبابه وتواضعه الزائدين ، وخجله المتردد، لم يكن في نظر رجال القرية آهلا لهذه المهمة الخطيرة · فيحكى عن « دون ثيرو » انه في نفس اليوم الذى قتل فيه « اليايو » ، حداد « توريثيو ريجو » ، أمه ضربا بالعصا وبعد أن دفنها تحت كومة من الروث ذهب اليه ليعترف ، فما كان من « دون ثيرو » الا أن عفا عنه وقال له متلطفا : « صل يابني ، ثلاث مرات بكثير من الخشوع ، ولا تفعل هذا ثانية » !! ·

ومن هنا كان الحنين لـ « دون ثوسيمو » ، القس الكبير، يزداد بمضي الوقت · كان « دون ثوسيمو » ، القس القديم ، يرتفع عن الأرض مترين ونصف المتر ويزن ١٢٥ كيلوجراما، كان رجلا بشوشا لا يتوقف أبدا عن النماء · كانت أم « النيني » ، « لا مارثيلا » ، تخوفه به : « اذا لم تصمت ، سأحملك الى القس الكبير ، لتراه وهو يشخر » · وعندئذ كان « النيني » يسكت لأنه يخاف هذا الرجل الضخم ، المتشح بالسواد ، ذا الصوت الرعدى · وفي صلوات الاستسقاء كان القس الكبير يبدو وكأنه لا يتوسل بل يأمر : « الهنا ، أمدنا بالمطر النافع واجعل التيارات السماوية تجرى على سطح الأرض العطشى » وكأنه يتوجه لنظير له في حديث ودى · كانت القمم العالية تبدو وكأنها ترتجف متأثرة بصوته الرعدى ·

وعلى خلاف هذا ، كان « دون ثيرو » يجثو على ركبتيه في التراب ، أمام الصليب الحجرى ، ويقول مطأطيء الرأس ورافعا ذراعية النحيلتين : « الهى ، نسألك رفع مقتك وغضبك عنا بحق هذه القرابين التى نقدمها لك ، وأغثنا بالمطر العميم » · وكان صوته يخرج ضعيفا مثل ذراعيه

ويجتاح سكان القرية شعور بعدم الثقة فى أن يجد مثل هذا الكلب الباهت استجابة من السماء ٠

ومثل ما تقدم كان يحدث فى الخطب المنبرية ٠ ففى كل مرة يصعد فيها « دون ثوسيمو » منبر الكنيسة يحدثهم عن عواقب الزنا وعن نار جهنم ٠ كان يلقى الخطبة بصوت ات من الأعماق ، وبعد انتهاء الموعظة الأخيرة يخرج الرجال والنساء من الكنيسة وهم يتصببون عرقا، وكأنهم قد شاركوا الكافرين عذاب الجحيم لعدة أيام ٠

وعلى خلاف هذا ، كان « دون ثيرو » يتحدث ، بصوت عذب وبحنان بالغ ، عن الرب الرحيم والقريب ، وعن العدالة الاجتماعية وعدالة توزيع الثروات ، لكن رجال القرية ونساءها لم يكونوا يفهمون شيئا من ذلك واذا كانوا يتقبلون هذا النوع من الخطب ، فقد كان فقط لأن « دون آنتيرو » وابنه الأكبر ، « المامل » ، عند خروجهما من الكنيسة ، فى فصل الصيف ، يتملكهما الغضب من « دون ثيرو » الذى يتحدث فى السياسة ويدس أنفه فيما لا يعنيه ٠

وبرغم هذا الفارق ، فقد كانت القرية تذهب عن بكرة أبيها لصلوات الاستسقاء خلف « دون ثيرو » ٠ قبل أن يشق الفجر طريقه ، وعندما يرسل ديك « الأنتوليانو » الأبيض بصياحه المتقطع من خلف أسوار الحظيرة ، يتكون صفان بدائيان أسودان ويقتفيان بخنوع خطوط المسارب التى لم تتضح بعد ٠ وخطوة خطوة يرددون تسبيحات صلاة الفجر وعندما يصلون الى احدى المعجزات التى تشتمل عليها التسبيحات يصمتون ، فيتناهى الى مسامعهم حينئذ الصوت العذب لجلاجل نعاج « الرابينو جراندى » من على سفح الجبل ٠ وعندها ينشد سكان القرية بصوت نشاز ، لكنه موجع : « المغفرة ، يا ربنا » ٠ وهكذا حتى يصلوا الى صليب الرابية الحجرى وأمامه يجثو « دون ثيرو » متواضعا ويقول : « الهى ، نسألك رفع مقتك وغضبك عنا بحق هذه القرابين

التى نقدمها لك ، واغثنا بالمطر العميم » . وهكذا ، يوم بعد آخر .

انتهت صلوات الاستسقاء فى « سان ثيليتتينو » . ظلت السماء صافيه ، كل يوم فى زرقة اشد من سابقتها . وبالرغم من هذا ، فقد لاحظ « النينى » ، عند غروب الشمس ، ان دخان المغارة بعد خروجه من المدخنة يهبط ويزحف على منحدر القمة مثل الأفعى . ودون أن يفكر مرتين استدار وهبط المنحدر عدوا ، وذراعاه مرفوعتان وكأنه يحاول الطيران . وهو على القنطرة بالقرب من النهر لمح « البرودن» مقوسا على الأرض :

ـ برودن ! ـ صاح هائجا بينما كان يشير باصبعه تجاه المدخنة ـ : دخان على الأرض ، ماء فى السماء ، ستمطر غدا .

رفع « البرودن » وجهه المبلل بالعرق ونظر اليه مشوشا وكأنه ينظر لشبح ، غرس الفأس فى الأرض بسرعة ، ودون أن يرد بكلمة جرى كالمجنون فى شوارع القرية ملوحا بيديه فى الهواء وصائحا كالمعتوه :

ـ ستمطر ! هذا ما قاله « النينى » ! ستمطر !

ترك الرجال ما بأيديهم وابتسموا من الأعماق وأطلت النساء من النوافذ الضيقة وهن يهمهمن : « من (بقك) لباب السماء » ، وأصابت العدوى الأطفال والكلاب فجروا خلف « البرودن » وهم يصيحون : « ستمطر ! ستمطر غدا ! هذا ما قاله « النينى » » .

فى تلك الليلة جرى النبيذ فى الحانة كالنهر . كان السرور يعتلى الرجال حتى « المامس » ، الأخرس ، أصر على التعبير عن نشوته بوضع أصابعه فوق فمه فى حركات منفعلة . لكن لغط أهل القرية لم يسمح لهم بترجمة حركاته مما اضطر « المامس » الى الاكثار من الايماءات حتى قال له « الأنتولياتو » : « يا أخرس ، لا ترفع صوتك هكذا ، فلست

أصم » • وضحك الجميع ، ثم شرع « اثيرخيلين » في غناء « ابنة خوان سيمون » فسكت الكل ، لكن « البرودن » وكز بكوعه « الخوسيه لويس » وتمتم : « ايه ، أنت ، انه يعنى الليلة مثل الملائكة » •

في اليوم التالى ، ظهرت سحابة كبيرة زرقاء رصاصية فوق ربوة « دونالتيو » ثم انزلقت تدريجيـــا في الاتجـاه الجنوبى الشرقى •

أمعن «النينى» النظر اليهما بمجرد أن نهض من فراشه • اتجه نحو « الراتيرو » وقال له :

ـ ها هو المطر •

ومع المطر نشطت الريح من عقالها ، وفي المساء ، كانت الريح تعوى بكآبة وهى تضرب القمم العالية • فتح هـدير الرياح في عقل الصبى بابا للتخيلات • تخيل أموات المقابر، يتقدمهم الجد « رومان » والجدة « الوميندادا » ، والحجلان والثعالب والطيور التى قتلها « ماتياس ثليمين » ، المختلس ، وهم يتوافدون زمرا على القرية للمطالبة بتصفية الحساب •

لكن الريح اقتصرت ، هذه المرة ، عـلى توزيع السحابة الكبيرة على المنطقة ثم خمدت • أما الرجال ، الجالسون عـلى عتبات بيوتهم ، فقد تركوا أنفسهم عرضة للمطر بينما كانوا يفركون أيديهم الخشنة ببعضها ويقولون ناظرين الى السماء بعيون مطبقة :

ـ ها هو المطر • لم يخلف موعده هذا العام •

صبيحة اليوم الرابع أيقظ الصمت « النينى » • أطل الصبى من فم المغارة فوجد السحابة قد انقشـعت وشـعاع

الشمس الخجول ينثر خصلاته الطويلة البيضاء ليرسم قوس قزح مضيئا بين قمتى « دوناليو » و « كلورادو » • وصلت الى الصبى الرائحة الرخوة للأرض السكرى وسرعان ما أحس بغناء المناديب ، هنــاك تحت ، بين أشــجار الصــفصاف وعندئذ أدرك أن الربيع قد أتى •

منذ « سان جريجوريو » تحــول صــوت الجنــادب فوق المنطقة الى هدير حقيقي · كان صراخا كثيفا وعنيدا ينبع فوق الأرض المزروعة ، وعلى مجرى النهر الضامر ، واكواخ الطين والقش البائسة والقمم الكئيبة التى تزين الأفق . نوعا من الذبذبة العصبية التى تضيق ، ساعة الشفق ، فى موجات متنامية كمد البحر لكى تخف حدتهــا فى الســاعات الوسطى من الليــل أو النهــار · عــلى أية حال ، كان صوت الجنادب له جرم وكثافة يتسربان الى كل الفجوات ويشــكل خلفية صاخبة لسائر الأنشطة ، لكن رجال القرية ونساءها لم يكونوا يلتفتون اليه ، فقد كان شيئا ، مثل الهواء ، يتمتع بايقاعه الحيوى الخــاص دون أن يحســوا به · فقط كانت « لاكولومبا » ، امرأة « الخوستيتو » ، تتجه أحيانا الى زوجها، ويداها مفتوحتان ومتقلصتان فوق صدرها وهى تولول :

ــ هذه الجنادب ، « خوستو » · هذه الجنادب تطبق على أنفاسى ·

فيما عدا ذلك ، كان ظهــور الجنــادب يعنى بالنســبه للقرية بداية فترة ترقب طويلة · فالمزروعات بعــد تنقيــة الحشائش الضارة منها ، تلمع بالخضرة من على البعد وكأنها أمل قريب المنال ولا يكاد الرجال يرفعون أعينهم عن السماء . مصدر الماء والجفاف ، الصقيع والطفيليات ، وعليها وحدها يتوقف امتلاء السنابل وامكانية الحصاد ·

مع ظهور الجنادب اعتادت «لاكولومبا» أن تطلب «النينى»، لكى يعزل الدجاجة ويعهد بالكتاكيت الى الديك المخصى· لم

تدن تدفع له عادة قيمة خدماته لأنها تعتقد ان النقود تفسد الصبيان ، ومن ثم كانت تكتفي بتقديم قطعة شيكولاته وكسرة خبز له ، وبعدها تتحدث معه من مسافة ، بجانب حافة البئر ، وعندما يمشى الصبى يجتاحها احساس بالاضطراب ، مثل حكة غير محددة تنتشر فى كل جسدها • كان يحدث لها نفس الشيء عندما يقترب منها أحد أفراد القرية • ولهذا السبب انتهى بها المطاف لعدم مخالطة أحد • في الحقيقة ، كانت « لاكولومبا » تحن لطفولتها في احدى ضواحى المدينة ولم تتأقلم مع هدوء القرية ولا مع ترابها وقذارتها أو الحياة البدائية فيها • كانت « لاكولومبا » تشترط ، كحد أدنى للعيش ، وجود الماء الجارى وشوارع مسفلتة وسينما ومرقص لقضاء أوقات الفراغ • كانت لا تمل من (الزن) على « الخوستيتو » ، زوجها :

ـ « خوستو » ، عندما أنهض من السرير ، تتملكنى الرغبة فى التقيؤ من فرط الاحساس بخواء العالم حولى •

فيرد « الخوستيتو » مغتما :

ـ والى أين نذهب ونحن على هذا الحال ؟

فتبيض عينا « لاكولومبا » :

ـ الى الجحيم ! لأى مكان ! ألم يذهب « الكينثيانو » ؟

ـ يا له من نموذج ! « الكينثيانو » ذهب حمالا الى « بلباو » ليموت جوعا هناك •

ـ الموت جوعا فى « بلباو » أيسر من الموت كمدا فى هذه الصحراء •

تعتبر « لاكولومبا » القرية صحراء ، ولم يكن يغير من وجهة نظرها تلك وصول الهداهد ولا القبرات وطيور الخطاف• ولم يكن يغيرها كذلك وصول الحجلان ، واليعاسيب ، والعقاعق الزرقاء ، أو الحمائم المطوقة وهى تطير فى أسرابه

منتظمة على ارتفاع الفى متر . ولم تكن تغيرها الاصــوات المحمومة لصقور الليل ، ولا السيمفونية الرتيبة للجنــادب فوق المزروعات أو نماق البوم الجاف .

لم تكن « لاكولومبا » تتجــانس مع « النينى » . فهى تعتبره نتاجا لتلك الارض البائسة وتنظر اليــه باحتقــار وازدراء كل مرة تقابله . ومن هنا فلم تكن تلجأ اليه الا فى حالات الضرورة القصوى مثل قطف عسل خلايا النحل ، او خصى الخنزير ، أو عزل الدجاجة وحجز الديك المخصى مــع الكتاكيت . وفى مقابل هذا تحمل « الخوستيتو » مســئولية وحدتها وخذلانها :

ــ و « لونخينوس » ، تكلم ؟ ألم يترك القرية ؟ هل كان يوجد من هو أبأس منه في المنطقة كلها ؟

ــ هذا شيء مختلف . لقد ذهب مع أخته الى «ليون» . الى مكان مضمون وجاهز .

ــ الكل لديه أسبابه ودوافعه ما عدانا نحن .

ومع هذا ، ففى كل مرة يحدثه فيها « فيتوسولورثانو » الرئيس ، عن موضوع المغارات الا ويلوح للعمدة بصيص من أمل :

ــ لو يساعدنى الرئيس . . . ــ كان يقول ــ . لكن قبل هذا يجب الانتهاء من مشكلة المغارات .

وعندئذ تهيج « لاكولومبا » :

ــ سآكل أنا من الأحلام .

ــ أنت ، أنت . . . أنت تصــلحين كل شيء بالــكلام ماذا تفعلين لو كنت مكانى ؟

ــ أضع أصابع الديناميت وأشعلها . وسترى رشــاقة « الراتيرو » وهو يجرى .

ـ واذا لم يجر ؟

ـ كلب ومات •

كان « الخوستيتو » قد التقى منذ يومين فى الميدان بالسيدة « كلو » ، صاحبة دكان الخردوات ، فنادته على جانب :

ـ « خوستو » • أصحيح أنكم تريدون طرد « الراتيرو » من مغارته ؟

ـ هذا ما نريده • ستسقط فوقه ذات يوم وعندئذ يحدث مالا تحمد عقباه •

ـ أصلحها له ، هذا أسهل بكثير •

احمرت ناصية « الخوستيتو » :

ـ فى الحقيقة ، ليست هذه هى القضية ، يا سيدة « كلو » • الأمر يتعلق ، صراحة ، بالسياح ، تعرفين ؟ فلو جاء السياح هنا وشاهدوها ، فسيظنون أننا نعيش فى مغارات ، أليس كذلك ؟

ـ السياح ، السياح ••• دعهم يقولوا ما يشاءون ! ألا يمضون هنا وهناك كاشفين عن سيقانهم دون أن يقول لهم أحد شيئا ؟

واذا كان ما مضى لا يكفى ، فذات يوم أحاط « الخوسيه لويس » « الخوستيتو » علما باستحالة اخلاء مغارة «الراتيرو» عنوة • لقد اكتشف الخوسيه لويس ، بعد حديث طويل مع قاضى « توريثيوريجو » ، أن « الراتيرو » ، دون أن يدفع مليما واحدا ، يعتبر المالك الحقيقى للمغارة •

ـ المالك ؟ ـ سأل « الخوستيتو » متحيرا ـ • هل دفع لأحد فيها نصف بيزيتة ؟

رد « الخوسيه لويس » بثقة العالم ببواطن الأمور :

ـ نقود ! القانون لا يأخذ في الاعتبار المال وحده · بل عامل الوقت أيضا ·

ـ الوقت ؟

ـ نعم · لو وضعت يدك ذات يوم على شيء ما ، تصبح مالكا له بمجرد مرور الوقت ·

هذا كل ما في الأمر ·

قطب « الخوستيتو » جبينه وخفقت ناصيته وكأنها شيء يتحرك :

ـ حتى لو كنت سارقا لهذا الشيء ؟

ـ حتى لو كنت سارقا له ·

ـ لقد وقعنا ، اذن ، في حيص بيص ـ رد « الخوستيتو » حزيناً ·

منـذ مسـألة المغـارة ، بدأت « لاكولومبا » تنظر الى « النيني » بغضب وكأنه عدوها اللدود · وبرغم هذا ، يبدو أن الصبي كان يجهل شعورها نحوه ، ومن ثم فلم يدر بخلده أبدا أن يأتي يوم يتخذ فيه قرارا خطيرا مثـل سكب صفيحة بنزين في بئر « الخوستيتو » ، لكن الرياح تأتي بمالا تشتهي السفن ·

في « سان بيرناردينو » ، أرسلت « لاكولومبا » في طلب « النيني » ، كما هي العادة كل عام ، لعزل الدجاجة · حضر الصبي دون ابطاء ، نتف صدر الديك المخصي ثم وضعه في الصندوق فوق الكتاكيت القلقة لتهدئتها · كانت الدجاجة ترمقه ببلادة وهو يفعل هذا من وراء قضبان القفص . وكأن الأمر لا يعنيها · وهكذا فبمجرد أن انتهى الصبي ، وبدلا من أن تقـدم له « لاكولومبا » الخبز والشـيكولاته ، كالعادة ،

ظلت تنظر اليه بنفس بلادة الدجاجة • كانت « لاكولومبا » تقول أحيانا أن وجه « النينى » بارد مثل وجوه الموتى حتى فى أشد أيام القيظ • و « المالبينو » من جانبه كان يوضح بان هذا يحدث لكل من يفكرون كثيرا ، لأن المخ عندما يعمل تغلى الرأس ويبرد الوجه ، فالسعرات الحرارية موزعة بالقسطاس على جميع أعضاء الجسم واذا تجمعت فى عضو لزم خلو عضو آخر منها • واذا حدث وكان «الرابينو جراندى» حاضرا ، فانه يعضد وجهه نظر صاحب الحانة ويتذكر الوجه البارد لـ « دون أوستاسيو دى لابيدرا » عندما كان يتحسس الفقرتين الزائدتين لأبيه • لكن « النينى » الآن وأمام نظرة « لاكولومبا » المتبلدة لم يسعفه لسانه الا عن :

ــ حسنا ، كل شيء جاهز •

عندئذ بدا وكأنها استيقظت من غفوتها ، وضعت يدها على كتف الصبى وقالت :

ــ « نينى » ، لماذا لا تتركون المغارة ؟

ــ لا ــ رد الصبى بجفاء •

ــ لا تريدون تركها أو لا يمكن معرفة السبب ؟

ــ الأمران معا •

ــ الأمران معا ، الأمران معا ! ــ جذبته من طوقه وعلت نغمة صوتها الحانق تدريجيا ــ : ذات يوم سيقرض الروماتيزم عظامك ، لأنك تعيش تحت الأرض ووقتها لن تستطيع فتح فمك ولا تحريك قدمك •

لم يهتز « النينى » ، ورد بثقة :

ــ الأرانب تعيش أيضا تحت الأرض ولا يأكل الروماتيزم عظامها •

فقدت « لاكولومبا » أعصابها • رفعت يدها وهوت بها على وجه الصبى لتترك عليه أثر لطمتين مهيبتين • وبعدهما

رفعت يديها الى خديها ، وكأنها المهــانة ، وشرعت فى بكاء متشنج • فى نفس تلك الليلة سرق « النينى » صفيحة بنزين من جراج « دون أنترو » وأفرغها فى بئر « الخوستيتو » • فى الصباح ، شربت « لاكولومبا » ، كالعادة ، كوبا من الماء على الريق ، ثم تمطقت :

ــ هذا الماء له طعم ــ قالت •

ــ (يا فتاح يا عليم) ــ رد « الخوستيتو » :

ــ أقول لك ان الماء له طعم ــ أصرت « لاكولومبا » •

كانت أصابع « الخوســتيتو » ترتعش بوضــوح عندما قرب أنفه من الاناء :

ــ تعرفين أن معك حقا ؟ هــذا الماء تفوح منــه رائحة البنزين •

أشعل عود ثقاب فاضرمت النار فى السائل وعندها بدأ « الخوستيتو » فى ضرب صــدره بقبضتيــه والضــحك ملء شدقيه • بدا عليه الجنون عندما أخذ الدراجة وقال لامرأته بحركات منفعلة :

ــ الزمى الصمت ، أتسمعين ؟ يوجــد بترول هنــا • سأبلغ الرئيس • هذا أكثر أهمية من موضــوع المغــارات • لكن قبل أن يأتى الرئيس ، ولا كلمة ، أسمعت ؟

فى المساء حضر الرئيس فى عربته الصغيرة •

لم تكن الشمس قد اختفت بعد ولا يزال صوت الكروان الحاد يسمع من على سفح قمة « ميرينو » وصــياح الجنادب المحموم بالقرب من سطح الأرض •

جرب « الخوستيتو » بيديه مرتعشتين ، وعندما شاهد الرئيس اشتعال الماء فى الاناء أحس بموجة باردة تجتاحه ، وتحدث أثرا عكسيا فى صلعته التى كانت تتصبب عرقا •

ــ حسنا ، حسنا ٠٠ ــ قال اخيرا فى حركة عصبية متواطئة ــ ٠ يجب احضار فني للمعاينة يمكن ان يكون هذا اكتشافا عظيما ٠ حتى أنا لا يمكننى التكهن بالنتائج ٠ سأعود غدا ٠ مزيد من الحيطة حتى أعود ٠

بعد أن هبط الليل ، تجمهر سكان القرية أمام بيت « الخوستيتو » ٠ تحدث « روسالينو » ، الوكيل ، قائلا بان لديهم علما بزيارة المحافظ التنكرية لأن « الانتوليانو » و « الرابينو تشيكو » قد شاهدا السيارة وبأن شيئا مهما لابد وأن يكون قد حدث بالقرية ٠ ومن ثم فيجب على « الخوستيتو » ، بصفته عمدتهم ، كشف النقاب عن الحقيقة ٠

بعد هذه الخطبة العصماء هبط من الروابى الصخب المحموم للجنادب وكأنه رائحة خانقة غمرت كل شيء ، تردد « الخوستيتو » ثم قال أخيرا :.

ــ لا شيء ، لم يحدث شيء ٠

لكن السيدة « ليبرادا » ، أم « لاسابينا » ، زوجة « البرودن » ، زعقت بصوتها الجهورى :

ــ هيا ، « خوستو » ، لا تجعلنا نستعطفك ٠

وقالت « دومينيكا » ، امرأة « الأنتوليانو » :

ــ هذا عيب كبير ، « خوستو » ٠

فالتفت اليها « خوستو » :

ــ ما العيب فى هذا ، يا « دومينيكا » ؟

فقالت :

ــ أن تجعلنا نستعطفك ٠

عندئذ رفع « الخوستيتو » يده فى ايماءة مصالحة ثم قال : « حسنا » ٠ وفى رصانة مفتعلة وصل الى البئر ، ملأ

سطلا صغيرا وأشعل فيه النار • تصاعدت ألسنة اللهب الحلزونية نحو السماء المظلمة فأخرج « الخوستيتو » من أعماق صدره صوتا مهيبا يليق بمنصب العمودية :

ــ أعزائى ! تعوم المنطقة من ربوة « دونالثيو » الى حلمة « توريثيو ريجو » على بحر من البترول • هذا ما اكده الرئيس •• غدا سنصبح أغنياء • لا أطلب منكم الآن سوى : الهدوء والتعقل •

وضعت صيحات الحماس ختاما لكلماته • تعانق الرجال بحرارة وتبعتهم النساء ، طارت القبعات المتسخة فى الهواء وتجرد «البرودن» من سترته الداكنة المتآكلة وظل يثب فوقها كالمجنون • من حين لآخر كان يبتعد عن السترة ويقول : « ضعى قدمك عليها ، يا « دومينيكا » • الثروة تحتها وعلينا التقاطها » • وتوجه « المامس » ، الأخرس ، واللعاب يسيل من فيه ، نحو العمدة وكأنه ذاهب لالقاء خطبة لكنه لم يزد عن : « خى » مصحوبة بزبد أصفر يتطاير من شدقيه • ثم عاد وكرر : « خى » • وعندئذ صاحت « لاسابينا » كمن فقدت رشدها : « لقد تكلم الأخرس ! لقد تكلم الأخرس ! » •

وعقبت السيدة « ليبرادا » ، السوداء المتغضنة مثل حبة زبيب : « انها لمعجزة • لقد تكلم الأخرس » • وصاح «آلبيرخيليو» ، الجالس فوق كتفى «المالبينو» : «الصواريخ، يا « فروتس ! » • وفى لمح البصر ، عاد « الفروتس » ، المحلف ، من مبنى البلدية وأخذت الصواريخ تهتك أستار السماء بذيول مضيئة لتتمخض فى الأعالى عن انفجار قصير مكتوم • تقدمت السيدة « كلو » ناحية « لاسابينا » متعثرة ، وهى تشق لنفسها طريقا بين الجموع ، لكنها عند رؤية « آلبيرخيليو » على كتفى « المالبينو » صاحت فيه : « انزل • ستسقط على الأرض » •

سألت بعد ذلك « لاسابينا » : «أصحيح تكلم الأخرس؟»• ردت « لاسابينا » : « قال (عفارم) ، سمعه الجميع » •

وعندئذ أشارت السيدة « ريو » ، التي كانت تقف خلفها ، بعلامة الصليب على صدرها · لم يكن بعيدا عن هذه الجلبة سوى « الجوادالوبى » ورجاله الذين انتحوا ركنا قصيا مطأطئى الرؤوس · وأخيرا ، شق الخولى لنفسه طريقا ، بدفعات من يده ، حتى وقف فى مواجهة « الخوستيتو » · سأله بصوت مختنق :

ــ ونحن يا « خوستو » ؟ ما الذى سنجنيه من وراء هذا ؟

تهلل وجه العمدة :

ــ سيكون لكم نصيب ، بالطبع · البترول هنا يكفى الجميع · ستحضرون نساءكم وأولادكم وتعيشون معنا · فى تلك الليلة لم ينم أحد فى القرية ، وفى الصباح ، بمجرد أن حضر السيد المحافظ ومعه رجلان ملغزان متجهمان فى السيارة الكبيرة ، طوقته الجموع الهائجة التى يغالبها النعاس· لكن « الخوستيتو » عندما أشعل عود الثقاب وقربه من السائل فانطفأ العود ، سرت حوله همهمة بفقدان الأمل وخيبة الرجاء · أصبح وجه « الخوستيتو » شاحبا ، لكنه أعاد الكرة ثلاث مرات متتالية دون نتيجة ، الى أن دعاه المحافظ ، أخيرا ، الى دخول البيت بصحبة الخبيرين ، وعندما خرجوا أحاطت بهم الجموع مترقبة ، فتسلق المحافظ ، الذى كان يتوارى خلفه « الخوستيتو » ، حافة البئر وقال بصوت مفخم :

ــ أيها الفلاحون : لقد كنتم هدفا لدعاية سخيفة · لا يوجد بترول هنا · لكن لا يجب أن يفل هذا من عزيمتكم ، فالبترول عندكم فى أرضكم المحروثة الخصبة وفى أسنة محاريثكم · استمروا فى العمل ، وبمجهودكم سترقى حياتكم وستساهمون فى عظمة وطنكم · فلينهض الريف ويتقدم !

لم يصفق أحد · عندما هبط المحافظ من على حافة البئر أخرج منديلا أبيض ومسح به صلعته اللامعة ، ربت على كتف « الخوستيتو » وهمهم : « آسف » · ثم رفع صوته وقال :

« حقا ، اننى لفى غاية الأسف » • اتجه بعد ذلك الى الرجلين المهيبين الملغزين وأشار الى السيارة : « تفضلا » • فتح لهم السائق ، بحلته الرسمية ، الباب واختفت العربة الكبيرة فى الطريق وخلفها سحابة من التراب •

عندما تجاوز العم « راتيرو » نهاية الظل اطبق جفنيه من شعاع الشمس الوليدة · يبدو وهو داخل المغارة ، وفى مقابلة الضوء ، أكثر قصرا وضخامة من حجمه الحقيقى ، كما أن وقوفه بلا حراك وعليه قبعته التى تصل الى الاذنين جعله أشبه بتمثال· كانت ذراعاه متهدلتين على طول جسمه ، حيث تصل يداه وأصابعه المتساوية ، وكأنها سويت بمقصلة ، الى ركبتيه · بعد بضع ثوان ، فتح الرجل عينيه وألقى بنظرة على حقول الغلال المضرمة بشقائق النعمان · يتحول صوت الجنادب فى مثل هذه الساعة الى ايقاع قوى وكأنه طاقة كهربائية تسرى فى الأسلاك لأول مرة · ارتفعت عينا « الراتيرو » شيئا فشيئا حتى وقعتا على القمم العالية التى تشبه قواعد السفن المعرضة لضوء الشمس ، ثم انزلقتا ، أخيرا ، على السفوح الجرداء وتوقفتا على قنطرة الألواح الخشبية التى تربط المغارة بالقرية :

ـ حانت ساعة الهبوط ـ قال بهمهمة لا تكاد تسمع ·

تقدم « النينى » اليه ، يتبعه الكلبان ، ووقف الى جواره · مازال على عينيه آثر النوم ، لكنه داعب بابهام قدمه اليمنى فى حركة آلية شعر الكلبة العوراء التى كانت تقبع الى جواره راضية ، بينما كان «لوى» ، الكلب الصغير، يجرى كالملتاث حوله ·

ـ بهذه الطريقة سنقضى على الصغار فى الأعشاش وسيزداد الأمر سوءا ـ نبه الصبى · نفض الرجل على التوالى فتحتى أنفه من المخاط ثم مرر عليهما ظهر يده ، وقال :

ــ لابد وأن نقتات بشيء ٠

منــذ أن بدأت الجرذان تتناقص ازداد صــمت العــم « راتيرو » ٠ كانت قبعته المتسخة التى تصل الى اذنيه تحدد شكل جمجمته وكثيرا ما تساءل الصبى عما يختمر بداخلها ٠ فى مثل هذا التاريخ منذ أعوام كان « الراتيرو » يدخر بما فيه الكفاية لانقاذ فصــل الصيف ، لكن الموســم الأخير كان سيئا والآن ، اقترب موعد الخطر ، والجوع ينتصب أمامهما كشبح أسود ٠

ــ فى « سان بيتو » يتم التصريح بصيد سرطان الماء ٠ ربما يكون هذا العام كثير الخيرات ــ الح الصبى ٠

أرسل «الراتيرو » زفرة عميقة ولم يقل شيئا ٠ ارتفعت حدقتاه من جديد وتسمرت عــلى القمم الرمادية التى تغطى الأفق ٠ أضاف « النينى » :

ــ فى الصيف نصعد الى الجبل لقطع لحاء أشجار البلوط، التى يشتريها « المارثيلينو » ، الدباغ ، بثمن لا بأس به ٠ من الأفضل الانتظار ٠

لم يرد « الراتيرو » ٠ صفر تصفيرة خافتة فلبى الكلب الصغير النداء ٠ حينئذ جلس « الراتيرو » القرفصاء وقال مبتسما : « انه يرى جيــدا » ، ثم شرع فى مداعبتــه فهمهم الكلب بغضب مصطنع وأخذ يلثم يديه الخشنتين ٠

كانت أيام الفراغ طويلة ، وتعود «الراتيرو» أن يشغلها بتنظيف المغارة أو بتدريب الكلب الصغير بالقرب من النهر او بتبادل أطراف الحــديث ، عنــد مغيب الشــمس ، عــلى مصطبة « الأنتوليانو » أو فى حانة « المالبينو » ٠ فى بعض الليالى ، وقبل أن ينصرفوا الى بيوتهم ، كانوا يذهبــون الى الاصطبل لرؤية « الرابينو تشيكو » وهــو يحلب البهائم ٠ كانوا يقولون له : « لا تتحدث اليوم اليها » ، وبعد أن ينتهى

يذكرون أنفسهم قائلين : « اليوم لم تدر الكثير من اللبن » . وفى اليوم التالى ينبهونه : « تحدث مع البقرة عند حلابتها ، ياتشيكو » . وعندئذ يشرع « الرابينو تشيكو » فى مونولوج عذب فتزيد الكمية سطلا عن البارحة فيتغامزون مؤكدين على صدق نظريته : « أرأيتم هذا ؟ شىء لا يصدقه العقل » . فى بعض الأحيان ، كان الحديث ينصب على فتى «توريشيو ريجو» الذى يصيد الجرذان ، أثناء تدخينهم بكسل فى الاصطبل أو على مصطبة « الأنتوليانو » ، فيقول الأخير : « نفضه ، يا « راتيرو » . ما فائدة يديك اذن ؟ » . عندئذ يرتجف العم « راتيرو » قليلا ويتمتم : « دع عينى تقع عليه » . فيضيف « الروسالينو » : « لو كان ابن أمى ما تركته » . واذا كانت المسامرة على الحانة ، يتجه « المالبينو » الى « الراتيرو » قائلا له :

ـ « راتيرو » ، لو دخل فقير دار غنى فهو لص ، أليس كذلك ؟

ـ بلى ، لص ـ يرد « الراتيرو » موافقا .

ـ لكن لو دخل غنى دار فقير ، فماذا يكون ؟

ـ ماذا يكون ؟ ـ ردد « الراتيرو » فى بلاهة .

ـ يكون جرذة !

أنكر « الراتيرو » بايماءة من رأسه .

ـ لا ـ رد أخيرا ـ . الجرذان ليست سيئة .

وعندئذ أوضح « المالبينو » :

ـ أردت أن أقول : ان المال ليس وحده الذى يسرق .

فتتعكر عينا « الراتيرو » كل مرة أكثر من سابقتها ويقول :

ـ كلامك فى محله .

اختتم عيد نهاية موسم الصيد فى « سانتا ايلينا » و « سان كاستو » ختاما بائسا وحزينا • أخرج : «الراتيرو » من الخرج جرذة بعد أخرى حتى وصل المجموع الى خمس :

ـ لا يوجد أكثر من هذا •

أطلق « البرودن » ضحكة كريهة :

ـ لهذه الرحلة لم تكن تحتاج الى خرج •

أدار « الراتيرو » نظرته الغائمة حوله ثم عاد ليردد :

ـ الآن لا توجد فئران • انه يسرقها منى •

تقدم « المالبينو » نحوه وقال غاضبا :

ـ فلتحمد الله على ما أنت فيه ، لأنه بعد عام لن تبقى لك واحدة حتى تقوم بعدها •

تقلصت عضلات ساعدى « الراتيرو » عندما شبك أصابعه وقال بصوت مبحوح :

ـ لو أمسكت به ، لقتلته •

فى مثل تلك الحالات ، كان « النينى » يحاول تهدئته :

ـ اذا لم يكن فيه جرذان، فستجد سرطانالماء ، لا تشغل بالك •

فلا يرد « الراتيرو » ، ومع هبوط الليل يصعد الى المغارة ويشعل القنديل ثم يجلس صامتا بالقرب من الباب • كانت الجنادب تصرخ بأعلى صوتها تحت ، فوق المزروعات ، ويدور الذباب والفراشات المسائية فى دوائر مركزية حول آلسنة الضوء ، من حين لآخر ، كانت تمر فوق رأسيهما ومضة مثل صرير الخشب الجاف ، فيرفع الصبى عينيه ويتجشأ الكلبان :

ـ انه الوطواط ـ يشرح « النينى » •

لكن « الراتيرو » لم يكن يسمعه • وفي اليوم التـالى ، يجهد الصبى نفسه ، مثل كل صباح ، لايجاد مخرج • يترك المغارة عند الفجر ويمضى النهار فى صـيد العصيات (١) ، وجمع البابونج (٢) ، أو قطف الزهور الصفراء التى تأكلها الأرانب •

فى بعض الأيام كان يصل الى قمم الجبال الاكثر وعورة بالمنطقة لجمع اللوز البرى • لكن هذا كله لم يكن يدر الا القليل • العصيات ، بالرغم من لحمها اللذيذ ، لم تكن تكفى طعامها الا بالكاد ، أما البابونج فقـد كان يشتريه صيدلى « توريثيوريجو » ، « دون كريستينو » ، الـكيلو بثـلاث بيزيتات • أما الزهور الصفراء فقد كانت تشتريها السيدة « كلو » أو « البرودن » أو « الأنتوليانو » الحزمة بربع بيزيتة حتى لا يرجعوه مكسور الخاطر • حاول « النينى » ، مرة ، زيادة عدد زبائنه ، لكن أهل القرية أظهروا شحهم •

ـ الحزمة بربع بيزيتة ؟ لكن ، يابنى ، هذه الزهرات تغص بها المنحدرات !

ذات مساء ، فى اليوم السابق لـ « سان ريستيتوتو » ، قابل « النينى » من جديد فتى « توريثيوريجو » بالقرب من النهر • حاول « النينى » تفاديه لـكن الفتى اقترب منـــه مبتسما بينما كان يداعب راحة يده بظهر السيخ الحديدى • كانت « لافا » تتشمم ذيل كلب الفتى بين البــوص • ســأل الفتى :

ـ ما اسمك ، أيها الغلام ؟

ـ « نينى » •

ـ « نينى » فقط ؟

ـ نعم ، وأنت ؟

ـ « لويس » •

---

(١) العصيات : نوع من الزواحف ـ (المترجم) •

(٢) البابونج : نوع من الاعشاب الطبية ـ (المترجم) •

ـ « لويس » ؟ ياله من اسم غريب !
ـ هل « لويس » اسم غريب ؟
ـ فى قريتى لا يسمى أحد بهذا الاسم ٠
ضحك الفتى فلمعت أسنانه البيضاء فى وجهه الأسمر :
ـ ألا تكون أسماء من هم بقريتك هى الغريبة ؟

هز « النينى » كتفيه ثم جلس فى المنحدر ٠ اقترب الفتى من النهر حيث يقتفى كلبه الآثار بين الشجيرات وقال بلهجة روتينية :

ـ هيا ، هيا ٠

عاد بعد ذلك الى الصبى وجلس الى جواره ، أخرج علبة التبغ وورق البفرة ثم أعد سيجارة ٠ عندما أشعلها بشرارات من قداحته نظر اليه فبدت عيناه ، تحت ضوء الشمس ، ثملتين مثل عيون القطط ٠ قال له « النينى » :
ـ يجب أن تقلع الآن عن الصيد ٠
ـ لماذا ؟

ـ لأنك بتحطيم أعشاش الصغار ستستأصل شأفة الفئران ٠

رفع الفتى السيخ الحديدى واحتفظ بتوازنه عدة ثوان فوق اصبعه السبابة دون أن يمسك به ٠ ثم سحب يده بسرعة وأمسكه فى الهواء كمن يمسك بذبابة ٠ ضحك :
ـ حتى لو كان الأمر كما تقول ، فمن يهمه أمرها ؟
كانت الشمس تتوارى خلف القمم العالية بينما يتعالى صراخ الجنادب حولهما ٠ وعلى فترات متقطعة يسمع بين نباتات الأسل صوت الحجلان التى تتلاقح ٠
ـ ألا تحب الصيد ؟
ـ انه مجرد وسيلة لقضاء أوقات الفراغ ٠ لكن يعجبنى اكثر الخروج الى الحقل بصحبة فتاة ٠ ومع غروب الشمس

يعـود « النينى » من جولتـه ليجتمع بالعم « راتيرو » عـلى مصطبة « الآنتوليانو » ، أو فى اصطبلات « دون أنتيرو » أو فى حانة « المالبينو » ٠

وفى أى من تلك الأماكن ، لا يتغير سلوك « الراتيرو » : أخرس ، النظرة آبقـة ، ساعداه مستريحان عـلى فخـذيه ، بلا حراك ، وكأنهما يترقبان ٠ فى حالة انعقاد المسامرة فى الاصطبل ، كان « الراتيرو » يراقب ، وهو مضطجع فى مذود، « الرابينكو تشيكو » وعندما ينتهى الأخير من الحلابة يحرك رأسه فى ايماءة تأكيد مبهمة ثم يتمتم :

« شىء لا يصـدقه العقل » ٠ وعنـدئذ يكزه بكوعه من يكون الى جواره سواء كان « البرودن » أو « البيرخيليو » أو «الرابينو جراندى» أو «الأنتوليانو» ثم يسأله : « ما رأيك، يا « راتيرو ؟ » ٠ فيعود لتكرار : « شىء لا يصدقه العقل » ٠

فى « سانتا بترونيلا » استدعت الوصية الحادية عشرة العم « راتيرو » من جديد :

ــ هل فكرت فيما عرضته عليك ؟ ــ سـألته بمجـرد رؤيته ٠

ــ « النينى » يخصنى ــ رد « الراتيرو » متجهما ٠

ــ اسمع ــ أضافت الوصية الحادية عشرة ــ ٠ لا أريد حرمانك من « النينى » بل أريد أن أجعل منه رجلا ٠ تقصـد « دونياريسو » فقط تأمين مستقبل الصبى ، لكى يصبح فى الغد سيدا يمتلك المال الوفير ليشترى سيارة يحملك فيها الى كل أنحاء القرية ٠ ألا تحب أن تركب سيارة تطوف بك كل ركن فى القرية ؟

ــ لا ــ رد العم « راتيرو » بجفاء ٠

ــ حسنا ٠ لكن يعجبك ترك المغارة ذات يوم وبناء بيت لك به شرفة وبار خاص على ربوة « دونائثيو » ، أليس كذلك؟

ـ لا ـ رد « الراتيرو » ـ • المغارة تخصنى •

رفعت « دونياريسو » يديها الى رأسها وأمسكت بها كما لو كانت تخاف عليها من الطيران •

ـ حسنا • يبدو أن الشىء الوحيد الذى يعجبك هو حرق دمى • لكن قبل هذا يجب أن تعرف أنه بقليل من الاهتمام يمكن أن يتعلم « النينى » الكثير ، أشـياء كثيرة مثـل التى يعرفها مهندس • أفهمت ؟

هرش « الراتيرو » ما تحت القبعة بخشونة وسأل :

ـ وهل يعرف المهندسون ؟

ـ يا له من سؤال ! آية معضلة تعرضها على مهندس يحلها لك فى دقائق معدودات •

أمسك « الراتيرو » عن الهرش ورفع رأسه فجأة :

ـ وأشجار الصنوبر ؟

ـ أشجار الصنوبر ؟ اسمع ، يا « راتيرو » ، لا يستطيع أى انسان مهما أوتى من ذكاء أن يخالف ارادة الرب • وقد قضى الرب بأن تظل قمم قشتالة وروابيها جرداء ، ولن تغنى مجهودات كل الرجال عن هذا القضاء شيئا • أفهمت ؟

لم يعترض «الراتيرو» ، فتشجعت «دونياريسو» وآلانت صوتها كى تواصل الحديث :

ـ غلامك ذكى ، لكنه مثل حقل بلا زراعة • يمكن أن يذهب الى مدرسة « توريثيو ريجو » وبعـد ذلك نتعاون فى اكمال تعليمه • ما عليك الا أن ترد عـلى بنعم أو بلا • اذا قلت نعم ، سآخذ الصبى •••

ـ « النينى » يخصنى ـ قاطعها « الراتيرو » غاضبا •

ـ حسنا • احتفظ به لنفسك • أرجو ألا تندم غدا على فعلتك هذه •

مع الغروب ، عندما اضيئت الأنوار الأولى في القرية وعادت طيور الخطاف، التي كانت تصيح هائجة ، الى اوكارها على افريز برج الآجراس ، وصلت « دونياريسو » الى مبنى البلدية :

ـ هؤلاء الناس ـ قالت للعمـدة وهى عـكرة المزاج ـ يمكن أن يقتلوا للدفاع عن لقمة العيش ، واذا قدمت لهـم فرصة على طبق من ذهب يقتلونك كمدا لعدم قبولهم لهـا ، أتفهم ما أعنى ، يا « خوستو » ؟

ضرب « الخوستيتو » ، العمـدة ، جبهتـه ثلاث مرات باصبعه ثم قال :

ـ ينقص « الراتيرو » ما يوجد هنا (٣) • اذا كان لم ينهق فلأنهم لم يعلموه النهيق •

تدخل « الخوسيه لويس » :

ـ ولماذا لا تعقد له اختبارا ؟

ـ اختبار ؟ ـ سالت « دونياريسو » •

ـ نعم • هذه الأشياء التى يستفسر عنهـا • واذا جاء الطبيب ورأى أنه مجنون أو متخلف عقليا يودعه المستشفى (ويا دار ما دخلك شر) •

أضاء وجه « الخوستيتو » ثم سأل :

ـ مثل « الأجابيتو » ؟

ـ بالضبط •

منذ شهرين ، صدم « الأجابيتو » بدراجته عنـد عودته من « توريثيوريجو » طفلا صغيرا وللفتوى بمدى مسئوليته عن الحادث أخضعه الأطباء فى العاصمة لاختبار ، وتوصلوا بعده الى أن درجة ذكائه لا تتعدى ما لصبى فى الثامنة من

---

(٣) العقل هو المقصود بتلك العبارة ـ (المترجم) •

العمر . لقد تسلى « الآجابيتو » كثيرا بالاختبار ومن يومهـا اصبح طليق اللسان وفى الحانة ، كان يكرر الاسئله التى وجهت اليه وكأنها تعويذة . « أعمل لك اختبـارا » ، كان يقول . وفى مرات أخرى كان يشـيد بتصرفه ونبـاهته : « سألنى الطبيب : اذا كانت العـربة الأخـيرة فى حـوادث القطارات هى التى يحدث بها أكبر عدد من الاصابات ، فماذا تفعل لتفادى هذا ؟ » . فأجبته : « اذا كانت المسألة لا تزيد عن هذا ، يا دكتور ، فالحل فى منتهى البساطة : لا نضع هذه العربة فى مؤخرة القطار . يظن أهل العاصـمة أن سـكان القرى أغبياء أو سذج » .

ـ لو يصرح الرئيس بهذا، فسيكون الاختبار هو الحل ـ قال « الخوستيتو » .

أنزلت « دونياريسو » عينيها :

ـ اذا لجأنا لهذا الاجراء فسيكون أولا وأخيرا لصالحه . ادراك « الراتيرو » كادراك طفـل ولن تفيـده معاملتنـا له كرجل .

- ١٤ -

فى عيد الفصح ، كاد أن يقع بالقرية حادث مروع ٠ قبل أن يبدأ الاحتفال بقليل اصطدمت مدقة جرس الكنيسة بقفا « الأنتوليانو » فانزلق «المامبرتيتو» ، صبى «البرودن»، من على البرج والحبل ملفوف حول وسطه ٠ لحسن الحظ ، استعاد « الأنتوليانو » توازنه في الوقت المناسب ، داس على الحبل فبقى « المامبرتيتو » متأرجحا فى الهواء ، بحلته السماوية التى تكورت تحت ابطيه ، بينما تهشم جناحاه الأبيضان المصنوعان من البلاستيك بفعل السقطة القوية ٠

كان « النينى » يرقب الحادث من الميدان فزعا ، لأنه من عامين فقط كان يقوم بدور « المامبر تيتو » ، لكن « ماتياس ثليمين » ، المختلس ، أطلق ضحكة خلف ظهره وقال :

« يبدو الصعلوك وكأنه حبارى صغيرة مقصوصة الأجنحة » ٠ لكن الأمور لم تصل لأبعد من ذلك وأمرت « دونياريسو » « الأنتوليانو » برفع الصبى ثانية ، لأن الاحتفال لا يمكن أن يبدأ فى غياب رجال «اكستريمادورا»٠

قبلت « دونياريسو » ، الوصية الحادية عشرة ، شروط « الجوادالوبى » على مضض ، لكن خيبة الأمل التى تملكت رجال القرية بسبب موضوع البترول لم تكن قد تلاشت بالكامل وعلى حد قول « الروسالينو » : « ليس لأحد منا مزاج هذا العام للقيام بدور المهرج » ٠

استطاعت « دونياريسو » بعد الكثير من المساعى تجنيد ستة رجال فقط للمشاركة فى دور الحواريين ، أما

« الجوادالوبى » ، الخـولى ، فقـد أظهر تشـدده فى هـذا الموضوع :

ــ اما أن يشـترك الجميـع أو لا يشـترك أحـد ، يا « دو نياريسو » ، ها قد عرفت ·

وقبل اشارة البدء في احتفالات عيد الفصح ، سـمحت « دو نياريسو » لرجال « اكستريمادورا » الاثنى عشر بلبس حلل الحواريين المرقعة ·

فوق الميدان المغطى بالغبار تحلق شمس مترعه ولزجه ، وبعيد جدا ، هناك حيث لا يصل حفيف الزحام ، كانت تطير متكاسلة ثلاثة صقور سوداء · لم يكن « النينى » يعرف المكان الذى تسكن فيه ومع هذا فقد كان وجود جثة قط أو أرنب كافيا جدا لاغارة تلك الطيور عليها من فوق الروابى · تحت الصـقور الثلاثة ، كانت تحلق طيـور الخطاف فى موجات متشنجة بالقرب من فتحات البرج ، وتحدث تحركاتها صريرا يصم الآذان ·

ظهر أخيرا ، من خلف الكنيسة ، رجال «اكستريمادورا» رآهم « النينى » وهم يقتربون بخطى وئيدة ، وتطل من تحت حللهم المتعددة الألوان سراويل من القطيفة الخشنة وأحذية يعلوها التراب · كان شعر (البـاروكات) ، التى وضـعت بغير عناية ، ينساب عـلى أكتافهم ، وبرغم هـذا ، لم تخـل المجموعة من جمال الطلعة التى تزيد منهـا خلفية البيـوت الطينية وأسوار الحظائر التى تشبه جفان الكرم · أفسـح لهم أهل القرية الشارع فاصطف فيه رجال « اكستريمادورا » صامتين برؤوس منحنية ، وعندما وصلوا الى سلم الكنيسة ، انتشروا بين الجموع وبدءوا فى فتح الأبواب ، والقفز من على الأسوار ، ورفع الأحجار ، فى بحث محموم ، حتى أعطت « دو نياريسو » ، التى كانت ترتدى الحلة الزرقاء وطـرحة العـذراء البيضـاء ، الاشـارة لـ « الأنتوليانو » فأخـذ

« المامير تيتو » يهبط ببطء من اعلى البرج ، وهو يتأرجح بين الجموع ، بجناحيه المهشمين ·

عند رؤية الملاك ، سجدت العذراء والحواريون وباقى الأهالى تملؤهم الرهبة ، وساد صمت كثيف الى ان ارتفع صوت « المامير تيتو » فوق صراخ طيور الخطاف المحموم :

ـ لا تبحثوا عنه · لقد بعث المسيح من جديد ·

ظل « المامير تيتو » يتأرجح فوق الميدان للحظات ، وبينما كانت الجموع ترسم على صدورها الصليب سحب «الانتونيانو» الحبل شيئا فشيئا · وبمجرد اختفاء الملاك فى فجوة البرج نهضت « دونيا ريسو » متثاقلة وقالت :

ـ نحمدك أيها المسيح ونباركك ·

فصاحت جموع الأتقياء :

ـ يا من افتديت العالم بصليبك المقدس ·

دخلوا الكنيسة بعد ذلك وسجدوا ، بينما أطلق « الفروتس » ، من المكان العلوى المخصص لانشاد الكورال ، حمامة من برج حمائم « الخوستيتو » · طارت الحمامة ، مشوشة ، لعدة دقائق فوق الجموع ثم هبطت مذهولة فوق كتف « لاسيميونا » الأيمن · التفتت حينئذ الوصية الحادية عشرة من على درجات المذبح الى الجموع ونادت على « لاسيميونا » بصوت كصليل الأجراس :

ـ لقد اختارك الروح المقدس ، يا ابنتى ·

حركت « لاسيميونا » كتفها خلسة ، محاولة (هش) الحمامة ، لكنها استسلمت بعد أن باءت محاولتها بالفشل وبدأت تبلع ريقها محدثة ضوضاء غريبة ، كما لو كانت ستختنق ، وأخيرا اقتادتها «دونياريسو» الى المنصة ، وعندئذ اصطف أهالى القرية أمامها وأخذ بعضهم فى تقبيل يدها ، وانحنى آخرون بينما أومأ من هم أكثر خجلا بأيديهم على

وجوههم التى لوحتها الشمس بما يشبه الصليب • بعد أن انتهت مراسم التكريم، تحرك الموكب، الذى تسير فى مقدمته العذراء ثم الملاك ثم « لاسيميونا » وبعدها الحواريون ، وطاف شوارع القرية ، بخطوات موقعة على نغمات القيثارة والطبلة ، بينما كان الليل يهبط بوداعة على القمم العالية •

عند شروع الركب فى التحرك ، جرى « النينى » الى العجوز الذى تحول الى كومة من العظام •

ـ عم « روفو » ـ نادى لاهثا ـ ، الحمامة هبطت الليلة على كتف « لاسيميونا » •

تنهد العجوز ، رفع اصبعه بصعوبة ناحية السقف وقال :

ـ الصقور تحوم فى الأعالى • أحسست بهم هذا الصباح •

ـ لقد رأيتهم ـ رد الصبى ـ • كانوا ثلاثة يحومون حول برج الكنيسة ، يبحثون عن كلبة المختلس الميتة •

أنكر العجوز بحركة من رأسه • وأخيرا قال ، بصعوبة بالغة ، مشيرا الى كتفه اليسرى :

ـ انهم قادمون للهبوط هنا •

وبالفعل ، مات العجوز مساء اليوم التالى ، فى « سان فرانثيسكو كراكثيولا » • حملت « لاسيميونا » الجثة الى الدهليز ، ووضعتها فوق جوال من الخيش ، ثم نزعت القماشة السوداء من على الوجه فلمعت عظامه تحت ضوء الشموع • تجمع أهالى القرية حولها صامتين فى ملابس الحداد وبمجرد أن دخل « النينى » قالت له « لاسيميونا » :

ـ ها هو العجوز • أخيرا استراح كلانا •

لكن العم « روفو » ، بعينه الوحيدة وفمه المفتوحين ، لم يكن يبدو مستريحا ، ولم تكن تبدو «لاسيميونا» مستريحة أيضا ، فقد كانت تبلع ريقها دون توقف ، بضوضاء مكتومة، مثل اليوم السابق عندما هبطت الحمامة فوق كتفها •

ومع وصول أى قادم جديد كانت تكرر نفس العبارة وعنـدما بدأت الذبابة الـكبيرة تطير فوق المجتمعين ، بعـد مكوثها عشر دقائق كاملة فوق وجه العجوز ، حاول كل منهم ابعادها عنه بحركات منفعلة ما عدا «النينى» و «لاسيميونا» ٠

عادت الذبابة الى الجثة الهامدة ، لكنها كل مرة تستانف فيها الطيران، يلوح الرجال والنساء الهواء خفية لكى لا تحط عليهم ، وبهذه الطريقة كان يحدث صفير خافت مثل صـفير ريش المروحة ٠ بعـد نصـف سـاعة أحضر « الأنتوليانو » تابوتا من خشب الصنوبر مازالت تفوح منه رائحةالراتينج، طلبت « لاسيميونا » من الحضـور مد يد العـون ، ونظـرا لتباطؤ الجميع ، تعاونت هى و «النينى» و «الأنتوليانو» فى غلقه ، وبما ان « الأنتوليانو » كان قد آخذ المقاسات مضبوطة لكى يوفر من الخشب ، بقيت رأس العم « روفو » محشـورة بين كتفيه وكان عنقه قد دقت آو كان ساكنه يريد التعبير عن عدم اهتمامه بكل ما ينتسب لهذا العالم ٠

قبل الغروب وصل « دون ثيرو » ، القسيس ، وبصحبته « الماميرتيتو » ، قام برش الجثة بقطرات من الماء المقدس ثم انحنى الى جوار قدمى الميت وقال مكروبا :

ـ نضرع اليك ، يا ربنا ، ونتوسل بأن تنزل السـكينة وتنعم بالجنة على روح عبدك « روفو » التى أمرتها بمغادرة دنيانا ٠ بحق سيدنا المسيح ٠٠

ـ آمين ـ قال « المامير تيتو » ٠

وفى تلك اللحظة طارت الذبابة من على الجثة لتحط على طرف أنف « دون ثيرو » ، لـكن « دون ثيرو » ، الذى كانت عيناه على الأرض ويداه معقوفتان بوداعة فوق عباءته ، بدا وكأنه فى حالة وجد ومن ثم فلم ينتبه لوجود الذبابة ٠ عندئذ وكزه رفيقه وتمتم : « السرطان سيقرض أنفك » ، لـكن « دون ثيرو » استمر فى صلواته رابط الجأش ، الى أن عطس

بشدة ، دون مقدمات ، ففزعت الذبابة وحطت من جديد على الجثة .

بعد انتهاء الصلوات ، تقدمت السيدة « كلو » وهى تحمل كتابا متآكلا فقالت « لاسيميونا » :

ـ انه كتاب العجوز .

كان مكتوبا على صفحته الأولى : « عظات من معجزات السيد المسيح ومريم البتول . بقلم خواكين أنطونيو دى ايجيليتا ، الحاصل على ليسانس العلوم الشرعية والأسقف الأعظم لكنيسة سان اجناثيو دى ليولا . الجزء الثالث . مدريد . حقوق النشر محفوظة » .

رفعت « لاسيميونا » رأسها وكررت :

ـ انه كتاب العجوز .

ـ نعم ـ ردت السيدة « كلو » .

ثم فتحت الكتاب من منتصفه فظهرت ورقة مطوية تحتوى على ورقة مالية فئة الخمس بيزتيات على الورقة المطوية توجد كتابة ركيكة تقول : مدخرات لشراء طاقم أسنان . بين الصفحتين التاليتين توجد ورقة مالية أخرى من نفس الفئة ، وبين الصفحتين التاليتين أيضا ، وهكذا حتى الورقة الخامسة والعشرين . بللت السيدة « كلو » طرف اصبعها الابهام بريقها ، ثم عدت النقود بحنكة ، ورقة ورقة ، ثم سلمتها لابنة العجوز وهى تقول :

ـ خذى يا ابنتى ، انها لك . طاقم الأسنان لم يعد ينفعه .

فى اليوم التالى ، عندما حمل الفتيان النعش ، لم يكن للقرية من حديث سوى السر الذى أعلنته السيدة «كلو» ، لكن الدهشة بحيازة العجوز لكتاب فاقت حادث العثور على الأوراق المالية .

كان « المالبينو » يقول بكثير من الارتياب : « وبعد هذا نتساءل عما اذا كان العجوز يعرف أو لا يعرف • ومن هــذا الذى لا يعرف وتحت يده كتاب ؟ » •

فى الطــريق الى الكنيســة توقف الفتيــان ثلاث مرات بالنعش ، وفى كل مرة كان « دون ثيرو » يصــلى الصــلوات المناسبة ، بينما كانت « لاسيميونا » تنتظر بفارغ الصبر على العربة الكارو ، ومعها « النينى » و « الدوكى » ، الكلب ، الذى كان مربوطا الى مؤخرة العربة بحبل مثل حبل المشنقة، ويعوى بحرقة • بعد أن وصلوا الى الكنيســة ، وبمجرد أن وضع الرجال التابوت على العربة ، استحثت « لاسيميونا » الحمار فجرى بأقصى سرعة أمام دهشة الجميع •

كان شعر « لاسيميونا » أشعث ، ونظرتها لامعة وفكاها متشنجين ، لم تحرك شفتيها الا عند الوصول الى الربوة • اتجهت الى « النينى » قائلة :

ـ وأنت ماذا تصنع هنا ، تكلم ؟

ألقى عليها « النينى » نظرة رصينة :

ـ ما جئت الا لوداع العجوز •

وفى المقابر ، تماون الاثنان فى جر التابوت الى الحفرة وبدأت الفتاة فى اهالة التراب عليه بهمة ونشاط • كانت عيناها تزدادان امتلاء بالدموع كلما صدرت عن التابوت رنة فارغة من جراء اهالة التراب عليه ، الى أن واجهها «النينى»:

ـ « سيميونا » ، ماذا دهاك ؟

مسحت جبهتها بظهر يدها • ثم ردت غاضبة :

ـ ألا ترى سحابة التراب التى أثيرها بالمجرفة ؟

عندما وصلا الى سور المقابر ، بدأ « لوى » فى شم ذيل « الدوكى » بينما كان يطبق سكون لا يوصف على القمم العالية · أشارت « لاسيميونا » الى « اللوى » بالمجرفة :

ـ لا يعرف أنه أبوه ، أرأيت !

فى طريق العودة حافظ الحمار على ايقاع نشط سرعان ما أصبح أكثر حيوية عند هبوط الربوة · لكن « لاسيميونا » سارت بالعربة فى طريق قمة « دونالثيو » ودخلت القرية من ناحية الكنيسة بدلا من الناحية المعتادة : طريق مخازن « دون أنتيرو » · سألها «النينى » :

ـ ألن تذهبى الى البيت ؟

ـ لا ـ ردت عليه ·

أوقفت العربة أمام بيت الوصية الحادية عشرة ، ترجلت وقرعت الباب بشدة مرتين عندما فتحت « دونيا ريسو » كان وجهها أشبه بوجه مريض يشكو ألم المعدة :

ـ يا امرأة ـ قالت ـ ، تأمرنا الوصية الحادية عشرة بعدم احداث ضجيج ·

انتظر « النينى » أن ترد « لاسيميونا » ردا جافا ، لكن الفتاة أثارت دهشته عندما جثت على ركبتيها وقالت فيما يشبه الهمس :

ـ معذرة ، « دونيا ريسو » ، يمكن أن تأتى معى للكنيسة ، لو سمحت · أريد أن أهب نفسى لله ·

رسمت الوصية الحادية عشرة على صدرها الصليب ثم ابتعدت عن الباب وقالت :

ـ حمدا لله · ادخلى ، يا ابنتى · لقد دعاك الله لحماه ·

في « نويسترا سنيورا دى لالوث » ظهرت بعض الحشائش الضارة فى المرج فأسرع « النينى » ليبلغ «الرابينوجراندى» حتي يبعد الأغنام عنها ، فقد كان يعرف من العجوز أن النعجة التى تأكل من هذه الحشائش هالكة لا محالة ·

في نفس ذلك اليـــوم أخبر « البرودن » الصـــبى بأن المناجذ (١) تكثر فى بستانه وتعوق نمو السلق والبطاطس · عند الغروب هبط « النينى » الى شاطىء النهر وقام خـــلال ساعة بشق أنفاق صـــغيرة فى الأرض · تعلم « النينى » من جده « رومان » أن الأنفاق الصغيرة عنـــدما يدخلهـــا الهواء تصاب المناجـــذ بالبرد فتترك أوكارها عنـــد الفجـــر · كان « النينى » يعمل بتؤدة ، وكأنه يتسلى ، متتبعا أكوام التراب الطرية التى تتناثر حوله ، والكلبـــة ، التى شـــاخت فجأة ، ترقبه لاهثة من موقعها تحت ظل البوص ، بينما « اللوى » ، الكلب الصغير ، يركض على الحصباء مطاردا السحالى ·

فى اليوم التالى ، وقبل أن تطلع الشمس ، هبط «النينى» ثانية الى البستان · كان الضباب يسدل ستارة كثيفة على القمم العالية فبدت أكثر بعـــدا ، وعلى النباتات تكاثفت قطـــرات الندى · بجوار المنحـــدر طارت ســـمانة بصخب ، بينما كان يخفت تدريجيـــا ، كلما اقترب الصـــبى ، صـــوت الجنـــادب والضفادع المرتفع الذى يعلن عن قدوم يوم جديد · وفى البستان ، أقعى « النينى » فى ركن بجوار النهر ، ولم تكد

---

(١) المناجد ذرع من الجرذان اعمى ، يطلق عليه فلاحو مصر كلمة فحار — (المترجم) ·

تمضى عشر دقائق حتى سمع حفيفا مكتوما ، مثل حفيف الأرانب ، لفت انتباهه لخروج أحد المناجذ • كان يتحرك حركات خرقاء ويتوقف كثيرا ، لكنه اتجه بعد تردد لأحد الانفاق الصغيرة التى شقها الصبى وبدأ فى سحب التراب بفمه ليغطى به الفتحة • عندما شاهده « اللوى » انحنى على يديه ونبح بغضب ، محاولا الهجوم ، لكن الصبى ابعده أمسك الحيوان بعناية ثم وضعه فى السلة • فى أقل من ساعة صاد ثلاثة غيره وبمجرد أن سطع ضوء الشمس الاحمر فوق الروابى وانتشرت الظلال الأولى نهض « النينى » ، تمطى ونادى على الكلبين : « هيا » •

تحت قدم ربوة « كلورادو » كان « الخوسيه لويس » يسمد الأرض المحروثة وبعده بقليل ، على الضفة الأخرى للنهر ، كان « الأنتوليانو » يحزم بعناية السريس والخسلجى يعرضهما للضوء • ومن جهة القرية يتناهى الى الآذان صليل أجراس القطيع والأصوات المللولة والكسولة لرجال « اكستريمادورا » فى فناء « دون أنترو » •

على بعد عشرين مترا ، بالقرب من البوص ، طار صقر دون سابق انذار • كان حدثا غير عادى أن يبيت صقر بين نبات الأسل وسرعان ما اكتشف « النينى » فوق العوسج العش المكون من أربعة أفرع متشابكة مغطاة بفراء أرنب برى • نظر اليه صقران صغيران ، أحدهما أكبر من الآخر، بعينين مستديرتين مرتابتين ، رافعين منقاريهما المخيفين فيما يشبه التهديد • ابتسم الصبى ، اقتلع فرعا من نبات الأسل وتسلى باستفزازهما لبعض الوقت ، حتى أضجرهما • فى الأعالى ، تحت قبة السماء الزرقاء ، كانت الأم تحوم فوق رأسه فى دوائر واسعة •

لم يبح « النينى » بسر اكتشافه لأحد ، وكل مساء يهبط لمراقبة نمو الصقرين وتصرفات الأم التى كانت تعود الى العش ، من حين لآخر ، وبين مخالبها الحادة جرذة أو

حجل • بعـد كل غارة ترقب الأم من فوق نبـات العوسـج ما حولها فى تحد وعظمة ، قبـل ان تقوم بسـلخ الفريسـه وتسليمها للصـغيرين • كان الصـبى يختفى بين النبـاتات ويراقب تحركاتها ، يتأمل شراهة الصغيرين اثناء التهامهما الفريسة ، وسرور الأم المشـوب بالخيـلاء قبل أن تقلع الى الفضاء من جديد • وظل الأمر على هذا المنوال حتى اكتسى الصغيران بالريش ، وذات مساء اكتشف « النينى » اختفـاء الصقر الصغير والتفاف خيط من جـذع العوسـج حول قدم الكبير • وأثناء فكه لوثاقه على عجـل خطر بباله « ماتياس ثليمين » ، الا أن تفكيره لم يطل لأن الأم هبطت رأسيا عليـه من ارتفاع ثلاثمائة متر فنبحت الكلبة و « اللوى » ناظرين الى أعلى دون أن يتوقفا عن التقهقر • لمست الأم العش عنـد هبوطها ثم أمسكت بالوليد بين مخالبها ، وعادت من جـديد فى اتجاه الجبل •

بعد يومين ، فى « سـان بابلو » ، هبت ريح الشـمال فرطبت الجو • كانت البرودة تزداد عند الفجر وتخفت حدة صياح السمان والجنادب أثناء الليـل • فى اليوم التـالى ، هدأت الريح ، ومع الغـروب صـفت السماء وفوق القـرية انتشر جو ساكن شفاف • بعد أن أرخى الليل سدوله ، أطل القمر ، قمر أبيض وبعيد ، وأخـذ يرتفع شـيئا فشيئا فوق القمم العالية • عنـدما وصـل « الراتيرو » و « النينى » الى الحانة ، كان كلب « المالبينو » ينبح على القمر فى الحظيرة نباحا ذا صدى كريستالى • تغير وجه « المالبينو » • قال :

ـ ما الذى جرى للكلب هذه الليلة ؟

بعد قليل ، ودون موعد سابق ، توافد رجال القرية على الحانة • دخلوا فرادى ، واحدا تلو آخر ، وعلى رأس كل منهم القبعة السوداء التى تصل الى الأذنين وقبل الجلوس على المقاعد كانوا ينظرون حولهم بخوف وعـدم ثقة • من وقت لآخـر ، كانت تسمع ، فقط ، كلمة غاضبة أو صوت ارتطام الكئوس

بالموائد · امتلأ الجو بالدخان وعندما ظهر « البرودن » من فتحة الباب ، التفت اليه عشرون وجها مدبوغة الجلد · كان يبدو شاحبا ومشوشا · سأل :

ــ الأفلاك تلمع بشدة ، أليس هذا نذيرا بسقوط الجليد الأسود (٢) ؟

أجابه الصمت ونباح الكلب المتأجج والمنتظم داخل الحظيرة · نظر « البرودن » حوله قبل أن يجلس وعندئذ سمع سباب « الروسالينو » خلف ظهره ، عندما التفت اليه ، قال « الروسالينو » :

ــ لو كنت الرب لأجريت المناخ تبعا لهواك حتى لا أسمع صوتك ·

ساد صمت كثيف ومأساوى بعد صوت « الروسالينو » المتجهم · تحرك « الخوسيه لويس » ، المحضر ، بهياج قبل أن يقول :

ــ « مالبينو » ، ألا تستطيع اسكات هذا الكلب ؟

خرج صاحب الحانة وبالداخل سمعت ركلة بالقدم والعواء الموجع للحيوان وهو يهرب · عندما عاد « المالبينو » بدا وكأن حدة التوتر قد تعاظمت بالمكان · تساءل « الجوادالوبى » الخولى بصوت خشن :

ــ هل رأى أحد منكم جليدا يسقط ذات مرة فى « سان ميدرادو » ؟

اتجهت اليه الأربعون عينا و « الجوادالوبى » ، لكى يبدد اضطرابه ، أفرغ الكأس فى حلقه دفعة واحدة · وصل اليه « المالبينو » حاملا الابريق وملأ له الكأس دون أن يطلب منه ، ثم قال والابريق فى يده ، مواجها بثبات مالا يمكن تفاديه :

---

(٢) اهالى القرية يخلعون هذه الصفة (الأسود) على الجليد لأنه يحطم دائما محاصيلهم الزراعية ويقضى على آمالهم فى الحصاد ــ (المترجم) ·

ـ منذ عشرين عاما ، في « سانتا أوليبا » ، أتذكرون ؟ كانت الغلال منتصبة وجافة وفي أقل من أربع ساعات ضاع كل شيء ٠

وسرعان ما تفجر الصمت :

ـ لم يصل ما جمعه كل واحد من حقله الى عشر كيلات ـ أضاف « الأنتوليانو » ٠

صاح « خوستيتو » ، العمدة ، من على مائدة في احدى الزوايا :

ـ شيء كهذا يحدث مرة واحدة ٠ لن نراه ثانية ٠

كان « الأنتوليانو » يحرك ذراعيه الكبيرتين على المائدة المجاورة شارحا أبعاد المصيبة لزوج السيدة « كلو » ، « البرخيليو » :

ـ كانت السنابل متفحمة ، أسمعت ؟ كما لو أن النار قد أتت عليها ٠

كان صاحب الحانة يمر بين الموائد ليملأ الكئوس الفارغة ، والألسنة ، المتراخية في البداية ، استعادت نشاطها ، كأنهم يريدون الآن اتقاء الخطر بالأحاديث المتقدة ٠ بعد أن سادت المحادثات سمع من جديد العواء المؤلم للكلب في الفناء ٠

قال « النيني » :

ـ الكلب ينبح وكأن بالبلدة ميتا ٠

لم يجبه أحد وطاف عواء الكلب ، الذى كانت نغمته تتغير كل مرة ، بالموائد مثل صدمة كهربائية ٠ خرج « المالبينو » الى الفناء ٠ اختلط سبابه بالبكاء المتذمر للكلب وبصفق المختلس للباب عند الدخول ٠ قال ، لاهثا وكأنه قد انتهى من قطع مسافة طويلة :

ـ الجليد يتساقط بغزارة ٠ تجمدت سيقان النباتات وكاننا فى يناير ٠ لم تبق فى البساتين نبتة مستوية على عودها ٠ لماذا كل هذا العقاب ؟

ارتفع من جميع الزوايا حفيف لعنات مكبوتة ٠ دوى فوقها صوت « البرودن » الهائج :

ـ يا مصيبتى ، يا خرابى ٠ هل هذه حياة ؟ أعمل واكد أحد عشر شهرا مثل كلب ، ثم ، فى ليلة واحدة ٠٠ ـ التفت الى « النينى » وأضاف قائلا :

ـ « نينى » ، أيها الغلام ، ألا يوجد مخرج ؟
ـ هذا يتوقف ـ رد الصبى فى صرامة ٠

ـ يتوقف ، يتوقف ٠٠٠ يتوقف على ماذا ؟
ـ على الرياح ٠

ساد صمت كثيف وصلب ٠ ومثل أعين الغربان التى تتربص بالمزروعات فى شهر أكتوبر ، تجمعت الآن أعين الرجال على الصبى ٠ سأل « البرودن » مستقصيا :

ـ الرياح ؟

ـ اذا هبت الرياح عند الفجر يسقط الجليد وتسلم السنابل ٠ أما خضروات البساتين فقد فات أوانها ـ رد الصبى ٠

وقف « البرودن » وتجول بين الموائد ٠ كان يمشى كالسكران ويضحك كالمعتوه قبل أن يصيح :

ـ أسمعتم ؟ لسه فيه أمل ، فلم لا تستجيب الرياح لنا ؟ أليس غريبا نزول الجليد فى « سان ميدرادو » ، وبالرغم من هذا فهو يتساقط ؟ لماذا لا تهب الرياح اذن ؟ أمسك فجأة عن الضحك وراقب حوله انتظارا لتأييد أحد ، طافت عيناه بكل الوجوه ، واحدا بعد آخر ، لكنه لم ير الا سحابة من الشك ،

استسلاما مخيفا قابعا هناك داخل الحدقات · عاود الجلوس حينئذ ثم أخفى وجهه بكلتا يديه · خلفه كان «الأنتوليانو» يقول للعم « راتيرو » بصوت مسموع : « لا توجد جرذان ، المحصول يضيع من بين أيدينا ، أيمكن معرفة ما يربطنا بهذه القرية اللعينة ؟ » ·

تلعثم « الرابينـــو تشـيكو » : « الأر ··· الارض ـ قال ـ · الأرض مثل المرآة » · صاح « الروسالينو » من الطرف الآخر : « بالضبط ، ليس لها أمان ! » · كان المامس، الأخرس ، يعوج قسمات وجهــه بجــوار المختلس ، تعويجات مخيفة مثل كل مرة يكون فيها عصبيا · صاح فيه « ماتيـــاس ثليمين » : « صه ، أيها الأخرس ، لا تصب رأسى بالدوار » · عندئذ قال « الفروتس » : « ولو غنى « البيرخيليو » ؟ » · وكمـــا لو كانت هــذه اشــارة جعلتهــم يصــيحون جميعا ، « هيا ، يا « بيرخيليو » ، نريد سماع صوتك » ·

أخذ « الآجابيتو » يقرع المائدة براحتيه قرعات موقعة· رفع «الخوستيتو» ، الذى كان يعب طوال ساعتين منالابريق دون توقف ، صوته فوق أصواتالآخرين : «هيا ، يا«بيرخيليو» أيا كان ما تغنيــه ســينال الرضـــا والقبــــول » · تنحنح « البيرخيليو » مرتين وشرع فى الغناء · صفق «الأجابيتو» وَ « الرابينو جراندى » وسرعان ما انضم اليهما «الفروتس»، « الجوادالوبى » ، « الأنتوليانو » و « الخوسيه لويس » · بعد دقائق ، كانت الحانة تغلى وامتزج التصفيق بالأصــوات النشاز المحمومة وهى تردد الأغانى القديمة الموجعة · وامتلأت الحانة بالدخان ولم يتــوقف « المالبينو » عن الطــواف بين الموائد ليملأ الكئوس والأباريق · فى الخارج ، كان القمر يتبع صامتا خط سيره المعتاد فوق القمم وأسطح المنازل بينما يتكوم الجليد فوق الخضروات وأطراف السنابل ·

زال الاحساس بالوقت وعندما اقتحمت « لاسابينا » ، امرأة « البرودن » ، الحانة نظر الرجال الى بعضهم فى دهشة

وكأنهم يتساءلون عن سر تجمعهم هناك . فرك « البرودن » عينيه والتقت نظرته بالنظرة الفـارغة لامرأته ، وعنـدئذ صاحت « لاسابينا » :

ــ أيمكن معرفة ما حدث لكي تقيموا هذا الحفل الراقص حتى الخامسة صباحا ؟ الم يخطر ببالكم سوى الصياح مثـل الأطفال بينما يقضى الجليد على المحصول ؟ ــ تقدمت خطوتين وواجهت « البرودن » ــ : وأنت ، يا « أثيسكلو » ، آلا زلت تذكر الجليد الذى سقط فى « سانتا أوليبا » ؟ لتعلم اذن أن جليد هذه الليلة أسوأ منه بكثير . السنابل لا تتحمل البرودة وتنطوى كما لو كانت من رصاص .

خيم فجأة صمت شبحى . تبدو الحانة الآن وكأنها ردهة لغرفة محتضر ، حيث لا يقوى احد على مواجهـة الأحـداث ، والتأكد مما اذا كان الموت قد أصدر قراره أخيرا . تحت، من اصطبلات « دون أنتيرو » ، سمع خوار باك لاحدى البقرات، وكأن الخوار كان الاشارة المنتظرة ، فأسرع « المالبينو » الى النافذة الضيقة وفتح ضلفتيها بشدة . تسلل ضـوء مبهم ، شتوى بارد بين الزجاج المتسخ . لكن أحدا لم يتحرك . فقط عندما ارتفع الشخير المتقطع لديك « الأنتوليانو » الأبيض فوق الصمت ، وقف « الروسالينو » وقال : « هيا بنا » .

كانت « لاسابينا » تمسك بذراع « البرودن » وتقـول له : « انه الخراب » ، يا « أثيسكلو » أفهمت ؟ . فى الخارج ، بين القمم العالية ، كانت النجوم الأخيرة تنمحى وينتشر بدلا منها ضوء أبيض مبتسر فوق المنطقة . تحت الأقدام تقرقع الأرض مثل قشر عين الجمل ، وتغنى الجنادب على استحياء ومن فوق ربوة « دوناثيو » يتناهى الى الأسماع نداء حجل ذكـــر .

كان الرجال يسـيرون عـلى الطريق منكسى الرؤوس وأمسك « البرودن » « النينى » من عنقه ولم يكف عن سؤاله

مع كل خطوة : « ستهب رياح الشمال؟ أتعتقد امكانية ذلك؟ » لكن « النينى » كان صائما عن الكلام • فقد كان ينظر الى المقابر فوق الربوة والى الصليب الصغير وسطها ويتخيل أن تلك المجموعة الخامدة من الرجال ، التى تتوغل داخل حقول الغلال الشاسعة • تنتظر ظهور شبح • كانت السنابل تنحنى بما تحمله فوق رأسها وأخذ بعضها فى الاسمرار • قال « البرودن » مكتئبا ، وكان هم الليل بطوله قد انهار فوق رأسه فجأة :

« لن يصل العلاج فى الوقت المناسب » •

فى البساتين ، تحت ، سحق الجليد الخضروات وترك أوراقها ذابلة • توقفت المجموعة بين المزروعات فى اتجاه حلمة « توريثيو ريجو » وتبت الرجال حدقاتهم على تخوم القمم العالية التى آخذت فى الظهور شيئا فشيئا • خلف ربوة « دونالثيو » كان الضوء أكثر حيوية • ومن وقت لآخر ينحنى أحدهم على « النينى » ويسأله مهمهما : « فات الأوان ، حقا ، أيها الغلام ؟ » • فيجيب « النينى » : « قبل أن تطلع الشمس مازال الأمل موجودا • الشمس هى التى تحرق السنابل » • ويولد الأمل فى الصدور من جديد • لكن النهار كان يهجم دون هوادة ، أضاء الروابى وأبان عن بؤس بيوت الطوب اللبن وظلت السماء مرتفعة والجو ساكنا وعيون الرجال ، المفتوحة جيدا ، ظلت مثبتة ، بنهم متعكر ، على تخوم القمم العالية •

حدث كل شيء فجأة • هبت أولا نسمة رقيقة داعبت السنابل ، ثم زعقت الرياح وأخذت تهبط بفظاظة من على القمم العالية ، فطوحت سيقان النباتات وأحدثت تموجات فى حقول الغلال مثل موجات البحر • وبعد قليل ، تحولت الريح الى هدير متقطع ألهب الحقول بسياطه وبدأت السنابل تتأرجح ، متخففة من الجليد ، وتنتصب رويدا رويدا على ضوء الشروق الذهبى • ابتسم الرجال ، ووجوههم ناحية الريح،

ابتسامات باهتة ، مثل المنومين مغناطيسيا ، دون أن يجرؤ أحدهم على تحريك عضلة واحدة من وجهه خوفا من معاكسة الظروف المواتية · كان « الروسالينو » ، الوكيل ، أول من استعاد صوته وعند التفاته اليهم قال :

ــ الرياح ! ألا تسمعون ؟ انها الرياح !

آخذت الرياح كلماته وحملتها الى القرية ، وعندئذ ، وكأنه صدى ، شرع برج الأجراس في الكنيسة يصدر دقات مبتهجة ، وعلى صوته ، بدا أن المجموعة قد استيقظت ودوت هتافات غير متجانسة و « المامس » ، الأخرس ، كان يريل وينتقل من مكان لآخر مبتسما ويصيح : « خى ، خى » · رفع « الأنتوليانو » و « البيرخيليو » « النينى » فوق رأسيهما وصاحا :

ــ هذا ما قاله « النينى » ! هذا ما قاله !

ركع « البرودن » ، و « لإسابينا » خلف ظهره تنهنه ، بين أعواد القمح وفرك وجهه مرات متتالية بالسنابل ، التى تناثر حبها بين أصابعه ، دون أن يكف عن الضحك كالمجنون·

- ١٦ -

بجوار النهر ، اتى الجليد الاسود عـلى ما بالبسـاتين الصغيرة من خضروات • وبالرغم من هذا ، نزل رجال القريه يملؤهم الاصرار الى البسـاتين الصغيرة وبكـروا بزراعة الحميض ، الفجل ، السريس ، البازلاء ، الكراث والجزر • عكف «روسالينو» ، الوكيل ، على تقليم شجيرات البرباريس، بينما انهمك « النينى » فى ابعاد اليماسيب عن خلايا النحل وتصنيف الآرانب استعدادا لموسم التناسل • استقرت درجة الحرارة بفضل نعومة الشمس وتحت شعاعها نضجت الغلال وجفت خلال أيام قليلة • عندئذ دب النشاط فى القرية • لم يكف الرجال والنساء ، طـوال النهار ، عن تنظيف البيـادر واعداد آلات الحصاد ، وفى المساء قاموا بتطهير الصـوامع استعدادا لاسـتقبال المحصـول • فوق السـماء ، الكثيفـة الزرقاء ، طارت اللقالق سابقة للموعد الذى كان يتنبأ به المرحوم « روفو » : « فى « سان خوان » ، تطير اللقالق » •

كل صباح ، كان رجال القـرية يركزون نظراتهم عـلى الاتجـاه الشـمالى الغربى الذى ظل صـافيا وهادئا خلال عشرة الأيام الأولى من الشـهر • لم يكف « البرودن » عن ترديد : « ما يهمنا الآن هو عدم سقوط المطر » •

اعتاد المرحوم « روفو » تكرار حكمته القاطعة : « فى يونيو المطر ، يجلب الخطر » • ولذلك كان الرجال ينتظرون الشمس كل صباح بنفس الحمية التى ينتظرون بها المطر فى «نويسترا سنيورا دى سانشو آباركا» أو فى «سان تاوريو»• ومع هذا ففى « سان باسيليو » ساد تفاؤل مبكر بين السكان•

لقد أضفى عليهم حدث انقاذ الغلال من الجليد الأســود حب الثرثرة · « أنقذ المحصول بمعجزة » ــ كانوا يرددون · لكن السيدة « ليبرادا » ، الأكبر سنا والأكثر حيطة ، كانت تحذر : « لندع الكلام حتى امتلاء الصوامع بالغلال » ·

أما العم «راتيرو» فلم يكن يعلق أملا على المناخ ، ويزداد صمته صلابة واكفهرارا · لا يحــرك شــفتيه تقريبا طوال النهار ، وعندما ينام فوق القش ليلا يقول للصبى فى ثبات :

ــ علينا أن نذهب غدا للصيد ·

فيوقفه الصبى :

ــ انتظر · فى « سان بيتو » يصرح بصيد سرطان الماء ·

ــ سرطان الماء ؟

ــ ربما يأتى هذا العام بخير عميم · من يدرى ؟

منذ أسبوع ، فى « سانتا أوروسيا » ، كادت الأزمة أن تنفرج عندما قدم « خوستيتو » ، العمدة ، الذى كان يزين رقبته برباط عنق المناسبات الـكبيرة ذى اللــونين الأخضر والأحمر ، عرضا للعم « راتيرو » فى حانة « المالبينو » :

ــ « راتيرو » ، ما قولك لو عرضت عليك العمل بيومية تصل الى ثلاثين بيزيتة بخلاف الأكل والشرب ؟

مرر « الراتيرو » طرف لسانه على شفتيه المتشققتين ، ثم هرش ما تحت القبعة بخشونة ، وكأنه يســتعد لحــديث طويل ، لكنه لم يزد عن :

ــ هذا يتوقف ·

ــ يتوقف على ؟

ــ على طبيعة الـ

ـ انظـر ، يكفي أن تصـعد المنحـدرات مـع رجال « اكستريمادورا » لزراعة الأشجار ـ أشار الى « النينى » ـ : بالطبع يمكن أن تأخذ الغلام ليأكل معك ٠

فكر « الراتيرو » لعدة لحظات :

ـ حسنا ـ قال أخيرا ٠

تحسس « خوستو فادريكي » ذقنه التي حلقت حديثـا بحركة ميكانيكية ٠ لقد فعل نفس الشيء منذ يومين في المدينة عندما قال له المحامي : « اذا كان هذا الشخص لم يتغير عما كان عليه من قبل ، فلا يوجد سند قانوني لاجراء اختبار له وحرمانه من رعاية الصبي » ٠ نظر « الخوستيتو » طويلا الى « الراتيرو » وقال بعدم اكتراث متكلف :

ـ أشترط عليك فقط ترك المغارة ٠

رفع « الراتيرو » عينيه :

ـ المغارة تخصني ٠

وضع « خوستو فادريكي » مرفقه على المائدة وأضـاف متذرعا بالصبر :

ـ تعقل يا « راتيرو » ٠ البيت في البيدر القديم ايجاره مائة بيزيتة وستكسب تسعمائة في الشهر بالاضافة الى الأكل والشرب ٠ ما رأيك ؟

ـ المغارة تخصني ـ كرر « الراتيرو » ٠

مد « خوستو فادريكي » ساعديه على المائدة واجتهد في تطرية صوته :

ـ حسنا ، سأشتريها منك ٠ كم تريد فيها ؟

ـ لا شيء ٠

ـ لا شيء ؟ ولا ألف بيزيتة ؟

ـ لا ٠

ـ لها ثمن ، بالتأكيد تساوى شيئا ٠

ـ شيئا ٠

ـ كم ، تكلم !

ابتسم « الراتيرو » ابتسامة مراوغة ثم قال :

ـ المغارة تخصني ٠

هز « خوستو » رأسه من جهة لأخرى ، ثم ثبت حدقتيه الغاضبتين على « الراتيرو » :

ـ يمكن أن أمنع « لويس » ، فتي « توريثيو ريجو » ، من الصيد في زمام قريتنا ٠ ما رأيك ؟ تغير وجه «الراتيرو» في لحظة ٠ استطالت زعنفتا أنفه وتصلبت شفتاه حتى خارت قواه :

ـ هذا ما سأتكفل به أنا ٠

نهض « خوستيتو » غاضبا :

ـ أنت لا تملك الشجاعة ٠ على أية حال ، فكر فيما عرضته عليك ٠ اذا قبلته ، بامكاني مساعدتك ٠

منذ ذلك الحين ، كان « الراتيرو » يمضى الساعات فى مراقبة النهر ٠ كان يعيش في حالة من الانفعال المكتوم ولا يزور النوم جفنيه أثناء الليل ٠ فى بعض الأيام يصعد مع الصباح حلمة « توريثيو ريجو » ويرقب بلا هوادة حواشي النهر ٠ وعندما يأتى المساء يلجأ الى الحانة أو الاصطبل أو مصطبة ورشة « الأنتوليانو » ، الذى كان يسر فى أذنه : « لديك يدان ، يا « راتيرو » ٠ لا يحتاج أى منا لأكثر منهما » ٠ يحنى « الروسالينو » رأسه فى اتجاه « توريثيو ريجو » ويضيف : « ما ينسب الى أحصل عليه بيدى هاتين » ٠ وفى الحانة ، يستحثه « المالبينو » : « النهر نهرك ،

يا « راتيرو » . أنت تعمل بهذه المهنة قبل أن يخرج هـو من البيضة » .

هذا بينما كان « النينى » يتعب نفسه فى تلبية مطالب السكان ، لكن ابعاد اليماسيب عن الخلايا ، أو خصى الخنازير، أو تصنيف الأرانب فى حظائرها لم يكن يعود عليه بأكثر من نصف بيزيتة . كان « المالبينو » يقول له : « حدد لنفسـك تعريفة . ألا يفعل هذا الأطباء والمحامون ؟ » . فيهز الصبى كتفيه ويرميه بنظرة حادة وعندئذ يتحير « المالبينو » ويؤثر الصمت . فى « سان بيتو » رفع الحظر عن صيد سرطان الماء فهبط « النينى » الى النهر ومعه الشباك ، المطعمة بالديدان. عند غروب الشمس سقطت فى الشـباك خمس دست ولازال سرطان الماء يقع فى الفخ المنصوب بسهولة كبيرة . بعـد أن حل الليل أشعل المصباح ووضع أمعاء الدجاج ، كطعم ، بدلا من الديدان . كانت الجنادب تصيح حوله وفوق رأسه بينما ترفرف بومة على أول شجرة من شجرات الصنوبر الثلاث .

فى منتصف الليل ، جمع « النينى » عدة الصيد ، وقبـل أن يعود الى المغارة ترك فخا منصوبا داخل النهر. كان سرطان الماء ينزلق داخل الجوال ويحدث حفيفا رطبا ولزجا .

وفى انتظاره كان العم « راتيرو » قابعا عند مدخل المغارة تحت ضوء القنديل :

ــ هل رأيته ؟ ــ سأله قبل أن تطأ قدماه رقعـة الأرض الصغيرة المليئة بنبات السعتر .

ــ لا ــ رد الصبى .

خرجت همهمة من بين أسنان « الراتيرو » . أضاف :

ــ وسرطان الماء ؟

ــ احدى وعشرون دستة ونصف من سرطان الماء . ولاول مرة منذ بضعة أسابيع تنفرج شفتا «الراتيرو» عن ابتسامة.

ــ اذا لم تنزل « لاسيميونا » للصيد هذا العام سيصبح كل شيء على ما يرام ــ أضاف الصبي · كانت « لاسيميونا » منافسا قويا للصبي · فهي تصطاد بيديهـا ، بعـد ان تشمر ملابسها فتكشف عن ساقين بيضاوين ممتلئتين، وتدخل الانملة الخشنه لابهام يدها اليمنى في الفجوات أو بين كرفس الماء لتقبض على السرطان بشجاعة منقطعة النظير · وبهذا التكنيك الشديد البساطة مرت أعـوام كانت تصـيد فيهـا أكثر من خمسمائة دسـتة · كان « أدولفو » ، سائق حافلة المدينـة ، يحمل سرطان الماء ، بعد تصنيفه تبعا لحجمه ، ويبيعـه في سوق عاصمة المحافظة · لـكن « لاسيميونا » تروحنت هـذا العام · أطلقت شعرها على كتفها ولبست عباءة سوداء تصـل الى القدمين · نفس الوشاح الذى اتشحت به « لا أفروديسيا » منذ خمسـة أعوام مضت ، وهى الأولى التى وهبت نفسـها وآخذتها في بيتها الوصية الحادية عشرة ·

كان على « لاسيميونا » ، مثل « لا أفروديسيا » ، قضاء ثلاث سنين عند « دونيا ريسو » ، تقوم خلالهـا بالأعمال الصعبة والمهينة ، استعدادا للاعتراف ·

اعتاد « المالبينو » آن يقول في الحانة : « انها احـدى الوسائل للحصول على خادمة مجانا » · ومع هذا ، فقد أيقظ تحول « لاسيميونا » المفاجىء جشـع رجال القرية ، الذين يتحينون الفرص : « سيميونا ، ماذا ستفعلين بالعربة ؟ » · « أحتاجهـا » ــ ترد عليهـم بثبات ··· « والحمار ؟ » ــ يضيفون قائلين · « أحتاجه أيضا » ــ تجيب عليهم · وعندها يهرشون رؤوسهم ويسألون في حيرة : « أيمكن معرفة لأجـل ماذا تحتاجين عربة وحمارا خلال فترة الرهبنة ؟ » · فتجيب دون تردد : « لأجل القربان المقدس » ·

في الآونة الأخيرة ، كان « النيني » يتفادى «لاسيميونا» لأنها ما من مرة تقابله فيها الا وتنحني وتقول : « أهنى » · فيرفض الصبي بايماءة من رأسـه : « لا أفهم في هـذا » · « ابصق على » ــ تضيف · فيرفض الصبي · « ألم تسـمع ؟

اقول لك ابصـق عـلى • تعلم طاعة الكبـار » • فيقـاوم الصبى ، لكنه ، فى بعض الاحيان ، كان يضطر لاصـطناع بصقة • فلا تكتفى : « ليس هـكذا • بصـقة أكبر وعـلى الوجه • اسمعت ؟ » • مرات اخـرى ، كانت « لاسيميونا » تتمدد على الارض وتتوسل اليه ان يدوسها بقدمه • وشيئا فشيئا بدات تتملك الصبى قشعريرة عند رؤيتها •

صعد ، مؤخرا ، لراس الفتاة التنبؤ بموتها فكانت تقول ان « الموت سيباغتها للحد الذى لن تستطيع معه الاستحمام قبلها » • اختارت « النينى » لتحقيق رغبتها الأخيرة : « هلم الى ، يا نينى ــ كانت تناديه ــ • اذا مت خذ الحمار والعربه • تبيع العربة وتنفق ثمنها على اقامة قداس على روحى • اما الحمار فاحتفظ به لنفسك • يمكن أن تمتطيه عند ذهابك الى الحقول • لكن تذكرنى كل مرة تركبه فيها بالصلاة على صـلاة قصيرة » • « وكيف تكـون ؟ » ــ يسـأل « النينى » مستقصيا • « يا للمسيح ! ألا تعرف هذا ؟ الصلاة القصيرة تقول فيها : اللهم اغفـر لـ « سـيميونا » • لا شىء أكثر ، أسمعت ؟ لكن كل مرة تركب الحمار ، أفهمت ؟ » • « نعم ، لا تقلقى » ــ يوافق الصبى • فتفكر لحظة ثم تضيف : « أو من الأفضل أن تقول كل مرة تمتطى فيها الحمار : يا رب اغفر الذنوب التى اقترفتها « سيميونا » برأسها أو بيديها أو بصدرها أو ببطنها ، وهكذا حتى تصـل الى القـدمين • أتفهم ما أقول ؟ » • كان « النينى » يحملق فيها بهدوء ، لكنه سألها : « أيمكن أن ترتكب البطن ذنوبا ؟ » • أجهشت بالبكاء دون سابق انذار • تأخـرت فى الرد عليـه • قالت أخيرا : « والكبائر منها • ذنبى كان يدعى « باكيتو » وهو الآن فى المقابر بجوار أبى • ألم تكن تعرف هذا ؟ » • « لا » ــ رد الصبى بحـدة • أرجعت شعرها للخلف فى جزع ثم قالت : « حقا ، لقد كنت صغيرا وقتها » •

لكن « لاسيميونا » مرضت فعلا فى « سان بروتاسيو »

و « سان تريبونو » ، وعندما راها « النيني » وهي متمددة على الحشية تذكر موت العجوز . قالت له الفتاة :

ـ « نيني » . اذا مت خذ لنفسك العربة والحمار والكلب ، أسمعت ؟

ـ لـكن ...

ـ لا تقل شيئا ـ قاطعته ـ . بعد أن أموت لن أحتاج الى القربان المقدس .

ـ لن تموتي . لقد مات أبوك .

ـ اسكت . لا يفتدى الأب أبناءه بموته ، أسمعت ؟

ـ نعم ـ رد الصبي خائفا .

ـ نظير هذا آمل فقط تلبية طلبي السابق ، أمازلت تذكره ؟

ـ نعم ، كل مرة أركب فيها الحمار أدعو الله أن يغفر لك ذنوبك مبتدئا بالرأس .

تنهدت « لاسيميونا » مستريحة :

ـ حسنا ـ قالت ـ . والآن أهني . لم يبق وقت حتى أغتسل . اني راحلة الآن .

ـ ماذا ؟

ـ ابصق علي !

ـ لا .

تقلصت عضلات وجهها تقلصات سريعة :

ـ ألا تسمعني ؟ ابصق علي !

رجع الصبي القهقرى ناحية الباب . لقد رأى على أسارير وجهها الحادة صورة موت العجوز وجدته « الوميناداء » .

ـ أما هذا فلا .

في تلك اللحظة تسربت من بين قضبان النافذة صرخة حادة وموجعة . ظلت « لاسيميونا » بلا حراك ، طرفت عيناها بعصبية . وفجأة غطت وجهها بيديها وشرعت في بكاء هستيري :

ـ « نيني » ، ألم تسمع ؟ ـ قالت وهي تنتحب ـ . انه الشيطان .

اقترب الصبي :

ـ انها البومة ، هوني على نفسك . تصيد جرذانا من على سطح البيت .

استلقت حينئذ على ظهرها، أطلقت ضحكة مدوية وبدأت تتفوه بأشياء غير متجانسة . في « سانتا أجريبينا » ، شفيت « لا سيميونا » . قابلها « النيني » في الميدان ، لا تزال شاحبة تترنح ، ولأول مرة منذ أن وهبت نفسها للرهبنة لم تطلب منه اهانتها . سألها :

ـ هل أنت بخير ؟

ـ بخير ، لماذا ؟

ـ لا شيء .

ظلا لبرهة وجها لوجه يلاحظان بعضهما في ارتياب .

أخيرا ، أضاف « النيني » :

ـ ألن تذهبي هذا العام لصيد سرطان الماء ؟

ـ آه ، يابني ! الكلام ده كان زمان . لا أهتم الآن بمثل هذه الأشياء .

منذ تلك الليلة ، بدأ سرطان الماء يتفادى فخاخ « النيني » سواء أكان الجو هادئا أم مضطربا بهبوب ريح الجنوب أو الرياح الشمالية الغربية . عند المساء كان سرطان الماء يترك أوكاره تحت نبات الكرفس ويتبختر حول الشباك،

لكن دون أن يقرر المرور من الطوق • وبالرغم من المجهـود الذى يبذله « النينى » فلم يكن يصيد أكثر من دستة واحدة • وعند وصوله للمغارة يقول للعم « راتيرو » :

ــ « لاسيميونا » حسدتنى •

فيهرش « الراتيرو » باصرار ما تحت القبعة ويسأل :

ــ لا شىء ؟ •

ــ لا شىء •

ــ علينا بالنزول اذن لصيد الفئران •

لكن « النينى » فضل العودة للزهور الصفراء والسلاحف على تدمير أعشاش صـغار الفئران • فى فصـل الربيـع • اجتهد فى توسيع دائرة زبائنـه حاملا الزهور الصفراء من باب الى باب • وصل ، ذات مسـاء ، لبيت المختلس ، برغم فزعه من ابتسامة صاحب البيت المتوحشة :

ــ « ماتياس » ــ نادى عليه ــ • ألا تحتاج زهورا صفراء للأرانب ؟

ــ زهورا صفراء ؟ (بطلوا ده واسمعوا ده) ! ألا تعلم أننى تركت تربية الأرانب منذ انتشار الوباء ؟

تحير « النينى » وطرفت عيناه • وفجأة ، أمسكه المختلس من رقبته وأضاف ، مطبقا عينيه وكأن الضوء يضايقه :

ــ بالمناسبة ، ألا تعرف من الصعلوك الذى أطلق سراح الصقر الصغير من على نبات الأسل ؟

ــ صقر صغير بين نبات الأسل ؟ ــ سـأل الصـبى ــ • الصقور لا تعشش فى مثل هذه الأماكن ، أنت تعرف هـذا يا « ماتياس » •

ــ لكنها عششت هذه المرة ، وجاء ابن كلب وقطع الخيط الذى ربطت فيه الصغير ، ما رأيك ؟

رفـع النينى كتفيـه ولمعت عينـاه بالبراءة • أضاف « ماتياس ثليمين » ، بعـد أن ترك الصبى وعقف ذراعيـه بمهابة فوق صدره :

ـ اسمع منى شيئا وضعه حلقة فى أذنك • الى الآن لست متأكدا ممن فعل هذا ، لكنى لو أمسكت به ذات يوم فسأضربه بيـدى هـذه ضربة لن تبقى له بعـدها رغبة للتدخـل فيما لا يعنيه •

- ١٧ -

حلقت شمس قاسية فوق القمم العالية في « لابرنيوسا سانجرى دى نويستروسنيور » فمحقت نباتات المريمية والخزامي من على المنحدرات • في أربع وعشرين ساعة فقط تجاوزت درجة الحرارة خمسا وثلاثين وغرقت المنطقة في قيظ يوهن الأعصاب •

ذاقت القمم العالية مرارة الأشعة الحارقة ، وحول القرية تقرقع أعواد القمح الناضجة بينما يشير الشعير الذى حصد فى أكوام متناثرة الى فترة ركود خريفية سابقة لأوانها • تحت القيظ ، تكتسب الحياة طولا غير عادى ولا يمزق الصمت الجهنمى لساعات النهار الوسطى سوى زقزقة العصافير الموجعة بين البوص المرتفع على ضفتي النهر •

عند مغيب الشمس ، هبطت نسمات فاترة من على التلال فانتهز سكان القرية الفرصة للتجمع على أبواب البيوت وتبادل أطراف الحديث في مجموعات صغيرة • كانت الرائحة الجافة للدريس ترتفع من الحقول مغلفة بأصوات الطيور المسائية ، بينما تضرب الهوام المصابيح ضربات ايقاعية أو ترفرف حولها في حلقات غير منتظمة • من قمة « مرينو » وصل غناء الكروان ، وعلى صوته ، طار البعوض على أحراج النهر وطاف بكل مكان في عدوانية شديدة • كان الوقت يوافق نهاية الدورة الزراعية وعندما يجد الرجال أنفسهم في الشوارع المترية يرسلون ابتسامات وكأنها تجعيدة ضمن تجاعيد وجوههم التى لوحتها الشمس ورياح الهضبة •

وبالرغم من ذلك ، فقد اشرقت الروابى ، فى « سان ميجيل دى لوس سانتوس » ، وهى ملفعة بضباب كثيف لزج أخذ يتضح بتقدم النهار • عندما شاهده « البرودن » عبر قنطرة الألواح الخشبية وصعد المنحدر بمشقة ، وبمجرد وصوله الى رقعة الأرض الصغيرة المليئة بنبات السمتر ، نادى على « النينى » بصوت عال :

ــ « نينى » ، أيها الغلام ــ قال عندما ظهر الصبى وهو يتمطى من باب المغارة ــ ، لا يعجبنى منظر الضباب• ألا يعنى هذا اقتراب ظهور السحب ؟

كان « اللوى » يشمشم فى عقبى الرجل و « لافا » ، جاثمة الى جوار الصبى، مستسلمة لمداعبته لها بقدمه العارية المتسخة • حملق الصبى فى الأفق ، ثم فى الروابى وعليها الضباب ، وأخيرا ، توقفت عيناه على صقر يرفرف بجناحيه فوق حلمه « توريثيو ريجو » • هبط المنحدر دون أن يتفوه بكلمة • تبعه « البرودن » والكلبان بنفس الانقياد الواثق الذى يتبع به الطبيب أقارب مريض على حافة الموت • بعد أن وصلوا الى النهر ، نشط لسان « البرودن » من عقاله وفى نغمة باكية قال للصبى ان القمح الجاف لن يتحمل المطر • تظاهر « النينى » بعدم سماعه ، بلل اصبعه الوسطى بريقه وتأمل بعناية الجانب الذى يجف منه أولا • تسلل بعد ذلك بين نباتات البوط والبوص ونظر الى سيقانها الدقيقة التى يتسلقها النمل المجنح حتى يصل الى أطرافها ثم يعاود الهبوط • كان « البرودن » يرقبه فى صمت وعندما خرج الصبى من بين النباتات استشاره بنظرة منه :

ــ يوجد ضباب والهواء يأتى من جهة الجنوب ــ قال الصبى بصوت متقطع ــ • يتراقص النمل المجنح فى مشيه • اذا لم يتغير اتجاه الهواء قبل منتصف النهار ، فسيعود الضباب ثانية • تحسن صنعا لو أخبرت الناس بهذا •

لم يحفل أحد بكلام «البرودن» ، قال له «الروساليو»:

ــ لم أبدأ الحصاد قبل « سان أوسبيثيو » •

ــ النيني يقول ٠٠٠ ــ اراد « البرودن » ان يوضح ٠

ــ حتى لو قالت العــذراء مريم بنفســـها ــ قاطعـه « الروسالينو » ٠

ومع ذلك ، فبعد ربع ساعة فقط ، عندما نادى المنادى طالبا حصادين للبرودن ، ظهر التوتر على رجال القرية ٠ لم يتحدث سوى « الروسالينو » الذى أراد ازاحة القلق من على صدره :

ــ أسرع يا « برودن » ، قبل أن يشيط الارز ٠

بعد العصر بقليل ، ظهرت فوق قمة « ميرينو » سـحابه بيضاء ثم سحابات أخرى كثيفة وثقيلة ٠ لم ينزل الرجال أعينهم من على القمة وعندما أوشك النهار على الرحيل امر « خوستيتو » العمدة ، « الفروتس » باعـداد الصـواريخ لاطلاقها على الغمام ٠

فى تلك الساعات التى تلبدت فيها السماء بالغيوم كان « البرودن » ومعه « لاسـابينا » ، « الرابينو تشـيكو » ، « الكريسبولو » ــ ابن « الأنتوليانو » الأكبر ــ قد انتهوا من تشوين القمح بالحقل ٠ ومع غروب الشمس انفلت عيـار ريح ساخنة أحدثت تمـوجات فى الحقـول التى لم تحصـد وأثارت سحابة من الغبار فوق الطريق ٠ ازدادت قتامة السماء شيئا فشيئا والتهم « النينى » الطعام غير المتقن الذى أعده « الراتيرو » ثم أقعى على باب المغارة ٠ أطبق الظـلام فجـأة وازداد تعكر الجو ٠ لكنها لم تمطر حتى الآن ، ولم ترعد ، وأفزع الصبى بريق أول شـعاع ٠ رفعت « لافا » رأسهـا وتجشأت عندما تدحرج الرعد مزمجرا أسـفل المنحـدر ٠ امتزج نتن الكبريت بالرائحة الجافة للدريس ورائحة السنابل الناضجة ٠ أطل العم « راتيرو » من فم المغـارة ، ونظر الى أعلى ، الى الظلام ، وقال :

ــ السماء تعد العدة ٠

وقف شعر صلب « اللوى » ، وعندما شق عنان السماء الصاروخ الأول ، الموجه الى بطن السحابة المظلم ، نبح هانجا· أشبهت فرقعة الصاروخ صرخة حادة لطفل بين جدال عنيف للكبار · بعدها شقت السماء عن ضوء شديد جعل سلسلة القمم العالية تلمع وكأنها من فضة · تبع الضوءالرعد مباشرة وكان قويا وصاعقا مثل ضربة سوط ·

ـ ستكون أسوأ من تلك التى حدثت فى « سان ثينون »· أتذكر ؟ ـ قال الصبى ·

اطلق الصاروخ الثاني من الميدان وتبعه آخر واخر ، دون توقف أو تخطيط ، فى يأس · كانوا مثل صياد يرمى الحصى بنبلة على قطيع من الأفيال · أغرق البرق من جديد المنطقة فى ضوء شاحب وتبع دوى الرعد أنين الاعصار وهو يكتسح الروابى والحقول ، رافعا دوامات حلزونية كثيفة من التراب نحو السماء · عندما هدأت الريح بدأت تتساقط حبات المطر الأولى ، كانت رمادية منتفخة ، مثل حبات العنب، تطرقع على الأرض الجافة ، وعند تبعثرها الى جزئيات صغيرة تتبخر من جديد دون أن تترك أثرا · قال « الراتيرو » من مكانه خلف الصبى :

ـ هكذا أفضل ·

ـ ما هو الأفضل ؟

ـ تبعثر الحبات الأولى بهذا الشكل ، لأن المطر التالى لو نزل على مكان جاف تسوء الأمور أكثر · أنكرالصبى بايماءة من رأسه دون أن يقلع عن النظر لبيوت القرية :

ـ لن يتغير الوضع · لن تتغير النتيجة والقمح على هذه الحال ·

مزق البرق قبة السماء من جميع الاتجاهات فى معركة حامية الوطيس · اختلط الرعد الشمالى الغربى المرعب

بالشهب الجنوبية الشرقية وتتالت دقات الثلج على جلد القمة المشدود وكأنها دقات طبول ·

بالرغم من أن الثلج كان فى حجم بيض الحمام ، الا أن الريح جرجرته لتكومه تحت الأعشاب أو بين فجوات الروابى ·

ــ لقد اتحدت سحابتان ــ قال الصبى ·

ــ اثنتان ــ أكد « الراتيرو » ·

ــ مثلما حدث عام ١٩٥٣ فى « سان ثينون » ، أتتذكر ؟

ــ تماما ·

تراجع القيظ شيئا فشيئا وارتفع من الحقول التى حل بها العقاب بخار الأرض الرطبة · كان الثلج يتساقط على فترات متقطعة وعندئذ لمح « النينى » ، على ضوء الشهب ، أشباح الرجال السوداء ، مثل دمى خرساء ، وهى تتحرك بلا تبصر فى الميدان · لم يكن « الفروتس » وحده ، بل « الخوستيتو » ، و « الخوسيه لويس » ، و « البيرخيليو » ، و « الأنتوليانو » ، و « الماتياس » ، و « الرابينو جراندى » ، وكل رجال القرية الذين كانوا يتزاحمون على اطلاق الصواريخ فى محاولة يائسة لارهاب نذر الشر · لكن الصواريخ كانت تتحول عند ارتفاعها الى أثر باهت ، دون لمعان أو قوة ، وتحدث انفجارا مكتوما على أعتاب سماء وطيئة وجائرة ·

أخذت المنطقة شكلا شبحيا تحت ضوء البرق البنفسجى وبدا برج الكنيسة ، ومخزن التبن ، وربوة « دوناثيو » ، وحلمة « توريثيو ريجو » وأشجار الصنوبر الثلاث وكأنهم شركاء فى هذه الجريمة النكراء ·

أحيانا ، كان الثلج يصنع ستارة محكمة ، كثيفة وكتيمة ·

ــ انها أسوأ من عام ١٩٥٣ ــ قال « النينى » ·

أكد « الراتيرو » ، الذى كان يقف خلفه فى الظلام الدامس بلا حراك :

ــ أسوأ ٠

صبت السماء جام غضبها على المنطقة وخلال خمس ساعات استمر لمعان الشهب ، دوى الرعد المكتوم ، وصوت الثلج الذى كان مثل المطارق وهو يصطدم بالحقول ٠ فى الرابعة صباحا أمسكت السماء فجأة عن الصياح وتجمعت السحب تجاه الشمال ، فوق حلمة «توريثيو ريجو » ، وسرعان ما ظهر قمر عال ورطب خادشا الحواشى الأخيرة للعاصفة ٠ وعلى امتداد البصر ، كانت الثلوج ، عند تحللها على الأرض، تحدث حفيفا لزجا مثل حفيف سرطان الماء داخل جوال من الخيش ٠

من حين لآخر ، خلف حلمة « توريثيو ريجو » ، كانت تخرج من السماء ألسنة الوهج ، لكن دوى الرعد يتأخر الآن فى الوصول ٠

هبط « النينى » الى القرية بمجرد طلوع النهار ٠ كان المنحدر رطبا وزلقا ولذلك، نزل الصبى من على السفح حتى تتشبث قدماه بنبات السعتر ٠ بدت الحقول تحته وكأنها ميتة ٠ كانت البساتين واشجار الصنوبر الثلاث ترفع بنجل عريها الشجى وأزاد نعيب الغربان فى فجوات برج الأجراس من وضوح الصمت الكبير ٠ أما القمح ، الذى جمعه الاعصار العنيف فى عناقيد غير منتظمة ، فينام على الطين فى وداعة ٠ تكاثرت البرك بين السنابل المجذوذة ٠ وعلى الدروب كانت تتناثر جثث القبرات المتيبسة فوق حبات القمح ٠ ومن أراضى « دون أنتيرو » المحروثة تتصاعد دخنة ، مثل التى تتصاعد من المزروعات أيام الشتاء المشمسة بعد ليلة تساقط فيها الجليد٠ انعقدت فوق الحقول نتانة طينية كثيفة ممتزجة برائحة الدريس ٠ تجاسر عقعقان ، لم توهن المحنة عزيمتهما ، على اللهو فوق آلة التعذيب القديمة ، نافشين ريشهما تحت

الشمس · أحس « النينى » عند دخول القرية ببكاء النساء المستسلم خلف الأبواب · على مؤخرة بيت « البرودن » . التى يصل الطين الى ما يقرب من منتصفها ، وقف احد طيور الخطاف · وعلى أفريز السطح كانت تزقزق الصغار وهى تطل برؤوسها الملونة من فتحة العش · بدت الشوارع خاوية وعلى جنباتها تجمع طين كثير يفوق ما يوجد فى فصل الشتاء · فى الميدان ، كانت السيدة « كلو » تكنس بهمة درجتى السلم المؤدى الى دكان الخردوات · على طابية الطوب اللبن ترتفع لافتة مكتوب عليها بحروف غير متسقة من القار : « تعيش دفعة ٥٦ ! » ·

توقف « اللوى » عند حظيرة « الخوسيه لويس » فنادى عليه « النينى » بتصفيرة خافتة · عندئذ رأته السيدة «كلو» ، اتكأت على يد المكنسة وقالت له وهى تحرك رأسها الى أعلى والى أسفل وتعض على شفتها السفلى :

ــ « نينى » ، يابنى · ما رأيك فى هذا العقاب ؟

ــ ها قد رأيت ·

ــ هل نحن أشرار لهذا الحد حتى يحل بنا هذا العقاب ؟

ــ بالتأكيد ، يا سيدة « كلو » ·

أمام الاصطبلات تقف سيارة « دون أنتيرو » وعلى نفس الناصية وقف صاحبها برفقة بعض الغرباء يتحدثون بأسى مع رجال القرية · تجمع هناك ، بعيون ملأها الحزن وظهور منحنية وكأنها تئن تحت وطأة حمل ثقيل ، « الخوستيتو » و « الخوسيه لويس » و « الرابينو تشيكو » و « الأنتوليانو » و « الأجابيتو » و « الماتياس ثليمين » و « الروسالينو » و « البيرخيليو » · كان « دون أنتيرو » ، الغنى ، يقول :

ــ حقت الاستفادة من التأمين· لكن عليك بعدم الابطاء ، « خوستو » ، تقدم اليوم عريضة لطلب قروض ائتمانية · والا سيكون الخراب شاملا ، أسمعت ؟

وافق « الخوستيتو » موافقة واهنة :

ـ أنت تعرف أننى سأبذل قصارى جهدى ، يا « دون أنتيرو » ٠

مر «النينى» دون اكتراث ، والكلبان ملتصقان بقدميه، لكنه قبل أن يصل الى شجرة البرباريس سمع صوت « الأنتوليانو » المتلجلج :

ـ أنا ٠٠٠ أنا ليس عندى تأمين يا دون « أنتيرو » ٠

وصوت « ماتياس ثليمين » الجنائزى :

ـ ولا أنا ٠

اتحد بصوت المختلس حفيف أصوات أخرى مثل جوقة : « ولا أنا » ، « ولا أنا » ، « ولا أنا »٠٠ عند شجرة البوباريس قطع عليه « البرودن » الطريق ٠ بدا وكأنه شبح انشقت عنه الأرض فجأة :

ـ « نينى » ـ نادى ـ ٠ القمح مكوم فى الحقل وسنابله سليمة ـ تحدث وكأنه يعتذر ـ : أنا ٠٠٠ قاطعه الصبى دون أن يمسك عن السير :

ـ لا تدرس الا بعد جفاف الحب ، لكن لاتؤخر الدراس حتى لا يزرع الحب داخل السنابل ٠ أمسكه البرودن من كتفه :

ـ انتظر ـ قال ـ ٠ انتظر ٠ تعتقد أن بامكانى الدراس أمام تعاسة الآخرين ؟

هز « النينى » كتفيه ٠ قال ، ناظرا الى عينيه فى ثبات :

ـ هذا شىء يخصك ٠

فرك « البرودن » يديه بلا حماس محاولا السيطرة على عصبيته ٠ أدخل بعد ذلك يده اليمنى فى جيبه واخرج منه بيزيتة :

ـ خذ ، هذه لنصيحتك لى بالأمس • كنت أود اعطاءك أكثر ، لكنى مطالب بدفع ثلاث يوميات •

تجاوز « النينى » شجرة « البرباريس » التى عراها الثلج ووصل الى النهر • على الجانب الآخر من أشجار الصنوبر الثلاث تقابل مع «لويس» ، فتى «توريثيو ريجو» . الذى ابتسم له بأسنانه البيضاء دون أن يكف عن حث كلبه :

ـ هيا ، هيا •

ـ ماذا تفعل ؟

ـ مرة أخرى ! ألا ترى ؟ أصيد • أيمكن عمل شيء آخر فى الحقول هذا العام ؟ ـ قال وهو يشير الى القمح المهشم الجاثم فوق الطين ، والى الحقول الممتدة التى تحولت الى حلفاء عقيمة •

ـ حدث نفس الشيء فى « توريثيو ريجو » »

كان الفتى يسير بحذاء النهر على وقع خطوات الكلب بين نباتات البوص المهشمة • رد :

ـ لم يترك المطر سنبلة مستوية على عودها •

لاحظ الصبى الكلب المرقط :

ـ هذا الكلب غير متمرس •

ـ أيبحث كلباك بطريقة أفضل ؟

أشار الصبى الى رأس « لافا » اللاهثة :

ـ هذه عجوز وعوراء ، لكن الكلب الصغير يستدل على الفئران وسيصبح متمرسا العام القادم •

ضحك فتى « توريثيو ريجو » وضرب حذاءه عدة مرات بطرف السيخ الحديدى :

ـ كلبى حديث العهد بالصيد أيضا •

ـ عمره لا يزيد بأية حال عن سنة ٠

ـ سيكملها فى « سان ماكسيمو » ٠ كيف عرفت ؟

ـ من عينيه ومن فمه ٠ ما اسمه ؟

ـ « لوثيرو » ، يعجبك ؟

أنكر الصبى بهزة من رأسه ٠

ـ لماذا لا يعجبك الاسم ؟

ـ لأنه طويل ٠

ـ طويل ! بماذا تسمى كلبيك اذن ؟

ـ الكلبة « فا » ، والكلب « لوى » ٠

ضحك الفتى من جديد :

ـ من أجل كلب ، أى اسم (كويس) ـ أضاف ببرود ٠

وفجأة ، رفع الفتى عينيه وتقلصت ابتسامته حتى أصبحت تعويجة مندهشة على فمه ٠ سمع « النينى » وقع الخطوات السريعة فرفع رأسه ليرى العم « راتيرو » وهو يسحق أعواد القمح المغشى عليها بقفزاته الواسعة ٠ كان شاهرا سيخه الحديدى ويصيح بشىء غير واضح لا يرقى الى مرتبة الكلمات ٠ لم يتوقف عندما وصل الى شاطىء النهر ٠ ألقى بنفسه فى الماء ، مبربطا فيه وكأنه مدفوع بقوة خارقة وهجم على الفتى ٠ نهض « النينى » بسرعة ، أمسك بسترته المهلهلة وجذبها للخلف بكل ما أوتى من قوة ، لكن الفتى كان قد أمسك بمعصم يد « الراتيرو » مبعدا سيخ الحديد ، بينما كان يصيح : « تعقل يا هذا » ٠ و « الراتيرو » يتمتم بكلمات ويغمغم فى غير وعى: «الفئران تخصنى ٠ الفئران تخصنى» ٠

وثبت « لافا » على الفتى ، ناشبة أسنانها بغيظ فى بطن ساقه ، فقفز « اللوثيرو » بدوره عليها والتحم الاثنان ، بينما

كان « اللوى » ، الكلب الصغير ، يتبع متحيرا ، دون أن يهتدى لأى جانب ينحاز •

بعد أن اقتنع « النيني » باستحالة الفصل بين الرجلين وقف يرقبهما وعيناه جاحظتان محاولا تهدئتهما بصيحاته ، لكن « الراتيرو » لم يكن يسمعها • كانت تدفعه قوة عمياء ويردد مرة بعد أخرى وكأنه يحمس نفسه : « الفئران تخصني • الفئران تخصني » •

ظل الكلبان يتشاجران بوحشية ، يعضان بعضهما بغضب وكاشفين عن أنيابهما البيضاء ، دون أن يتوقفا عن الهمهمة • تدحرج الكلبان في الوحل وهما متكوران فاصطدم بهما « الراتيرو » وسقط بين أعواد القمح وجسد خصمه فوقه • حاول فتى « توريثيو ريجو » شل حركته بوضع ركبتيه فوق صدره وغمغم : « تـ ـ عقـ ـ لـ ـ يا ـ هـ ـ ذا » ، لكن « الراتيرو » فوت عليه الفرصة ، تكور الى الأمام ودفعه بقدمه الى الخلف • نهض الرجلان وهما يرقبان بعضهما شزرا ، يلهثان ، والسيخان مرفوعان ، بينما استمر الكلبان في اشتباكهما الشرس • كان « الراتيرو » هو الذى أخذ زمام المبادرة من جديد ، لكن الفتى تلقى ضربته بالسيخ وخلال بضع ثوان تعانق السيخان وتطاير منهما الشرر • « الراتيرو » ، الآن ، ظهره مغطى بالطين ، يراقب خصمه وجفناه مطبقان مثل حيوان ضار ، سدد لصدر الفتى ركلة هائلة بالقدم أسقطته فوق السنابل المستلقية على الأرض • جرى « الراتيرو » نحوه ، لكن الفتى ، في التواء متوحش ، تفادى الجسد فسقط « الراتيرو » على وجهه في الطين • عندما انتصب على قدميه كان لهاثه خشنا ، مكروبا ، مثل زئير • من حين لآخر كان يردد مثل آلة مبرمجة : « الفئران تخصني • الفئران تخصني » • طبقة سميكة من الطين كانت تغطي وجهه فاكتسبت عيناه ، بين الجفون التي سودها الطين، بريقا فريدا • انتظر فتى « توريثيو ريجو » ، مقوسا بعض

الشيء ، بينما كانت نظرته تتارجح تارة على عيني «الراتيرو» وتارة على السيخ الذى يمسكه بأصابعه المتقلصة ٠

هجم عليه « الراتيرو » مرة أخرى مصوبا السيخ الحديدى على حنجرته ، لكن الفتى تفادى السيخ فى الوقت المناسب فلم يحدث سوى خدش فى وجنته التى انبثق منها الدم فجأة ٠ كانت «لافا» تنزف أيضا من أذنيها وظهرها لكنها لم تتراجع٠ جسدا الكلبين كانا يختفيان أحيانا بين كثافة القش الملقى على الأرض ، لكى يظهرا ثانية على بعد سبعة أمتار دون أن يكفا عن الشجار الدموى ٠

بعد أن تبددت حيرة « اللوى » التصق بساقى « النينى »٠ وهو ينتفض انتفاضات غريبة ٠

اشتبك الرجلان من جديد ، السيخان مرفوعان ، ويتمتمان بلعنات غير مفهومة ٠ كانت وجنة الفتى مغطاة بالدم ومن خلال شفتيه المتشققتين المفتوحتين يرى فمه الجاف وهو يعب الهواء على جرعات مثل سمكة تحتضر ٠ حاول جاهدا جرح عدوه ، لكن حد سيخه لم يصب الا سترة « الراتيرو » الذى سدد ، عندما أحس بمداعبة المعدن لجلده ومنتهزا فرصة الانهيار العارض لغريمه ، ضربة قوية من أسفل لأعلى فانغرس السيخ حتى مقبضه فى ضلع خصمه ٠ تم كل شيء فى لمح البصر ٠

تمددت يدا الفتى وعندما سقط السيخ اختفى فى الطين ٠ ابتعد عنه « الراتيرو » لاهثا ، وعندئذ ، تقدم الفتى نحو « النينى » مترنحا ، عيناه جاحظتان ، وعندما حاول التلفظ حجزت دفقات الدم الكلام ٠ ظل برهة بلا حراك ، متداعيا ، وأخيرا خر على جنبه الأيمن وأغلق عينيه وكأنه يستريح ٠ ارتجفت ساقاه بشدة مرتين أو ثلاثا ٠ تقيأ من جديد ، وكأنه يريد منع هذا ، أمال وجهه ببطء وأخفى أساريره فى الطين ٠

رفع « النينى » العينين المذعورتين تجاه « الراتيرو » ، ولكن هذا ، لاهثا حتى الآن ، اقترب من الجثة وأخرج منهـا سيخه الحديدى · اتجه نحو الكلبين المتشاجرين ، امســك « اللوثيرو » من جلد رقبته وبجذبة واحدة أبعده عن «لافا» · حاول الكلب ، دون جدوى ، عضه من معصمه بعد أن التفت اليه غاضبا ، لكن « الراتيرو » مزق قلبه بالسكين دون رحمة ، وأخيرا ، ألقى بجثته فوق جسد الفتى الممدد على الأرض ·

كانت « لافا » تعوى متألمة وتلثم الجروح التى فى ظهرها أثناء اقتراب « الراتيرو » من النهر وغسله للدماء التى على السيخ بعناية · جلس « النينى » فى منخفض وأسند مرفقيه على فخذيه · وصلت «لافا» اليه وجثمت تحت قدميه مرتجفة، بينما كان « اللوى » ينظر متجشـئا الى الجثتين اللتين يحط الذباب فوقهما تدريجيا ·

عندما عاد العم « راتيرو » الى جوار « النينى » ، ظهرت فجأة ستة صقور سوداء وهى تطير عاليا فوق حلمة « توريثيو ريجو » · نظـر الصبى الى « الراتيرو » الذى لا يزال يلهث فقال الأخير وكأنه يبرر فعلته :

ــ الفئران تخصنى ·

أشار « النينى » باصبعه الى فتى « توريثيو ريجو » :

ــ لقد مات · الآن علينا ترك المغارة ·

ابتسم « الراتيرو » ابتسامة ما بين بلهاء وماكرة :

ــ المغارة تخصنى ·

نهض الصبى ونفض مؤخرته · تبعه الكلبان متداعيين وبعد أن تجاوزا شجرة البوباريس طارت سمانتان فى صخب· توقف « النينى » وقال :

ــ لن يتفهموا ما جرى ·

ـ من ؟ ـ سأل « الراتيرو » ٠

ـ هم ـ همهم الصبى ٠

بدا برج الكنيسة طافيا خلف الربوة وحوله أخذت فى الظهور ، شيئا فشيئا ، بيوت القرية البنية وهى غارقة بين الضباب ٠

اقرا فى هـذه السـلسلة

احلام الاعلام وقصص اخرى	برتراند رسـل
الالكترونيات والحياة الحديثة	ى ٠ رادونسكايا
نقطـة مقـابل نقطـة	الدس هكسـلى
الجغرافيا فى مائة عـام	ت ٠ و ٠ فريمـان
الثقـافة والمجتمـع	رايموند وليـامز
تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ ج)	ر ٠ ج ٠ فوربس
الأرض الغـامضة	ليسـتربيل راى
الرواية الانجليـزية	والتـرالن
المرشـد الى فن المسرح	لويس فارجـاس
آلهـة مصر	فرانسوا دوماس
الانسان المصرى على الشـاشة	د٠ قدرى حفنى وآخرون
القاهرة مدينة الف ليلة وليلة	اولج فولـكف
الهوية القومية فى السينما العـربية	هاشـم النحـاس
مجمـوعات النقـود	ديفيـد وليـام ماكدوال
الموسيقى ـ تعبير نغمى ـ ومنطق	عـزيز الشـوان
عصر الرواية ـ مقال فى النوع الأدبى	د٠ محسن جاسم الموسـوى
ديـلان توماس	اشراف س ٠ بى ٠ كوكس
الانسـان ذلك الكائن الفـريد	جـون لويس
الرواية الحـديثة	جـول ويست
المسرح المصرى المعـاصر	د٠ عبد المعطى شعراوى
على محمـود طـه	أنـور المعـداوى
القـوة النفسـية للأهـرام	بيـل شـول وادبنيت
فن الترجمـة	د٠ صـفاء خلوصى
تولسـتوى	رالف ئى ماتلـو
ستـندال	فيكتـور برومبير

رسائل واحاديث من المنفى	فيكتور هوجو
الجزء والكل (محاورات فى مضمار الفيزياء الذرية)	فيرنر هيزنبرج
التراث الغامض ماركس والماركسيون	سدنى هوك
فن الأدب الروائى عند تولستوى	ف ٠ ع ادنيكوف
ادب الأطفال	هادى نعمان الهيتى
احمد حسن الزيات	د٠ نعمة رحيم العزاوى
اعلام العرب فى الكيمياء	د٠ فاضل احمد الطائى
فكرة المسرح	جلال العشرى
الجحيم	هنرى باربوس
صنع القرار السياسى	السيد عليوة
التطور الحضارى للانسان	جاكوب برونوفسكى
هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال	د٠ روجر ستروجان
تربية الدواجن	كاتى ثير
الموتى وعالمهم فى مصر القديمة	ا ٠ سبنسر
النحل والطب	د٠ ناعوم بيتروفيتش
سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى	جوزيف داهموس
سياسة الولايات المتحدة الامريكية ازاء مصر ١٨٣٠ ــ ١٩١٤	د٠ لينوار تشامبرز رايت
كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة	د٠ جون شندلر
الصحافة	بيير البير
اثر الكوميديا الالهية لدانتى فى الفن التشكيلى	د٠ غبريال وهبة
الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية وبعدها	د٠ رمسيس عوض
حركة عدم الانحياز فى عالم متغير	د٠ محمد نعمان جلال
الفكر الأوربى الحديث (٤ جـ)	فرانكلين ل ٠ باومر
الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربى ١٨٨٥ ــ ١٩٨٥	شوكت الربيعى
التنشئة الأسرية والأبناء الصغار	د٠ محيى الدين احمد حسين

نظريات الفيلم الكبرى	ج. دادلى أندرو
مختارات من الأدب القصصى	جوزيف كونراد
الحياة فى الكون كيف نشأت واين توجد	د. جوهان دورشنر
حرب الفضاء	طائفة من العلماء الأمريكيين
ادارة الصراعات الدولية	د. السيد عليوة
الميكروكمبيوتر	د. مصطفى عنانى
مختارات من الأدب اليابانى	صبرى الفضل
الفكر الأوربى الحديث ٢ ج	فرانكلين ل. باومر
تاريخ ملكية الأراضى فى مصر الحديثة	جابريل باير
اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة	انطونى دى كرسبنى
كتابة السيناريو للسينما	دوايت سوين
الزمن وقياسه	زافيلسكى ف. س
اجهزة تكييف الهواء	ابراهيم القرضاوى
الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعي	بيتر رداى
سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى	جوزيف داهموس
التجربة اليونانية	س. م بورا
مراكز الصناعة فى مصر الاسلامية	د. عاصم محمد رزق
العلم والطلاب والمدارس	رونالد د. سمبسون ونورمان د. اندرسون
الشارع المصرى والفكر	د. انور عبد الملك
حوار حول التنمية الاقتصادية	والت وتيمان روستو
تبسيط الكيمياء	فريد س هيس
العادات والتقاليد المصرية	جون بوركهارت
التذوق السينمائى	آلان كاسبيار
التخطيط السياحى	سامى عبد المعطى
البذور الكونية	فريد هويل شاندرا ويكراما ماسينج
دراما الشاشة (٢ ج)	حسين حلمى المهندس
الهيروين والايدز	روى روبرتسون
نجيب محفوظ على الشاشة	هاشم النحاس

صــور افريقيــة	دوركاس ماكلينتــوك
المخـدرات حقائق اجتماعية ونفسية	بيتــر لـورى
وظائف الأعضاء من الألف الى اليــاء	بوريس فيدروفيتش سيرجيف
الهندسة الوراثيــة	ويليــام بينــز
تربيـة اسـماك الزينـة	ديفيــد الدرتون
الفلسفة وقضايا العصر (٣ جـ)	جمعها : جـون ر ٠ بورر وميلتون جـولد ينجـر
الفكر التاريخي عنـد الاغريق	ارنولد توينبى
قضـايا وملامح الفن التشـكيلى	د٠ صــالح رضــا
التغذية فى البلدان النامية	م٠هـ٠ كنج وآخـرون
بـداية بلا نهــاية	جـورج جاموف
الحرف والصناعات فى مصر الاسلامية	د٠ السيد طه ابو سـديرة
حـوار حـول النظـامين الرئيسـيين للــكون	جاليــليو جاليليــه
الارهــاب	اريك موريس وآلان هـو
اخنــاتون	سـيريل الـدريد
القبيـلة الثـالثة عشرة	آرثر كيسـتلر
التــوافق النفسى	توماس ا ٠ هــاريس
الدليـل البيليــوجرافى	مجمـوعة من البـاحثين
لغــة الصــورة	روى ارمــز
الثورة الاصــلاحية فى اليابان	ناجـاى متشـيو
العــالم الثـالث غــدا	بـول هاريســون
الانقراض الكبير	ميخائيل البى ، جيمس لفلوك
تاريخ النقــود	فيكتـور مورجـان
التحليل والتوزيع الأوركســترالى	اعداد محمد كمال اسـماعيل
الشــاهنامة (٢ جـ)	الفـردوسى الطـوسى
الحيــاة الكريمة (٢ جـ)	بيــرتون بورتر
كتـابة التـاريخ فى مصر	جـاك كرابس جونيـور

عن النقد السينمائى الأمريكى	ادوارد ميــرى
تراتيم زرادشــت	اختيار / د٠ فيليب عطيــة
الســينما العــربية	اعداد / مونى براخ وآخـرون
دليـــل تنظيــم المتــاحف	آدامز فيـليب
سـقوط المطر وقصص اخـرى	نادين جورديمــر وآخرون
جماليـــات فن الاخـــراج	زيجمــونت هبنــر
التاريخ من شتى جوانبه (٣ جـ)	ســتيفن أوزمنت
الحملة الصــليبية الأولى	جــوناثان ريــلى ســميث
التمثيـل للسـينما والتليفزيون	تــونى بــار
العثمـــانيون فى أوربا	بــول كولنــر
صـــناع الخـــلود	موريس بيـــر برابر
الكنائس القبطية القديمة فى مصر (٢ جـ)	الفـــريد ج ٠ بتـــلر
رحـــلات فارتيمــا	رودريجـــو فارتيمــا
انهم يصـــنعون البشر (٢ جـ)	فانس بكــارد
فى النقد الســينمائى الفرنسى	اختيار/ د٠ رفيق الصـــبان
الســـينما الخيـــالية	بيتـــر نيكوللز
الســلطة والفـــرد	برزاند راصل
الأزهــر فى الف عــام	بينارد دودج
رواد الفلســـفة الحـــديثة	ريتشـــارد شــاخت
ســفر نامة	ناصر خسرو عـــلوى
مصر الرومانيــة	نفتـــالى لـــويس
الاتصال والهيمنة الثقـــافية	هـــربرت شـــيلر
مختارات من الآداب الآســـيوية	اختيار / صـــبرى الفضـــل
كتب غيرت الفكر الانسانى (٣ جـ)	احمــد محمــد الشــنوانى
الشموس المتفجرة	اســحق عظيمـــوف
مدخـل الى علم اللغـــة	لوريتــو تــود
حــديث النهــر	اعــداد/ سوريال عبــد الملك
من هــم التتـــار	د٠ ابرار كــريم الله
ماســـتريخت	اعداد/ جابر محمــد الجــزار
معــالم تاريخ الانسانية (٤ جـ)	هـ ٠ ج ٠ ولـــز
الحمـــلات الصــليبية	ســتيفن رانســيمان
حضـارة الاسلام	جوســتاف جرونيبــاوم

رحلة بيـــرتون (٣ ج)	ريتشارد ف . بيرتون
الحضـــارة الاسلامية	ادمـز متــز
الطفـــل (٢ ج)	ارنولـد جـــزل
افريقيـا الطريق الآخـر	بادى اونيمـــود
السحر والعلم والدين	فيليب عطيـــة
الكـون ذلك المجهـــول	جـــلال عبد الفتـــاح
تكنـــولوجيا فن الزجـاج	محمـــد زينهـــم
حــرب المســتقبل	مارتن فان كريفـــــلد
الفلسـفة الجـوهرية	ســـــونداري
الاعـــلام التطبيقي	فرانسيس ج . برجين
تبسـيط المفـاهيم الهندسـية	ج . كارفيـــل
فن المايم والبـــانتومايم	توماس ليبهـــارت
تحـــول الســـلطة	الفين توفـــلر
التفكيـــر المتجـــدد	ادوارد دى بونـــو
الســـيناريو فى السينما الفرنسية	كريســـتيان ســـالين
فن الفـرجة على الأفـــلام	جـــوزيف . م . بوجـــز
خفايا نظـــام النجـــم الأمريكى	بـــول وارن
بين تولستوى ودستويفسكى (٢ ج)	جـــورج ســـتاينر
ما هى الجيولوجيا	ويليـــام هـ . ماثيـــوز
الحمـــر والبيض والســـود	جـــارى ب . ناش
انتاج الفيـــلم الأميركى	ستالين جين . ســـولومون
رحلة الأمير رودلف ٢ ج	عبد الرحمن الشـــيخ
رحلات ماركوبولو ٣ ج	عبد العـــزيز جاويد
الفيلم التســـجيلى	محمود ســـامى عطا الله
الرومانتيكية والواقعية	بانـــكو لافرين
نظرية التصـــوير	ليوناردو دافنشى
تاريخ العلم والحضارة في الصين	جوزيف نيدهام

رقم الايداع بدار الكتب ٥٦٥٠/١٩٩٦
ISBN — 977 — 01 — 4795 — 8

يعتبر ميجل دى ليبس مؤلف رواية الفئران أحد أهم الروائيين الاسبان من جيل ما بعد الحرب الأهلية (١٩٣٦ ـ ١٩٣٩)، بل أن معظم النقاد يقدمونه على كاميلو خوسيه ثيلا الفائز بجائزة نوبل عام ١٩٨٩. وتتميز أعماله بنبرة إنسانية عميقة يعبر بها عن أوجاع وأنات المظلومين ويدافع من خلالها عن كل ما هو عفوى وانسانى، وقد ترجمت أعماله إلى الكثير من اللغات، ونحن نقدمه اليوم الى القارئ العربى فى تلك القصة الإنسانية التى تدور احداثها فى الريف الاسبانى فى قرية تعشعش فيها الجهالات ويخيم عليها الظلم، فجل ارضها فى يد مزارع واحد لا يكف عن التبجح بخيره الذى يغرق اهله وبطلها صبى لا يتجاوز الحادية عشرة من عمره يعيش مع والده صياد الفئران فى كهف على قمة ربوة عالية، ورغم فقره لكن الصبى يتمتع بذكاء نادر يجعله مرجعاً لاهل القرية يسعون اليه لطلب المشورة، ومن خلاله يجسد الكاتب افكاره عن التقدم والعدل الاجتماعى، فالصبى وإن كان صيادا لكنه لا يقبل قتل الحيوان لمجرد القتل، فهو يكره الموت ويقبل على الحياة، وفى ذات الوقت يسعى العمدة الى طرده هو وأبيه من الكهف وهدمه حتى لا يشوه مظهر القرية فى عيون السياح الاجانب.. إنه قصة عامرة بالدلالات يحاول من خلالها المؤلف أن يسخر من سوء الإدارة المركزية والنفاق الإجتماعى ويبين فداحة تحكم الآلة فى الانسان وتراجع القيم الإيجابية فى انسان العصر وابراز مثالب الظلم الاجتماعى.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب